

سلامه موسى

تربية سلامه موسى

العالم طيب إني أبارك على الحياة .
راسبو



القاهرة

دار الكتب المصرية

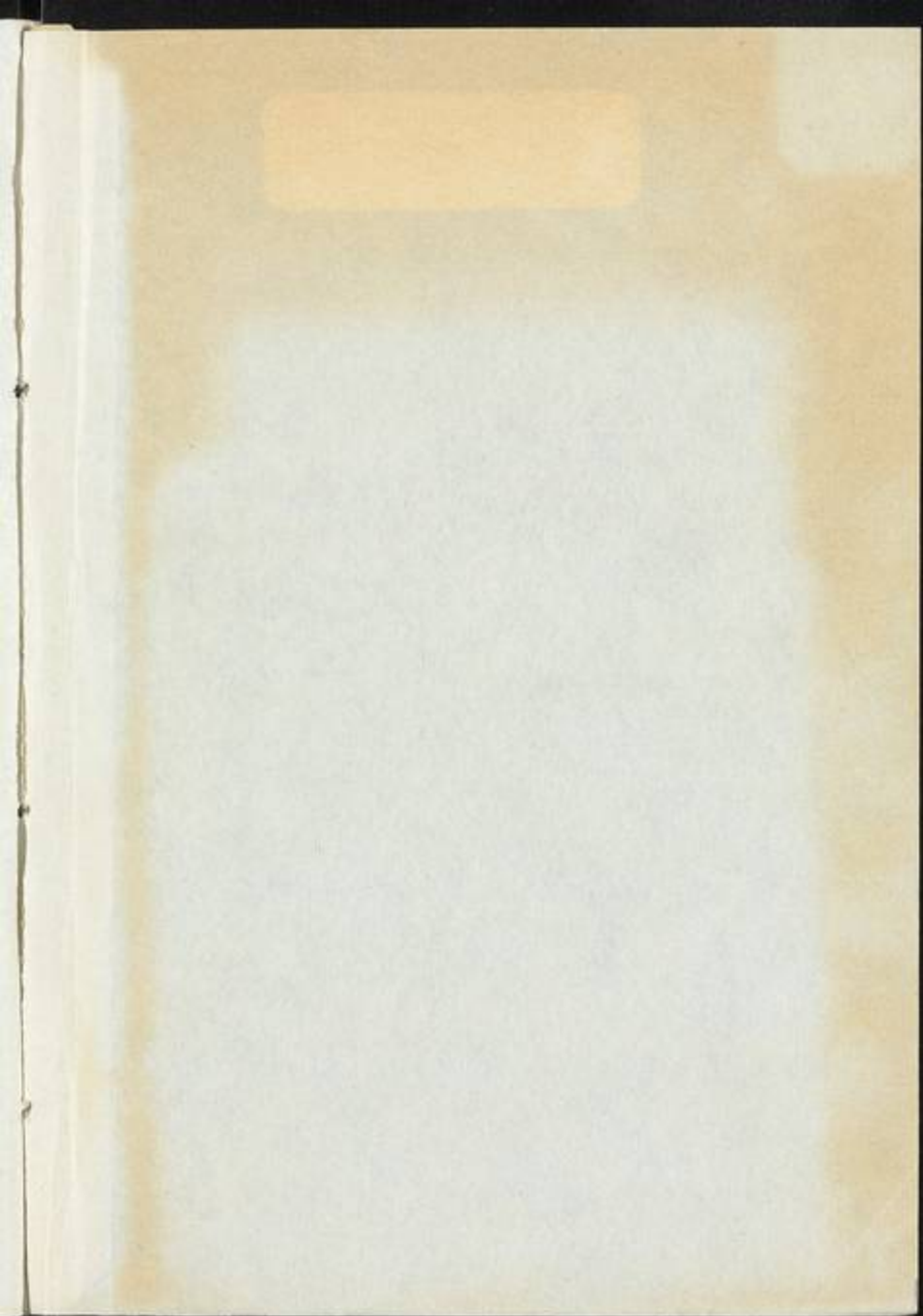
شركة مساهمة مصرية

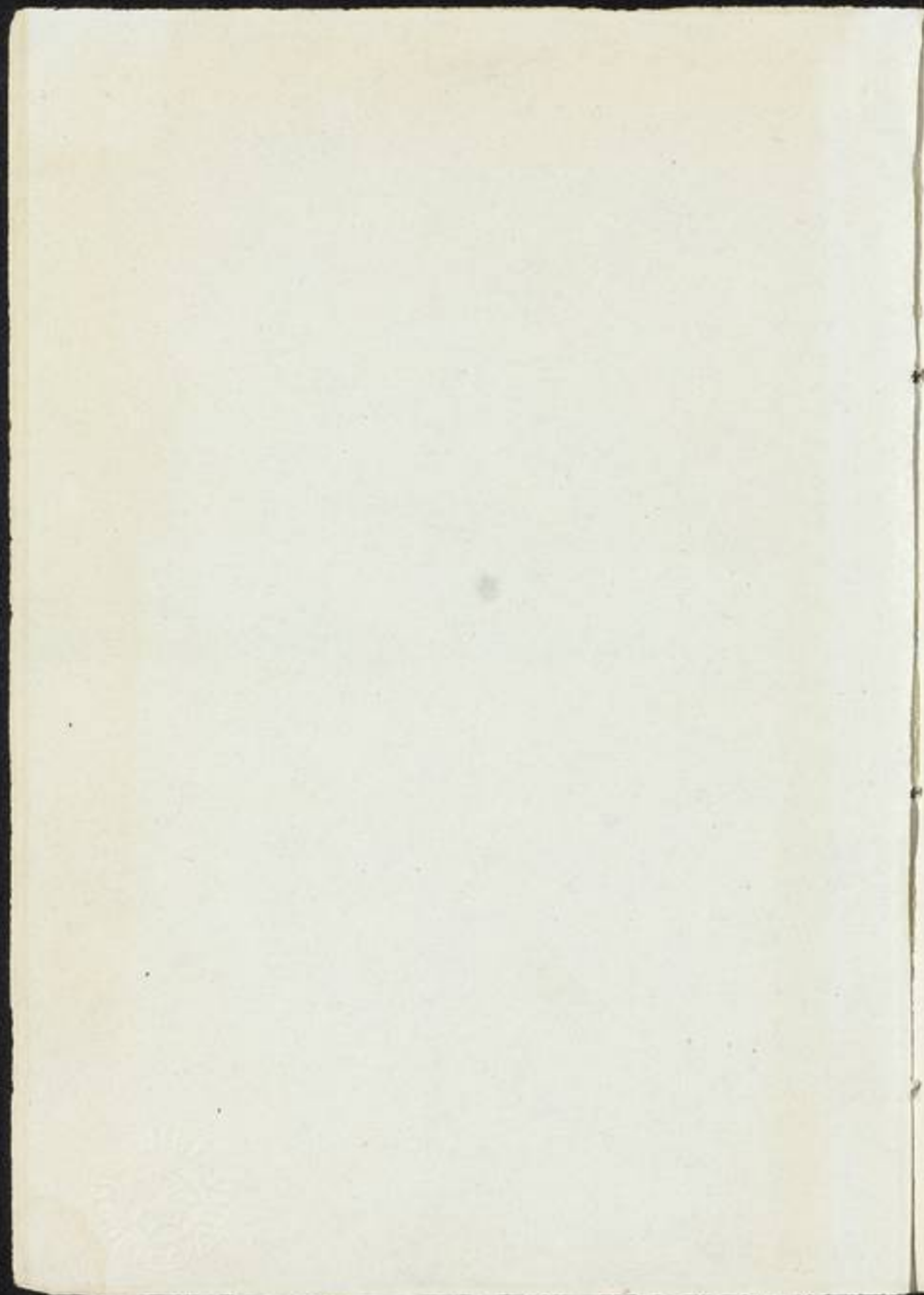
١٩٤٨

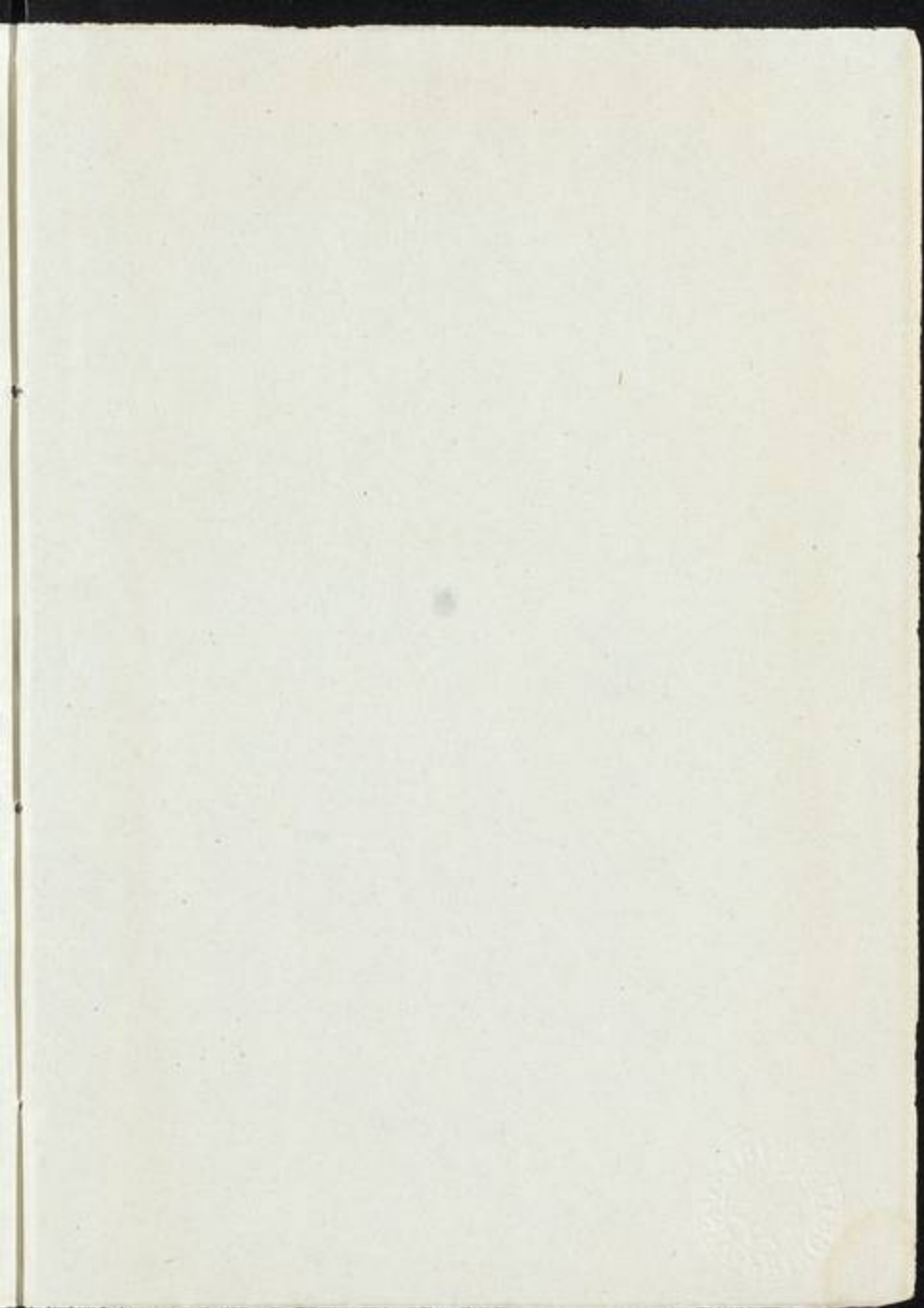
Princeton University Library



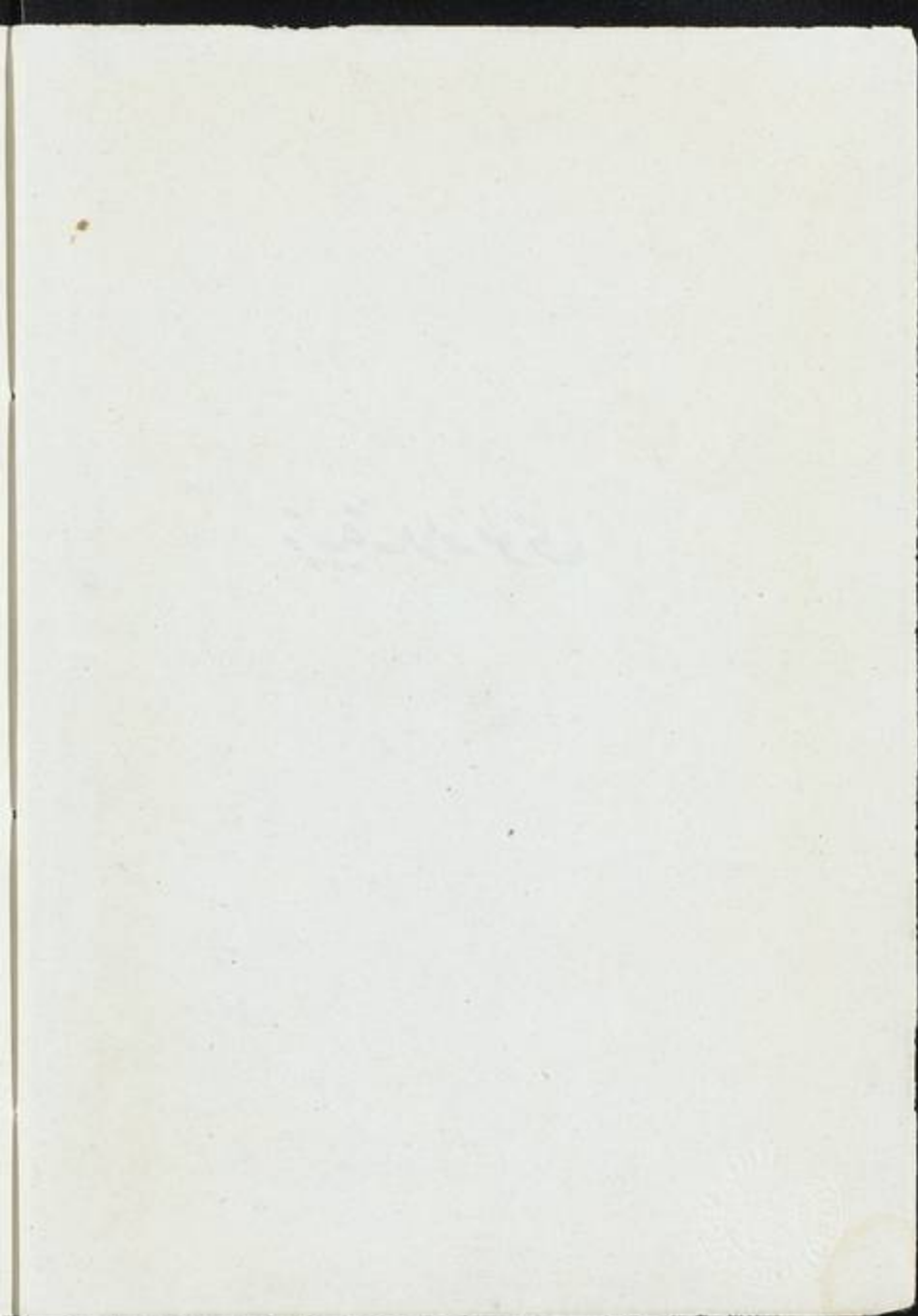
32101 072574344







تَرْبِيَةُ سَيِّدَةِ نَبِيِّ



سلامه موسى

Salāmah Mūsa

تَرْبِيَةٌ سَلَامَةٌ مُوسَى

العالم طيب . . . إني أبارك على الحياة .

رامبو

Tarbiyat Salāmah
Mūsa



دار الكاتب المصري

الطبعة الأولى . . . ديسمبر ١٩٤٧

جميع الحقوق محفوظة لدار الكاتب انصرى ١٩٤٧

فهرس

صفحة	
٩	المقدمة
١٥	الطفولة والصبا
٢٦	أى وأخوتى
٤٠	القاهرة فيما بين ١٩٠٣ و ١٩٠٧
٥٣	أول وجدانى الذهنى
٦٣	كرومر وجورست وكتشنر
٧٦	الآفاق الأوربية تتفتح لى
٨٦	أنا أربى نفسى
١٠١	تربيتى الأدبية
١١٦	تربيتى العلمية
١٣٠	ذكريات الحرب الكبرى الأولى
١٤٦	ثورة ١٩١٩
١٥٨	زوجة وأطفال
١٦٦	شخصية عرقها
١٧٣	كفاحى الثنائى واختباراتى الصحفية

2272
 .6898
 389

صفحة

١٨٨	كفاحى السياسى
١٩٨	فى خدمة الشباب
٢٠٧	من الأفلام الماضىة
٢١٣	بعض الأدباء الذين عرفتهم
٢٣١	التدابير الانجليزية لفقرا و جهلنا ومرضنا
٢٤٢	فلسفة وديانة
٢٥٦	هذا العمر
٢٧٣	من ١٩١٩ إلى ١٩٤٧
٢٨٠	برنامج السنوات العشر القادمة

المقدمة

ميلاد كل منا هو مغامرة مع القدر . نخرج إلى العالم بكفاءات وراثية لا تتغير من أبوين لم نختارهما . ونعيش في وسط ، تتكون فيه نفوسنا وتملى علينا فيه العقائد وطرز السلوك ، قبل أن نستطيع أن نغيره . ثم تتوالى علينا الحوادث التي تقرر اتجاهاتنا في الحياة وتقع بنا الكوارث التي نتكيف بها وننزل على مقتضياتها . وعلى الرغم من أننا جميعاً نصاغ في قالب البشرية ، فإن كلانا فذ في هذه الدنيا قد كتبت حظوظه ، أو أكثرها ، قبل أن يولد ، إن خيراً وإن شراً . ولذلك فإن قصة كل منا هي قصة فذة مفردة تستحق أن تروى وتقرأ . وكلنا يجب أن يتحدث عن نفسه ، وأحياناً يسرف ويدمن في هذا الحديث حتى يثقل على إخوانه . ولكن ، مع ذلك ، لا تكاد تخلو حياة إنسان مما يجدر ذكره للمغزى أو العبرة إلا إذا كانت حياة أبله قد سرت به الاختبارات دون أن يفعل بها . وواضح أن مثل هذه الحياة لا تزيد كثيراً ، من حيث المغزى أو العبرة ، على حياة البقول . وأحياناً تضطرب العصور التي يعيش فيها المجتمع . فيبعث هذا الاضطراب وجداناً بالأخلاق والسياسة والاقتصاد والاجتماع ، فيدكو ، حتى العقل الخامد . ويتنبه ، حتى القلب الغافل . ونأخذ جميعاً

7-20-10 385-1911

في التساؤل والاستطلاع . ونرفض التسليم بالقيم السابقة أو الطاعة للتقاليد الموروثة . ثم نتطلع إلى المستقبل ونحاول أن نخترع الأساليب الجديدة للعيش .

وقد قضيت عمري إلى الآن ، وهو يقارب الستين ، في بقعة مضطربة من هذا الكوكب ، هي مصر . وعشت هذا العمر وأنا أرى انتقالها المتعثر من الشرق إلى الغرب أي من آسيا إلى أوروبا . وعانيت مخاضها وهي تلد هذا المجتمع الجديد الذي لا يزال طفلاً يبحو كما عانيت كفاحها للانجليز المستعمرين وللرجعيين المصريين . وكل هذا يستحق أن يروى وأن يقف عليه الجيل الجديد .

وأنا إذن في هذه السيرة لست مؤرخاً لنفسى فقط . إذ أنى حين أترجم بحياتي وأصف للقارىء كيف تكونت شخصيتى وكيف رببت نفسى ، بل حين أعزو إلى نفسى بعض الفضل فى تحطيم المعابر التى كانت تصل يومنا بأمسنا ، أى بالقرون المظلمة ، وتحاول ربط تاريخ الغد الخافل بالافتحام والشجاعة والرؤيا بتاريخ الأسس وهو بأساة حالكة بالظلم والفاقة والجهل والحين ، فى كل ذلك إنما أروى تاريخ العصر الذى عشت فيه وتاريخ الجيل الذى كنت أحد أفراده .

ولكنى ، مع إنى سأروى تاريخ مصر أو أشير إلى الأعلام البارزة فيه مدة حياتى ، فأنى مع ذلك لن أكون الراوى الموضوعى . لأنى فى هذه السيرة ، سوف أنظر بعدستى الذهنية وأوثر الانفعال الذاتى على الحقيقة الموضوعية ، لأنى أترجم بالسيرة قصداً أولاً ، وأدون التاريخ عرضاً ثانياً .

وواضح أن كل سيرة يرويها صاحبها يعيها تقص هو الذاتية ، إذ يشق على أذكي الناس أن يحلل نفسه ويعرض لتاريخه ، التحليل والعرض ، الموضوعيين . ولكن هذا العيب هو أيضاً ميزة لأن القارى ينتفع بشئ آخر لا يجده في الرواية الموضوعية ، يكتبها غيرنا عنا ، وهو أنه سيفق على وقع الحوادث في الكاتب .

وقد يعيب السيرة الذاتية أيضاً أن مؤلفها لن يبوح بكل ما يعرف ، وخاصة إذا كان ما يجب أن يبوح به يتصل بأشخاص لا يزالون أحياء يكره أن يؤلمهم . وهناك أشخاص هم في وجداني الآن حين أذكّرهم أحس أن أنفاسي تهدت لفرط ما أساءوا إلى ولكنى لن أكتب شيئاً عنهم لأنهم لا يزالون أحياء . ويعيب السيرة الذاتية أيضاً أن كاتبها لا يحسن التحليل لنفسه لأن كثيراً مما يراه غيره فيه يعمى هو ، لذاتيته ، عند . وأخيراً يعيب السيرة الذاتية أن مؤلفها سيثرثر كثيراً وقد يلغو عن صناعته كأنها كل شئ في حياته . فالأديب يتحدث عن الأدب والطبيب عن الطب . ولكن قليلا من العناية بالتنبه الوجداني عند الكاتب يؤدي إلى إصلاح هذا النقص .

وحن ، حين نكتب تاريخنا بيدنا ، نمتاز من حيث أننا نكتب عن موضوع لا يعرف تفاصيله أحد مثلنا . وهذه ميزة كبرى وخاصة إذا حرصنا على ألا تغمرنا التفاصيل فنخطئ الأبعاد ولا ترى الغاية ، في نظرة شاملة مترامية ، لأننا نشتغل برؤية الشجرة القريبة منا . وقد يكون الدافع الأول لكتابة هذه السيرة أنى أحس ، إلى حد كبير ، أنى منعزل عن المجتمع الذى أعيش فيه لا أنساق معه

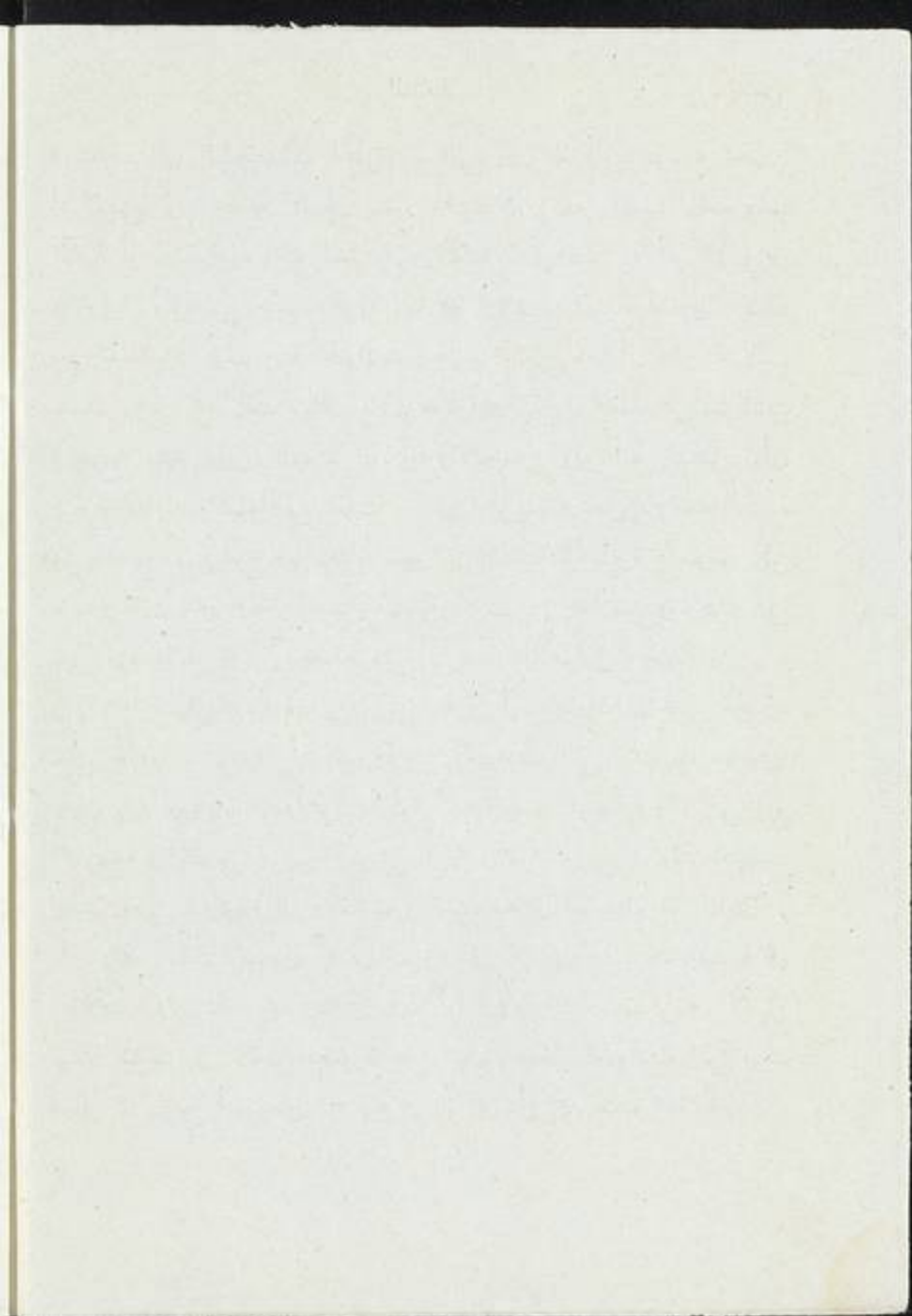
في عقائده وعواطفه ورؤياه . وعندئذ تكون هذه الترجمة التبرير لموقفى مع هذا المجتمع وهو موقف الاحتجاج والمعارضة . فأنا أكتب كى أسوى حسابى مع التاريخ .

وكل حياة بصرف النظر عن الحياة العقلية البلهاء التى أشرت إليها ، تستحق أن تعرف وتروى أخبارها واختباراتها ، لأننا ، كما يجب أن نقرأ عن القيم التى وصل إليها العبقري أو القديس ، كذلك ، يجب أن نعرف الأعماق التى هبط إليها المجرم ؛ لأن كليهما إنسان ومن حقنا أن نقف على الارتفاع الذى تسمو إليه . ولذلك أيضاً يجب ألا نستصغر قيمة السيرة ، يكتبها المتوسط العادى وحتى المنحط الشاذ . لأن فى تخلفه عن اللحاق ، أو فى عجزه عن السبق عبرة قد يرجع مغزاها إلى المجتمع الذى عاش فيه فنتق تبعته على بيئته وليس عليه . وعندئذ تكون سيرته دعوة إلى هذا المجتمع كى يتغير ويتطور .

وحين يكتب أحدنا سيرته ، ويخلص بقدر ما يتيح له ظروفه ، يعرض ، من حيث لا يقصد ، للعوامل التى كونت شخصيته وربته . لأننا لا نترى فى المدارس فقط . إذ تربينا أيضاً العائلة التى نشأنا فى أحضانها الناعمة أو بين أشواكها الخشنة . كما يربينا الشارع الذى اختلطنا بأبنائه ، ثم بعد ذلك ، أى بعد العائلة والمدارس ، نعيش نحو خمسين أو ستين سنة ونحن نترى بالصحف التى نقرأ كل صباح وبالكتب التى نستشير بها . ثم بالعمل الذى نرتزق به . لأن هذا العمل ، بما فيه من حقوق وواجبات ، يكلفنا تكاليف مختلفة . ويمثلنا على الاختلاط

والتعرف إلى الشخصيات البارزة ، التي كان لها أثر التوجيه الحسن أو السيء في المجتمع . كما أن تتابع الحوادث وتغير الدنيا بالمخترعات الآلية أو الكيماوية ، ثم اختباراتنا ومحنتنا ، كل هذا له أثر التكوين والتربية . وكل من يكتب سيرته إنما هو في الواقع يشرح للقارى كيف ربي نفسه أو كيف ربته الحوادث . وليس معنى هذا أن التربية كانت حسنة . إذ ربما كانت سيئة ، فإن الجرم قد انتهى إلى مأساته باستجابات ورجوع بينه وبين الوسط المادى والاجتماعى ولو أنه استطاع أن يشرح لنا الحوادث التي انتهت به إلى الجريمة ويحلل مواقفه المختلفة من المجتمع ، لأخرج لنا كتاباً منيراً . ولذلك كل سيرة ، مهما يكن « سائرهما » تنفع وتثير ما دام كاتبها يكتب في إخلاص وما دام على شئ متوسط من الذكاء يحمله على أن يبصر بالعوامل المختلفة .

و « تربية سلامة موسى » هي سيرتى أبسطها لقراء الجيل الجديد حتى يعرفوا ما لم يروه أو يختبروه من الحوادث التي مرت بنا فيما بين ١٨٩٥ ، ١٩٤٧ . وأعود فأكرر أنها ليست تاريخاً وإنما هي وقع التاريخ في نفسى . وسيرتى هي أولاً وآخرها تربيتى . وقد اقتبست العنوان من هنرى آدمز ووجدت في مبناه مغزى قد يفتنح به القارى . وقد كتبت فصول هذه السيرة في ستين ونشرت بعضها في المجلات ، ولذلك قد يجد القارى تكراراً ؛ لأن النية لم تكن في الأصل تهيئة كتاب بل كانت مقصورة على اختيار بعض الحوادث التي مرت بحياتى مما يصح أن يكون له مغزى للقارى أو يجد عنده اهتماماً .



الطفولة والصبا

رأيت القرن التاسع عشر بعين الطفولة . ورأيته وهو خلو من الغش لم يلابسه شيء من مخترعات القرن العشرين . وهذا مالا يستطيع أن يقوله أوربي لأن إيماءات القرن العشرين كانت تبدو واضحة في أواخر القرن التاسع عشر في أوروبا . أما في مصر فقد حدث العكس ، وهو أن تراث القرن التاسع عشر بل بعض القرون التي سبقته بقيت عالقة ببداية قرننا هذا . ومازلنا في ١٩٤٧ نرى هذا التراث على أثقله في طبقاتنا الفقيرة . وليس هذا من ناحية الوسط فقط حيث الفقر المذل ، بل من ناحية النفس أيضاً ، حيث الرضا بالحظ المقسوم والايمان بالخرافات والتسليم بالنظم الاقطاعية كأنها الشيء الطبيعي لحيثنا .

أجل ! لقد ركبت الحمار من محطة القاهرة إلى عابدين ، ورأيت الجاموسة تحضر كل يوم من العزبة إلى منزلنا بالزقازيق كي تحلب ثم تعود . وضربت من أختي لأنى ناديتها باسمها من الشارع ؛ إذ كان يعد من الشعائر الاجتماعية العامة ألا تعرف أسماء الفتيات . وعشت في الزقازيق حين لم تكن تعرف المصاييح ، حتى إننا كنا ، حين نزور بعض أقرابنا ، نحمل معنا « فانوساً » نسترشد به في ظلام الشوارع .

ورأيت أحد الجرمين يشنق في ميدان الزقازيق ، وبقيت نحو عام وأنا أفزع من اسمه ، وكان يدعى « سيد أهله » . ولم أكن أستطيع النوم إلا وأنا متعلق بعنق أمي ، ولم أكن أستطيع الدخول في المرحاض إلا بمرافقة الخادم لأن رسم المشنقة بقي حياً في مخيلتي الصغيرة . وكان من المألوف الذي كنا لا نحس فيه وخزاً أو عيباً أن يجري خلفنا الفلاح نحو ساعة ونحن على الحمير وهو يلهث كأنه والحمار سواء .

وكانت لنا دار « قوراء » في الزقازيق تتسع لخمسة أو بعل في فنائها الذي يستقبل السماء وتفرش أرضه أشعة الشمس . وكانت هذه المطايا أتومبيلات العائلة وفقاً لشعائر القرن التاسع عشر . ولعل إرماد عيني في صباي كان يعود إلى روث هذه البهائم .

والزقازيق بلدة جديدة لا يرجع تاريخها إلى أكثر من ثمانين عاماً وجميع عائلاتها لهذا السبب ينتمون إلى بلدان أخرى . وكذلك كانت أسرتي فانها ترجع إلى البياضية في مديرية أسبوط ، وقد تركنا البياضية منذ نحو ١٤ سنة أي في نهاية الحكم الفرنسي وبداية حكم محمد علي . وأسرتنا في مديرية الشرقية تعرف بلقب « العنق » ولا يزال هذا اللقب في البياضية على الرغم من فرقة تقارب قرناً ونصف قرن . والأصل والفرع يعيشان في يسر . ولكن ليس هناك أي تعارف بين أعقياء البياضية وأعقياء الشرقية . ولم نزر هذه القرية منذ ١٤ سنة .

أما لماذا هجر فرعنا الحاضر في مديرية الشرقية هذه القرية الصعيدية ، فاننا نجهل تفاصيله ، ولكنني أرجح هذا التفسير التالي : لما غزا نابليون مصر في أواخر القرن الثامن عشر انتعش الأقباط .

ولم يكن الشعب المصرى ، مسلمين ومسيحيين ، يحس الوجدان الوطنى الذى تحسه فى عصرنا . وذلك لأن الوجدان الدينى كان يقوم مقامه . وفرح الأقباط بدخول نابليون واستطاعوا أن يجروا على تغيير ملابسهم وأن يرحلوا عن قراهم فى الصعيد إلى القاهرة وبلدان الوجه البحرى . وكانوا إلى ذلك الوقت يتعممون بالعمائم السود مع أزياء أخرى يختصون بها ويتخذونها مضطربين منذ القرون المظلمة . وكانت هذه الأزياء الخاصة تمنع تنقلهم وارتياحهم مدن القطر . فلما جاء نابليون نزعوا هذا الزي واتخذوا الزي المصرى العام الذى كان ينفرد به إخوانهم المسلمون . وبذلك أتيح لهم التنقل . وأنا أعد هذا السبب الأصل لنزوح أبى جدى من البياضية إلى القاهرة ، ثم إلى القراقره فى مركز منيا القمح ثم إلى الزقازيق .

ومما يؤيد هذا التفسير قول الجبرتى فى حوادث ١٢٣٣ هجرية :

« فيه نودى على طائفة المخالفين للملة من الأقباط والأروام بأن يلزموا زيهم من الأزرق والأسود ولا يلبسون العائم البيض ؛ لأنهم خرجوا عن الحد فى كل شئ . ويتعممون بالشيلا الكشميرى الملونة والغالية فى الثمن ، ويركبون الرهوانات والبغال والخيول ، وأمامهم وخالصهم الخدم يطردون الناس عن طريقهم . ولا يظن الرأى لهم إلا أنهم من أعيان الدولة . ويلبسون الأسلحة وتخرج الطائفة منهم إلى الخلاء ويعملون لهم نشاناً يضربون عليه بالبنادق الرصاص وغير ذلك . فما أحسن هذا النهى لو دام . »

ولكنه لم يدم كما اشتبهى هذا العالم الأزهرى الجبترى . ويبدو أن الأقباط والأروام عادوا فتوسلوا بالقناصل الفرنسيين والايطاليين إلى مجد على فالغى هذا التمييز ، فاستطاع الأقباط أن يختلطوا بسائر الشعب وأن يتحلوا ويتنقلوا كما شاءوا . وواضح أن الأزياء السابقة التي كانوا يتخذونها منذ الحاكم بأمر الله كانت تجمدهم في قراهم لأنهم كانوا إذا انتقلوا إلى مدينة غريبة صاروا عرضة ، على الأقل ، للتهزئة والتعير ، إن لم يكن لأكثر من هذا .

وهجر أبو جدى قرية البياضية حوالى ١٨٠٠ أو ١٨١٠ فى عمامة بيضاء . وكان هذا من الانتصارات الخطيرة للقرن التاسع عشر على القرون السابقة .

وجميع أفراد عائلتنا يعدون ، بحسب الترتيب المزاجى لسكرتشمير ، انطوائيين ، يتسمون بالوجه الطويل والقامة التحيفة والاعتكاف أو كراهة الاختلاط . وأحياناً يبدو هذا المزاج فى مبالغة شاذة حتى أنى أعرف أشخاصاً فى أسرة العنى عاشوا كأنهم كانوا رهباناً يتوقون الخبتمع ولا يحضر أحدهم عرساً أو جنازة إلا بضغظ . وقد لا يجدى الضغظ . ولكن هذا الشذوذ كان بالطبع نادراً .

ومات أبى ولما يبلغ عمرى السنتين . ونشأت لذلك فى بيت لا يزوره ضيف ، إلا إذا كان من الأعمام أو الأخوال ، فزادنى هذا الظرف انزواء على ما ورثت من المزاج الانطوائى . وقد صار هذا الانزواء بعد ذلك فضيلتى ورذيلتى معاً . فقد كانت تمضى على السنة والسنتان لا أعرف فيها القعود على القهوة ، كما أنى إلى الآن أجهل ألعاب الحظ الاجتماعية

البسيطة بالورق أو غيره مما يتسلى به غيرى كما أجهل التدخين . وما زلت أفر من المجتمعات في استحياء أو كراهة . ومع أنى أحسن الكتابة فانى أسى الخطابة ؛ لأن الأولى تؤدى في انفراد ، والثانية تحتاج إلى مجتمع . وقد عانيت كثيراً من هذا النقص الاجتماعى فى حياى بعد ذلك . ولكنى أعزو إلى انطوائيتى هذا الاعتكاف فى مكتبتى ، وهو الذى بسطلى آفاقاً واسعة من الحكمة وأمتعنى بجنات نضرة وغرس فى نفسى ديانة بشرية سامية .

وأولى الذكريات التى تمثل فى ذهنى من أيام الطفولة ، صورة أمى وهى قاعدة إلى فراشى تصلى من أجلى وأنا مريض . ولا أعرف كنه هذا المرض الذى ألزمنى الفراش نحو عام أو عامين . والأغلب أنى مرضت به وأنا فى الخامسة أو السادسة ، ولعله كان حمى الملاريا . لأن الزقازيق كانت فى ذلك الوقت حافلة بالبرك الآسنة . ولما قاربت الشفاء كان خادمنا عطية يحملنى إلى ضريح ولى مسلم يدعى أبا عامر . ولا يزال ضريحه قائماً بقرب الزقازيق . وكان يشتري الشمع ويتصدق بقروش ، ويدور بى حول الضريح ويتمسح به ويقرأ الفاتحة جملة مرات وأنا على عاتقه . وكان عطية متعلقاً بى يهمل شئون البيت كى يقعد بجوارى ويلاعبنى وأنا مريض . وبقى أكثر من عشر سنوات بعد ذلك بمنزلنا . وكان حبه لى ساذجاً يطغى ، فكان يلقمنى الطعام حتى أعجز عن البلع . وكان هذا العجز علامة الشيع عنده ، ولم يتركنا إلا بعد أن اشتري فدائاً وآثر الفلاحة على الخدمة المنزلية .

ومما أذكره من تلك السنوات أى بين ١٨٩٥ و ١٨٩٨ أن وباء

الكوليرا فشا في الزقازيق . فكانت النعوش تخرج متوالية وليس وراءها سوى شخصين أو ثلاثة . وعم الذعر بين السكان ولكن توالى الموت كان أيضاً مجالا للفكاهات . وكنا نحن الصبيان أكثر السكان فكاهات ، فكنا نسير جماعات صغيرة فإذا سمعنا فزعة الموت بصراخ النسوة قابلناها بهيه . . . ثم نجتمع أمام البيت كي نرى الشعائر الأخيرة . وكانت هذه الشعائر تجري في سرعة واقتضاب .

وكان مما يحدث أن بعض الصبيان الذين كانوا في جماعتنا يقع هذا الوباء في بيوتهم ، فيتركوننا . ولكننا لم نكن نضمن عليهم بهذه المظاهرات . ولم يكونوا هم على وجدان بالمأساة إذ سرعان ما كانوا يعودون إلينا قبل أن ينفض الماتم ، وأعنى بالماتم صراخ النسوة يجتمعن في البيت . أما إقامة السرادقات للعزاء فلم يكن الوقت يتسع له لوفرة الوفيات .

وَأدخلت الكتاب ، ولم تكن بدعة المدارس قد ظهرت في الزقازيق . وقضيت من السنين مالا أذكره وأنا أجهل القراءة . وكانت غاية العريف أن يعلمني عن ظهر قلب بعض الصلوات ، فلما حققت « نعظملك يا أم النور » وهو دعاء إلى العذراء ، راقفتي إلى البيت وقعد هو أمام أمي وانطلقت أنا أسرد الدعاء . وناولته أمي على أثر ذلك جنياً . وتألقت في الزقازيق جمعية خيرية من الأقباط ، وكان أول نشاطها أن أنشأت مدرسة « عصرية » أي إنه كان بها مقاعد من الخشب ومعلمون في زى أوربي . وانتقلنا من الكتاب إليها . وشرعنا نتعلم وندرس في جد . ثم ظهرت المدرسة « الأميرية » فدخلناها . وكان

التلاميذ يلبسون الجلابيب إلى أن زار الخديوى عباس هذه المدرسة حوالى ١٨٩٩ فطالبونا باتخاذ الزي الأوربى . وحصلت المدرسة من كل تلميذ على ٢٥ أو ٣٠ قرشاً ثمن بذلة بيضاء لكل منا . وزارنا الخديوى ونحن فى هذا الزي الأبيض الناصع . ولم نعد بعد ذلك إلى الجلابيب .

ولا يستطيع مصرى التحق بالمدارس المصرية الابتدائية والثانوية الأميرية فيما بين ١٩٠٠ و ١٩٢٠ أن يقول إنه كان هينياً بالحياة المدرسية . فقد كانت هذه المدارس ثكنات . وكان كل ما يستحق الاهتمام فيها هو النظام أى الطاعة . ولم تكن نعرف ذلك الروح الديمقراطية الذى يعم المعاهد التعليمية فى هذه السنين . وكذلك لم تكن هناك أية ألفة بين المدرس والتلميذ . وكانت هذه الصفات أبرز فى المدارس الثانوية منها فى المدارس الابتدائية ، حتى كان العام يمر والتلاميذ لا يعرفون اسم المعلم الانجليزى الذى كان ينطق صمته قبل حديثه بالخطبة ، وكان المعلم يسرع إلى العقوبة لأقل إيماءة مخالفة من التلميذ وكانت العقوبة المألوفة أن يحرم التلميذ من الغداء ويعطى رغباً يأكله وهو واقف إلى جنب زملائه القاعدين إلى المائدة . ولست أظن أنه كان يقصد بهذه العقوبة سوى تعميم الذلة والهوان بيننا .

وكان التعليم فى المدارس الابتدائية أقل ذلة ، لأن المعلمين كانوا مصريين ، ولكن حتى هنا كان القرن التاسع عشر يشب علينا بأساليب فى الضغط والعريضة . فكان المعلم أحياناً يعمد إلى أسلوب فى العقاب يفتشى بيننا الكراهة والوقية . ذلك أنه إذا أخطأ أحدنا وردته تلميذ

آخر إلى الصواب عمد هذا الثاني إلى لطم الأول على خده . فاذا تعطف هذا الضارب وأدى العقوبة تأدية شكلية استعاده المعلم وطالبه بالضرب الجدى . فاذا انطلقنا بعد ذلك من الفصل إلى الفسحة أمسك المصروب بخناق الضارب وانتقم منه .

ولكننا كنا نهنا بالاجازات المدرسية التي كنا نقضيها في الريف . وهي لا تزال تبرز في ذهني كأجمل وأنصح ذكرىاتي . وفي هذا الريف اكتسبت كثيراً من الاختبارات التي لا تتحقق لأطفال المدن . وكانت قريتنا تبعد عن الزقازيق نحو ساعة على الحمار . وكنا نلعب مع صبيان المزارعين إلى الساعات الأولى من الصباح . وأحياناً كنا ندبر السرقات في الحقول للخيار أو البطيخ . ولا يزال عالقاً بذاكرتي بعض الاقتحامات والصبوات . فقد تسلقت ذات مرة شجرة كان في أطرافها العليا عش . فلما بلغتته وجدت فيه فرخى غراب . فأمسكتهما بيدي وشرعت أهبط . ولكنني ما كدت أترك العش حتى وجدت ثورة من اللطم المؤلم والعض الشنيع تغمر رأسي ووجهي . وطار عقلي وأنا في هذا الاضطراب . فلم أنتبه إلى أن هذه الثورة هي أم الفرخين يساعدنا أب أو عم . ولو كنت أدركت خلقت عن الفرخين ونزلت في سلام . ولكنني لفرط الألم والرعب بقيت في غشية مغمض العينين وأنا ممسك بالفرخين أتحسس طريقي الخطرة على فروع الشجرة إلى أن مسست الأرض . وهنا أفقت وفتحت عيني فوجدت ثلاثة أو أربعة من الغربان تصرخ بي وتسب وتهاتر بعد أن أئخنتني وضربت رأسي ووجهي بالدماء . ومرة أخرى في إحدى جولاتي سمعت خشخشة في ديس عند حرف

القناة ، فلما اقتربت وجدت حجراً وظننت أنى قد هبطت على عش ساخرج منه بعنينة . فلما أدخلت يدي قبضت على جسم طرى ، فجزرته فاذا به ثعبان .

ولكن الريف لم يكن كله على غرار هذه المفازع . فان مباحجه ، والأنسة الديمقراطية التي كانت تنعقد بينى وبين الصبيان الذين كانوا فى سنى ، واللبالى التي كنا نحجوها فى السمر أو اللعب ، والاستحمام فى النهر ، وركوب الفرس ، والجولة إلى السوق الأسبوعية ، ثم إلى ذلك معيشة الريف الساذجة ، كل هذا كانت تحفل به حياتنا فى الصبا . وكنا نجد اهتمامات تشغلنا . ولم تكن كلها صبيانية ؛ فانى أذكر أن ولادة الجاسوسة حركت عقلى وقلبى جملة أيام ، وما زالت صورتها إلى الآن ترتسم فى مخيلتى وهى فى حرج الولادة تئن وتلهث وتلتفت ، وجميعنا حولها فى عطف نتالم لها ، وكان بعضنا يدعوا لها بالسلامة كأنها صديق من البشر ، حتى خرج المولود بعينه الواسعتين وهو يترنح ونحن نسنده وأمه تحنو عليه وتلحسه .

وحصلت على الشهادة الابتدائية فى سنة ١٩٠٣ ، ولا أعرف بالضبط كم كان عمري . لأن إثبات الميلاد لم يكن فى أيامنا من القواعد الصارمة . ولكن أغلب الظن أنى ولدت حوالى ١٨٨٧ ، ودخلت السنة الأولى فى المدرسة الأميرية وأنا فى الحادية عشرة وهى السن التى نال فيها ابنى بعد ذلك هذه الشهادة . . . ومع ذلك كنت أعد من صغار السن فى الفصول ؛ إذ كان بيننا من بلغوا العشرين .

وعند ما أقارن بين ما تعلمته بالمدرسة الابتدائية بالضرب وسائر

العقوبات بما تعلمته عفواً في الريف من اختبارات في الحياة ، أجد أن الريف قد علمني أكثر وأكسبني من المعارف الذهنية والروحية ما يعد تربية حقة ما زلت أنتفع بها إلى الآن . فقد اكتسبت من الريف هذا الحب للطبيعة الذي جعلني أحس سائر حياقي أن الأرض هي الأم . وأكد وأنا في الريف أحس ، مثلما أحس ذلك الراهب في قصة « الاخوة كرامازوف » للدستوفسكي ، حين انبطح على الأرض يقبلها ، مثل هذه العاطفة المقدسة . وظنى أن هذه العاطفة هي المبعث الذي انبعث منه بعد ذلك وجداني الديني البشري واستطلاعي الدائم لعالمى النبات والحيوان واهتمامي بشئون العمال .

وكانت حياتنا بالريف سليمة من الناحية الصحية . فانه على الرغم من أننا كنا ندوس الحقول ونغوض القنوات بلا حذاء ونستحم في النهر ، فاننا لم نعرف البلهارسيا أو الانكاستوما . وذلك لأن التربة لم تكن قد استشيعت بالماء كما هي الحال الآن ، بعد أن عمت مشروعات الري التي أحالت أرض القطر المصرى كلها تقريباً إلى عزبة لإنتاج القطن دون أى اعتبار لصحة الفلاحين . وأذكر أن التربة كانت أيام الجفاف تتشقق ، وكان عرض الشق يزيد على عشرة سنتمترات ويغور نحو نصف متر . وفي مثل هذا الوسط لم تكن الديدان تستطيع الحياة . وكانت صحة الفلاحين سليمة وأجسامهم قوية . ولكن الانجليز المتسلطين على بلادنا وقتئذ رأوا أن إنتاج القطن خير لهم من صحة الفلاحين .

وكانت الحياة الدينية أبرز من الحياة الاجتماعية أو المدنية في

العائلات القبطية . وهذا على عكس ما نرى الآن . فاني أذكر أنه كان
 عيد الميلاد فحة عظيمة تمتاز بمقدمات ولواحق . وكنا نعد له الأيام
 ونتمهياً بالملابس والنقل والذبائح . وكانت تفد إلى بيتنا عجوز تقضى
 في كل عيد نحو شهر لا أعرف أصلها ولكني أذكر اسمها خريستا وكانت
 تقص علينا الأساطير البديعة كما تصنع لنا أنواعاً من الكعك المزخرف .
 وقد ورث الأقباط التعاليم الكنسية كما كانت حين تجمدت في
 الدولة البيزنطية فيما بين القرن الرابع والقرن السادس . ولذلك كانت
 « العذراء » بارزة بوضوحاً يبرر وصف الأوربيين للعقيدة المسيحية في مصر
 في نهاية القرن الماضي وأوائل الحاضر بأنها « ماريولوجية » . ولكن
 انتشار المذهب البروتستنتي في مصر استفز الكنيسة القبطية وأثارها
 إلى الوجدان المسيحي . وكثير من الأقباط يأسفون على انتشار المذهب
 البروتستنتي في مصر ويحيدون فيه شقاً لم يكن ضرورياً . ولكني أظن
 أنه لولا هذا المذهب لما تنهت كنيستنا الأورثوذكسية ولما استيقظت
 من نعاس القرون الماضية .

وكانت المرأة ، مسلمة أو قبطية ، تعيش في ظلام الحجاب لا تجالس
 الضيوف من الرجال . وكان هؤلاء يزورون أو يزارون في « منطرة »
 لا تشترك في لقاءهم المرأة . وكان البرقع عاماً لا تخرج امرأة إلا ووجهها
 مقنع . وأذكر أن أمي وأخوتي المتزوجات التزمين البرقع إلى حوالى
 سنة ١٩٠٧ أو ١٩٠٨ حين تركته . وظني أن هذا الترك كان من
 أثر البروتستنتي أيضاً لأنهم كانوا ألصق بالغربيين وأكثر أخذاً بطرقهم
 منا نحن الأقباط الأورثوذكس .

أمى وأخوتى

لا أذكر أبى لأنه مات وأنا دون السنيتين فى ١٨٨٩ ، ولكن جو البيت فى طفولتى كان حافلاً بذكره . فقد كانت أمى تصف سنة وفاته بـ « السنة السوداء » . وبقيت بذلته معلقة إلى الحائط جملة سنوات كما كانت يوم وفاته حتى القميص المنشى بياقته المتصلة لم يكن يبرح مكانه . وكنت أسمع القصص عنه . وقد بقينا عقب وفاته نتناول مؤخر مرتبه عشرين شهراً تقريباً . وهذا بالطبع غير المعاش . ومن هنا يعرف القارى مقدار الافلاس الذى كانت قد هوت إليه الحكومة . فقد كان الموظفون تتأخر مرتباتهم سنة أو سنتين . وكانت الرشوة تتفشى لهذا السبب . وكانت وظيفة أبى « رئيس تحريات مديرية الشرقية » ولم يزد مرتبه على سبعة جنيهات ونصف جنيه ومع ذلك ترك لنا وقت وفاته أكثر من مئة فدان . وكان الثمن المعتاد فى تلك السنين عشرة جنيهات أو عشرين جنيهاً للفدان . وقد اطلعت على عقد بيع لجدى فى نحو سبعين فداناً (حوالى ١٨٤٠) وكان اهتمام الكاتب للعقد بشأن أدوات الزراعة ، والحجرات والشورج ، وأوصاف الماشية ، من بقرة إلى جاموسة إلى حمار ، أكبر جداً من اهتمامه بالأرض التى لم تستغرق سوى ثلاثة سطور بينما استغرقت الأشياء الأولى أكثر من أربعين أو

خمسين سطرًا . وكان اتخاذ البذلة الأوربية جديدًا فى تلك السنين أى قبيل وفاة أبى بين الموظفين . وكانت البذلة المألوفة شيئاً يسمى « السترة الاستامبولية » وكانت سوداء بين الردينجوت والبونجور . وكنا نسمع القصص التى تروى عن التجارب الأولى فى خلع الملابس القديمة واتخاذ البذلة الأوربية . وكانت هذه القصص مجالاً للتنادر والضحك .

والطفولة فى أيامنا كانت أكثر امتعاً ، ولكن أقل تنبهاً ، مما هى الآن . لأننا قضيناها فى الزقازيق والريف . وكانت الزقازيق تخلو من تلك الحركة الصاخبة الخطرة التى ترى الآن فى القاهرة ، فكنا نجول فيها مطمئنين أو نخرج منها إلى الحقول المجاورة ، ولكن لم يكن هناك ما ينبه الذهن ويبعث الاستطلاع .

ومما أذكره وأنا فى الرابعة أو الخامسة أن شاباً يدعى زغبان غرق فى القناة التى أمام بيتنا . وأخرجت جثته ورأيتها محمولة على عاتق أحد الشبان وخلفه عدد كبير من الرجال والنساء فى لغظ وصراخ . ثم صار لزغبان هذا روح أو عقريت يتردد فى الظلام فنخوف به ، وتذكره الأم لطفلها المشاغب فيسكت ويخنس .

حدث هذا حوالى ١٨٩٢ ، وفى ١٩٤٥ أى بعد ٥٣ سنة كنت أسير إلى هذه القناة . فسمعت من إحدى الأمهات اسم زغبان تخوف به هذه الأم طفلها ، وهنا عبرة تفسر لنا نشأة الخرافات .

وعاشت أمى معى إلى ١٩١٦ حين ماتت فى الثالثة والسبعين . وكانت امرأة متدينة تعنى بالصلاة والدعاء وقت مرضى أيام الطفولة أكثر مما تعنى باستشارة الطبيب . وقد قضيت طفولتى وأنا فى ملابس

سوداء أحمل عبثاً من التعساويد يعوق الحركة الحرة ، بل لا تزال في أذنى علامة الحرم الذى علق به قرط إيهاماً بأنى لست غلاماً بل بنتاً حتى تتقى بذلك العين . وقد رأيت وأنا أفراً « الأرض الطيبة » لبيبرل بك أن هذه العقلية تسود الصينيين أيضاً . فإن الأم في هذه القصة تتحدث عن ابنها كأنه بنت حتى لا تصيبه الآلهة بالعين . وقيمة الذكر تزيد على قيمة الأنثى كلما انحط شأن المرأة . ولذلك كان للغلام ، ولا يزال إلى حد كبير ، مكانة كبيرة في مثل الصين أو الهند أو مصر . يمتاز بها على أخواته البنات .

وجميع الأمهات المصريات اللاتي ولدن قبل مئة سنة لا يختلفن . فهن يراز واحد من حيث الأمية والايمان بالخرافات واحترام التقاليد والتزام الحجاب . ولكن إذا كان النور قد نقصهن فان الطيبة لم تكن تنقصهن . لأن المطامع المالية الحاضرة لم تكن معروفة والتفاخر بالأثاث والأزياء والمقتنيات لم يكن أيضاً معروفاً إلى الحد الذى بلغه اليوم . ولا أذكر يوماً رأيت أمى تأكل وحدها إذ كان على الدوام هناك امرأة أخرى فقيرة تتغدى معها .

وقد تركت أمى في نفسى ذكريات من الحنان لا تزال تعود إلى ذهني فتعمرني بلذة أليمة . فما زلت أذكرها وأنا في طفولتي ، وأنا في الحمى أتقلب وأستيقظ في فترات فأراها قاعدة إلى جنبي تدعو وتصلي كأنها قد نسيت النوم . وكانت في سداجة عقائدها ، حين كنت أودعها للسفر إلى القاهرة وأنا بالمدرسة الثانوية ، تناديني عقب خروجي من الباب وتصر على أن أدخل البيت ثانية ، كأن في هذا رمزاً إلى عودتي

سالمًا بعد السفر . وكان أكثر إلحاحها على قبيل موتها أن أتزوج . ولذلك في ليلة العرس ، وأنا قاعد إلى جنب عروسى في الزفاف ، في ١٩٢٣ ، بعد موتها بسبع سنوات ، تذكرت إلحاحها وغيابها فارتعشت وانتفض جسمى وطفرت الدمع الذى لم أجرؤ على مسحه . ولكن عروسى أخبرتني بعد أيام أن بعض الحاضرين للزفاف يقولون إنى كنت أبكى . . .

وأنا أصغر اخوتى . ولذلك لا أذكر اثنتين من أخواتى بالبيت لأنهما تزوجتا قبل أن أبلغ وجدانى . وكل ما أذكره عنهما أننا كنا نرحل مع والدتى إلى مقرهما في ميت غمر بالمهدايا من الخراف والدنأدى والفواكه والنقل . وتحمل كل هذا معنا على العربات إذ لم يكن بين الزقازيق وميت غمر خط حديدى . وظنى أن هذا كان يقع فيما بين ١٨٩١ و ١٨٩٥ . ولا يزال لميت غمر أثر نضرى فى ذاكرتى . ذلك أنه كان يقصد إليها الغليون من أثينا أو أزمير أو بيروت . والغليون هو سفينة شراعية تحمل نحو عشرة أو أكثر من الأشرعة وكانت تجتاز البحر المتوسط ثم النيل إلى أن تصل إلى دسباط فالمنصورة فميت غمر فبها فالقاهرة وتحمل معها جميع المتاجر من تركيا ويونان ولبنان . وكانت ترسو إلى الشاطىء فكنا نقصد إليها نحن الأطفال ، مع مئات من الكبار ، ونشترى النقل والفواكه المجففة والحلوى الطحينية . وكانت تباع كل شىء تقريباً حتى ملابس الأطفال اليونانية اللونية فى أحمرها وأصفرها وأخضرها . وكان رسو أحد هذه الغلايين أشبه بالأعياد لأن المدينة كانت تهرع إليه وتشتري حاجاتها ، ففتن الشوارع بالحركة .

أما أختي الثالثة فلا أذكرها بالبيت ، ولكنى أذكر ضجة العرس التي علقت بذاكرتي لما كان فيها من موسيقا وثريات وسرادق يملأ الشارع أمام البيت ، وبقي هذا السرادق نحو سبعة أيام أو أكثر . وانتعشنا فيه باللعب والسهر .

أما أختي الصغرى فهي الرابعة وأذكرها بنتاً بالبيت قبل زواجها وكانت تقودني إلى الكتاب ثم تأتي إلى وقت الانصراف وتعود بي إلى البيت . وكانت بيننا ألفة دامت سنوات إلى أن تزوجت وتركتنا . ويبدو أني أسأت الاستعمال لهذه الألفة . ففي ذات يوم وقفت في الشارع أمام البيت وناديتها باسمها كي تفتح لي . فما أدري إلا وقد انفتح الباب وانهاالت هي على ضرباً . لأنني ناديتها باسمها . لأن الحجاب كان لا يزال يغشى بيوتنا . وكان يقضى بالألا تذكر أسماء البنات كما يجب ألا ترى وجوههن ، وظنني أنها حجزت بالبيت منذ العاشرة وأفسد هذا الحجاب برنامج تعليمها . فقد كانت بالزقازيق مدرسة قبطية للبنات ولكن الرجعية الاجتماعية حالت دون الانتفاع بها . ولذلك لم تتعلم واحدة من أخواتي إذ كن يجزرن بالبيت وهن حول العاشرة .

وهذه الألفة التي دامت سنوات الصبا بيني وبين أختي الصغرى بالبيت بقيت حباً وصدافة إلى يوم وفاتها في ١٩٤٤ حين قعدت أمامها وهي في عذاب الذبحة الصدرية تكافح الموت إلى أن غشيتها غيبوبة الليل الطويل . وما زلت أذكر تلك الساعات المؤلمة التي كانت تهباً فيها للاحتفال بالزواج . فاني لم أكن على وجدان بأنها ستفارقني وكنت مغتبطاً بضجة العرس زائطاً . أما هي فكانت تحظفني وأنا أسر عليها

أعدو وأزأط فتعاقنى وتلهث وتشقى بالبكاء . وبقينا إلى يوم وفاتها ونحن نتراور مرة على الأقل كل أسبوع .

وفى الوسط العائلى المصرى يسود الوئام والحب اللذان لا يفسدهما سوى المطامع المالية من أحد الأعضاء . ولكن أحياناً تسود الشهامة . فقد كان أبى موظفاً فى مديرية الشرقية . وكان هناك قانون يحرم على الموظف أن يشتري أرضاً فى المديرية التى يعمل فيها وذلك تلافياً لاستعماله وظيفته وسلطته لمصلحته الخاصة . فكان أبى يشتري الأرض ثم يسجلها باسم أحد أولاده . فلما مات كان معظم أرضنا مسجلاً باسم البنيتين الكبيرتين ، اللتين تزوجتا فى ميت غمر . وكان الزوجان شقيقين وكان أبوهما غبريال سعد بك رجلاً شهماً . فلما رأى أن ثروة أبينا توشك أن ينتقل كثير منها إلى زوجتى ابنيه أى أكثر مما تستحقان انتظر حتى بلغت أختاى سن الرشد ثم جمعتهما مع زوجيهما وحملهم جميعاً على التنازل لى أنا وشقيقى . وكنت أنا فى الثالثة أو الرابعة وشقيقى فى السابعة أو الثامنة . وقد سمعت من أمى بعد ذلك بستين أن هذا الرجل الشهم لم يبال أن ينتهر ابنيه حتى يجبرهما على الموافقة على التنازل . ويدهى أن مثل هذه الشهامة نادرة فى أيامنا . ولا بد أيضاً أنها كانت نادرة وقتئذ . ولذلك فإن فضل هذا الرجل عظيم ، وقد بورك له فى عائلته حتى أصبح نسله يعقوبياً يتجاوز المئات عدداً ، وكلهم تقريباً ناجح موفر المال والعمل الكسب .

والراضون عن النظام الاقتصادى الحاضر فى مجتمعتنا الاقطنائى كثيراً ما يذكرون العائلة وأن نظامنا يؤيدها . مع أنه لا يفكك العائلات

ويضع البعض مكان الحب بين أعضائها سوى الخلافات المالية التي تلابس هذا النظام . وقل أن تجد عائلة متوسطة أو ثرية بلا خلاف مالى بين أعضائها مرجعه طمع أحد أعضائها ورغبته فى الاستئثار دون الآخرين . ولم تنج عائلتنا من هذه الخلافات التى سودت العلاقات . ولو أننا كنا نعيش فى نظام اشتراكى ومجتمع تعاونى غير اقتنائى لما كان هناك مجال لهذه الخلافات التى تكاد تعم العائلات فى أيامنا . وإنى أذكر السنوات الطويلة والعناء العظيم الذى انفقناه فى خلافات كان منشأها امتياز واحد على آخر أو طمع واحد فى آخر . وكلها مضامع مالية ما كانت لتكون لولا أننا نتعلم منذ الطفولة بأن هذا لى وهذا لك . وإنى يجب أن أتفوق عليك فى اللعب والعمل وفى المدرسة والمجتمع ؛ روح خبيث يقال لنا إنه يعمل للرجولة مع أنه يعمل للعداوة والبغض والحقد . وقد لقيت أختى الصغرى عناء بل سرقة صريحة من بعض أعضاء عائلتنا . ولم يكن المرتكب لهذه السرقة يحس أنه مجرم بل كان يتباهى لأن روح المباراة ، هذا الروح الاقتنائى الذى نشأ عليه ، قد أكسبه هذه العقلية . وكنا مغموسون فى هذا الفساد بدرجات متفاوتة . ولذلك قل أن نجد مثل ذلك الرجل الشهم الذى أشرت إليه غبريال سعد بك يعارض هذا الروح الاقتنائى ويطلب الخير لغير أبنائه .

وجميع العائلات المصرية موبوءة بالشقاق الذى يرجع إلى مضامع ثم خلافات مالية بشأن الميراث أو الوصية أو الوقف . وقد عرفت عائلات بقى الخلاف فيها بين الأخوة نحو عشر سنوات وهم مشتتون فى المحاكم الأهلية ، ثم المحاكم المختلطة . إذ كان أحد الأخوة يعمد

إلى أجنبي مشاكس فيأجره على المعاكسات التى تنقل القضايا من المحاكم الأهلية إلى المحاكم المختلطة وتصل إلى الاسكندرية . يفعلون هذا وينقطع كل منهم عن زيارة الآخر وتتمحى عاطفة الأخوة بينهم فيعودون أعداء يبحث كل منهم عن دماء الآخر . ولا أكاد أجد عائلة تخلو من هذه الخلافات إلا إذا كانت تخلو من العقارات الموروثة . فقد عرفت عائلة مسلمة قريبة من عزيتنا ترك الأب فيها للورثة أكثر من ١٥ فداناً ، ثم جعلها وقفاً وعين ناظرأ للوقف أكبر أبنائه . ثم قسا الخلاف بين الورثة وكانوا يزيدون على عشرة . فلم يكن من هذا الناظر إلا أن أجر الأرض الموقوفة إلى رجل يونانى أو إيطالى . وجاء هذا الرجل إلى الأرض يزرعها بنفسه ، وأصبح الورثة يتضرعون إليه كي يعطيهم نصف أردب من الذرة أو القمح أو جنيناً أو جنينين . . . وأعرف رجلاً آخر كان ثرياً « باع » أرضه لورثته . ولم يكن الغرض من هذا البيع سوى التمييز لبعض دون بعض . وكان هذا البيع بالطبع صورياً . وكان يعتقد أنه سيبقى متصرفاً إلى يوم وفاته . ولكنه عندما قصد إلى عزيتته ، عقب البيع ، كي يبيع القطن ، قابله الخولى وأخبره بأنه لا يملك شيئاً لأن ابنه الذى « اشترى » منه يمنعه من التدخل فى أرضه ، وحزن الرجل واحتقن الحزن فى قلبه فأصابه فالج مات به بعد أقل من شهرين .

وأيام صباى يملأها شقيقى الذى يكبرنى بأربع سنوات . وكنت أعهده بطلا لجراواته واقتحاماته . وقد ذهبنا معاً إلى كتاب مسيحي ثم إلى كتاب إسلامى . ثم عدت إلى كتاب مسيحي . وخرجت من

هذه الكتابات بعد ثلاث أو أربع سنوات وأنا لا أحسن قراءة سطر . وإنما أحفظ عن ظهر قلب بعض الصلوات المسيحية وبعض سور القرآن . ولم أشرع في القراءة إلا بعد أن دخلت المدرسة الابتدائية التي أنشأتها الجمعية الخيرية القبطية في الزقازيق .

وكان شقيقي طفلاً ذكراً بعد بنات أربع . وأذكر من بعض اقتحاماته أنه ألف في الزقازيق عصابة كنت أنا أحد أعضائها . وألف على الشمسي (باشا) عصابة أخرى . ففي ذات يوم انفردت بنا عصابة على الشمسي وأوسعنا ضرباً وإيلاماً لخصومة كانت قائمة بينه وبين شقيقي . ولكننا بعد ذلك استدرجنا على الشمسي إلى طريق ناء شمال الزقازيق ثم أختناه بالعصى والأحجار حتى عاد مريضاً . وكان والده أمين الشمسي باشا يعرف عائلتنا لصداقة قديمة بينه وبين أبي . ولم أكن أمر عليه وهو أمام منزله حتى أقبل يده فيسألني عن أعضاء عائلتنا . وكان فيما بين ١٨٩٥ ، ١٩٠٠ مغضوباً عليه من رجال الحكم لأنه كان عرابياً في ثورة ١٨٨٢ إذ انضم إلى الحركة الوطنية ضد الخديوي توفيق مع أنه كان تركي الأصل . وكان الصراع بين عرابي والخديوي صراعاً ، إلى حد بعيد ، بين الأتراك والشركس من جانب وبين المصريين من جانب آخر . ولكن أمين الشمسي باشا عرف عدالة المطالب المصرية وانضم إلى العرابيين .

ولما كنت في إنجلترا في ١٩٠٨ أرسلت إليه خطاباً أترح عليه فيه إنشاء مدرسة لتعليم أبناء الفلاحين الذين يعملون في أرضه وأرضنا وكنا متجاورين . لأن عزبته كانت ملكاً لجدي ولا يزال اسمها

« كفر سليمان » باسم جدى . وأرسلت مثل هذا الخطاب إلى كبراء المالكين من عائلتنا ، ولكن خطابى لم يجد سوى التسلية عندهم جميعاً لأن الوجدان التعليمى كان لا يزال فى مصر خامداً . ولم يكن خطابى سوى ثمرة الوسط المتمدن المتنبه لقيمة التعليم فى لندن .

وقد باع جدى « كفر سليمان » هذا إلى الشمسى باشا قبل أن أولد أنا بنحو ١٥ سنة (حوالى ١٨٧٢) . ولكنى نشأت على الاصطلاح أنه « الكفر القديم » وهو يبعد عن كفرنا الجديد بنحو كيلومتر . وقد زرته وأنا طفل مع بعض أقرابى فأرونى بيتاً أو زريبة كانت تسمى « بيت العبيد » أى المكان الذى كان يحجز فيه العبيد فى الليل ويقفل عليهم حتى لا يفرّوا . . .

وبالطبع لم تكن فى أيامى عبودية ولا عبيد . ولكن الذكرى كانت قريبة . فانى وأنا طفل كنت أخوف بكلمة « فرج » وهى اسم عبد مات فى إحدى غرف المنزل وبقيت ذكراه تتسلسل للتخويف من إخوتى إلى . . . وكذلك رأيت امرأتين سوداوين إحداهما كعب الخير والأخرى زهراء . وكانتا جاريتين عندنا شملهما قانون تحرير العبيد ولم تنقطعاً عن زيارتنا . بل كانت إحداهما تقضى الشهور ، عندما تترك زوجها ، فى بيتنا . وكانت تسكل أمى فى مفاوضات الصلح مع زوجها حين كان يعود لطلبها .

وكانت بينى وبين شقيقى نحو أربع سنوات . فلذلك لم تكن بيننا رفقة أو زمالة . وقد وجدت هذه الرفقة والزمالة فى ابن خالته لى يدعى ميخائيل . وكان من سنى . وقد ترافقتنا طفلين ثم صبيين ثم شابين .

ومن الذكريات البارزة في صباى مدينة بسطة الفرعونية . فقد كنت أزورها مع ابن خالتي هذا حين كانت لا تزال بيوتها قائمة والغرف في بعض هذه البيوت لا تزال تحتفظ بجوها الحميم حتى مكان الشمعة في الطاق كان واضحاً بسواد دخانها . وكانت الشوارع الضيقة سالكة بين البيوت . وهذا إلى عشرات من التماثيل الحجرية ، ولم يبال الانجليز أن تمحي هذه المدينة مع قيمتها التاريخية العظمى ، إذ جعلوا بيوتها وأبقاضها سجاداً « كنفياً » ينقله الفلاحون إلى حقولهم . ولم يعد لها من أثر الآن .

وكان ميخائيل يسكن في بيت يجاور منزلنا ، فلم نكن ننفصل طوال النهار ، وإليه أعزى نوعى الثقافة ، فقد كان منذ صباه يحب الشعر ويتفصح وكانت أعجب بفصاحته . وكنا نشترى المؤيد ونقرأه معاً . بل تجرباً ذات مرة على أن نؤلف درامة جعلنا فيها البطل ملكاً يقص حلاماً على المسرح ثم يتحقق هذا الحلم . ولكننا لم نثابر إلى النهاية فقطعناها في منتصف الفصل الأول . وقد ثابت أنا بعد ذلك على الدراسة وانقطع هو عنها . ولكنه لم يقاطعها . فاني ما زلت إلى الآن عندما ألتقى به أجد فيه الالتفات إلى الحركات الأدبية بل أجد النقد الذكى . ولكن من ينظر إليه هذه الأيام لا يعتقد أن سنه تزيد على الأربعين مع أنها لا تقل عن ٩٥ أو ٦٠ سنة . وقد يعزرو بعضهم هذا الشباب إلى حياة السرور التى كان ولا يزال يؤثرها على أى اهتمام آخر . وبقينا مترافقين مدة التعليم الابتدائى ثم افترقنا حيث توظف هو والتحقت أنا بالمدارس الثانوية بالقاهرة . ولكننا كنا أيام الأجازات

لا نفترق . وقد اهتزت سروراً وتأبلاً قبل سنتين عند ما زارني بالقاهرة أحد الأقارب المزارعين ورأى حولى ماثات الكتب . فتأملها ثم تنهد وقال : « لم يغرس فيك هذه العادة المرذولة سوى هذا الملعون ميخائيل ابن خالتك . » وقد قال هذه الكلمة الصادقة لأنه كان يرانا فيما بين ١٩٠١ ، ١٩٠٤ نقرأ معاً وندرس معاً في هوس لم يكن يجيد فيه هو سوى خسارة المال والذهن والوقت . ولا تزال ذكريات الصداقة والرفقة بيني وبين ميخائيل عذبة في ذهني . ولم أعرف صديقاً بعد ذلك لازمني وتناسقت معه في الصداقة المثيرة الربية سوى عزمى الدويرى الذى عرفته في ١٩٣٠ ووقدته في ١٩٤٤ . وكان في بداية صداقتنا خاماً أخضر في ثقافته يقرأ الكتب العربية ويستضى بمصايح خافته . ولكنه بعد أن عرف المؤلفين الأوربيين انغمس في المذاهب الأوربية والسياسية الجديدة واستضاء ذهنه بها وصار يمتاز بالعقلية العالمية . وجرَّ عليه هذا النور الجديد عسفاً من البوليس السياسى لم يباله . وكنت كثيراً ما أذكره بأعجابه انقديم بأدباء البهجة البلاغية ثم احتقاره لم بعد ذلك فيضحك كثيراً . بل الحق أنه استحال بعد أن عرف الآداب الأوربية خصماً لم يعد وجودهم عائناً لتطورنا الثقافى والسياسى . وظنى أن هذا هو اختبار جميع المنتقلين من الأدب العربى إلى الأدب الأوربى حين يقرأونه فى لغاته الأصلية غير مترجم . وقد ترك موت عزمى فى نفسى لوعة لما تنطفى .

وقد رأيت أخواتى يمتن واحدة إثر الأخرى . والموت يفقد لذعته

عندما تكون السن متقدمة لأن الرحلة الأخيرة إلى الليل الطويل تسير هوناً والموت يأتي على ترقب . ولكن عندما كان الموت يفجأ إحداهن وهن لا يزلن في بداية العقد السادس أو السابع كان وقعه في القلب ووطأته على العقل يحدثان جموداً كأنه كابوس اليقظة ، ولكن السنين تخيل بكيمياء الزمن هذه الكوارث حتى إنى عندما أذكرهن الآن أحس الحزن عليهن في حنان ورقة وليس في ألم وغضب .

وأستطيع الآن أن أعرض لجميع الشخصيات البارزة في عائلتنا ، سواء أكان هذا البروز للفضيلة أم للردذيلة ، وهذه الشخصيات هي الآن فوق الخمسين أو الستين . وعندما أرجع بذكرياتي إلى أيام طفولتهم وإلى الظروف البيئية الأولى التي سعدوا أو تعسوا بها أجد التعليل الكافي لسلوكهم الحاضر . وأستطيع أن أقول ، في ضوء ما أعرف من سيرتهم ، بل أحياناً سيرتهم الحميمة ، إن التعاسة الأولى التي ينكب بها أى إنسان في حياته إنما هي التذليل . وأن التعاسة الثانية هي الاضطهاد . فجميع أولئك الذين لقوا تذليلاً أو اضطهاداً في عائلتنا أيام طفولتهم تسدوا . ومعنى « التساد » هنا ليس العجز عن الكسب أو حتى العجز عن الانتصار المألوف في معركة الحياة . ولكنى أعنى ذلك الفساد الاجتماعى الذى يقارب الاجرام بل هو إجرام تخفيه رفاهية العيش . فان الشخصية السيكوبائية التي وصفها صديقى الدكتور صبرى جرجس في كتابه واضحة في عائلتنا في جميع أولئك الذين لقوا تذليلاً أو اضطهاداً أيام طفولتهم . وقد يقع الاضطهاد لأن

زوجة الأب أساءت إلى ابن زوجها فى المعاملة وميزت عليه أطفالها دونه
 فعلمته المكر والخبث والكذب والغش . فنشأ على هذه الأخلاق
 التى صار يعامل بها المجتمع . ولكن فى ذهنى زوجة أب أخرى عاملت
 ابن أختى الدكتور رزق الله موسى فى طلخا بالنزاهة والرفق والحب ،
 فنشأ قديساً . وفى ذهنى آخر فى الخامسة والستين من عمره دله أبواه
 فنشأ وكل حياته جرائم . ولكن أولئك الذين وجدوا النزاهة والانصاف
 فى التربية أيام الطفولة هم إلى الآن فى شيخوختهم ، مثال الطيبة
 والاحساس الاجتماعى السامى .

القاهرة فيما بين ١٩٠٣ و ١٩٠٧

في عام ١٩٠٣ اجتزنا امتحان الشهادة الابتدائية ، وكنا في القطر كله لا نزيد على ثلاثمائة أو أربعائة تلميذ . وعقد الامتحان في القاهرة . ولم يكن بالقطر كله سوى ثلاث مدارس ثانوية كانت في نظامها ثكنات يتسلط عليها الانجليز بالأوامر العسكرية والعقوبات العسكرية . والتحقّت بالمدرسة التوفيقية ثم بالمدرسة الخديوية ، وكان شمال المدرسة التوفيقية وشرقها وغربها أرضاً زراعية لا يباع الفدان فيها بأكثر من مائتي جنيه وقد ارتفع سعر الفدان الآن (١٩٤٧) في هذه الأرض بالذات إلى نحو عشرين ألف جنيه . ولم يكن للمالكين أي فضل في هذا الشراء ولم يتعبوا لاجياده . إذ أن الفضل لسكان القاهرة وتقدم المدنية . وكان الانجليز يحاربون شيئين في الأمة لا ثالث لهما . وكانوا يكفنون بقاءنا في ظلام الجهل وذلة الفقر بهذين الشيئين ، وهما التعليم ، والصناعة . ونجحوا في ذلك نجاحاً عظيماً ؛ فلم يسمحوا طوال إشرافهم على وزارة المعارف بإنشاء مدرسة ثانوية للبنات في أي مدينة من مدن القطر . وكانوا يعلموننا أن بلادنا زراعية لا تلائمها الصناعة ، كأن القدر قد قضى علينا بالفقر الأبدى . وكانوا يصرون على المحافظة على « تقاليدنا » . فكانت المدرسة السنوية الابتدائية في القاهرة ، وكانت

ناظرتها إنجليزية ، تصر على البرقع للتلميذات وهن في العاشرة أو الثانية عشرة من العمر . وكان معلم اللغة العربية يفصل من وزارة المعارف إذا نزع عمامته وقفطانه واتخذ البنطلون والجاكته . وتقدمت الأئمة نبوية موسى لامتحان الشهادة الثانوية في سنة ١٩٠٧ من بيتها ، فرفض دنلوب المستشار الإنجليزي لوزارة المعارف قبولها في الامتحان ولكنها استمرت على الكفاح وأحدثت ضجة في الجرائد ، وتقدمت في السنة التالية فقبلت ونجحت . ولكن الإنجليز تنهبوا . فلم تفز فتاة مصرية بالشهادة الثانوية منذ ١٩٠٨ إلى ١٩٢٩ حين تقدمت الفتيات اللاتي أنشأت لهن وزارة المعارف مدرسة ثانوية في ١٩٢٥ أى بعد إعلان الاستقلال بسنتين .

وكانت التلميذة في المدرسة الخديوية فيما بين ١٩٠٣ و ١٩٠٧ سلسلة من التعذيب . فكان أحدنا يعاقب طوال العام الدراسي بالحضور يوم الجمعة في المدرسة حتى لا يهينها بالاجازة الأسبوعية . وكان من العقوبات المألوفة أن يحضر أحدنا في منتصف الساعة السابعة صباحاً أى في الظلام مدة الشتاء ، ثم لا يترك المدرسة آخر النهار إلا بعد الحبس ساعة أو أكثر . وقد يكون السبب الوحيد لكل هذه العقوبات أن المعلم الإنجليزي قد طلب من التلميذ أن يقعد فوقف ، أو يقف فقعد . وقد تكون هذه المخالفة محض التباس لا أكثر . ثم يتأخر المسكين في الحضور في الساعة السادسة والنصف صباحاً ، فيزداد عقوبة والزيادة تتراكم . وهذا إلى عقوبات أخرى سهيئة مثل حرمانه من الغداء إلا برغيف يأكله وهو واقف أمام زملائه .

وكان ناظر المدرسة يدعى شارمان ، وكان يتأنق في تعذيبنا . وحدث أن الجمعية الخيرية الإسلامية أرسلت على نفقتها بعض تلاميذها من مدارسها الابتدائية . وكانت تشتري لهم ملابسهم في شكّة صفراء واحدة . وكان هؤلاء المساكين ينجلون من هذه الملابس الرخيصة . واشتروا غيرها من الملابس المألوفة ، حتى لا يميزوا بفقرتهم أمام زملائهم . ولكن شارمان أصر على أن يلبسوا ملابسهم التي تصممهم بالفقر ، فلبسوها وكانوا يمزقون منا في خجل .

ولست أشك أنه حين أعلنت الجرائد وفاة شارمان هذا ، غرقاً في أواخر الحرب الكبرى الأولى ، عم الفرح جميع القارئین الذين كانوا تلاميذه . وقد يستنكر القارئ هذه العاطفة منا . ولكني أؤكد أن التلمذة في تلك السنين كانت عذاباً لا يطاق . وكان للمعلمين الانجليز لذّة في تعذيبنا . وكانت العلاقة بيننا وبين هؤلاء المعلمين خالية من الاحساس البشري ، حتى لقد كنا أحياناً نجهل اسم أحد المدرسين طوال العام الدراسي .

وقضيت ثلاث سنوات بالمدرسة الخديوية لا أكاد أعد أسبوعاً واحداً فيها هنتت به . وبذلك تخلّفت في الدراسة . وكان من أسباب هذا التخلف أيضاً أني مرضت بعيني واحتجت إلى إجراء عمليتين لا يزال أثرهما المشوه باقياً . كما أني أعزّو إلى عذاب المدرسة هذه العريضة الجنسية الذاتية التي انغمست فيها للترفيه عن نفسي ، وإزالة الكمد الذي كانت تحدّثه هذه الحياة المدرسية المرهقة .

ولكن القاهرة في تلك السنين (١٩٠٣ - ١٩٠٧) كانت حافلة

ببشائر العصر الجديد . فقد رأيت فيها الأتوسيل لأول مرة . ولكن الحياة القديمة كانت لا تزال راسخة . فكان السقاء يحضر الماء في قربته لمنزله . وكنا أحياناً نركب الحمير من مكان إلى آخر لأن الترام كان في شوارع قليلة . ولم يكن شئ من المنازل قد بنى على الضفة الغربية من النيل ، كما أن هليوبوليس كانت لا تزال صحراء ، بل إن شمال المدرسة التوفيقية في ١٩٠٣ كان كما سبق أن ذكرت خالياً من المباني إلا القليل المتفرق .

وكنا نتحدث في تلك السنين عن شيئين يحركان المجتمع المصري هما الاحتلال الانجليزي ، وحركة قاسم أمين لتحرير المرأة . ولم أن اهتم بالحركة الثانية كثيراً . وكان الحزب الوطني أعظم قوة تكافح الاحتلال في ذلك الوقت . وكان قد أُنشئ في ١٨٩٧ سنة من شبان المتنبهين هم : أحمد لطفى السيد (باشا) ومصطفى كامل ومهد فريد ومهد عثمان (والد أمين عثمان باشا) ولييب محرم (شقيق عثمان محرم باشا) وسعيد الشيمي . وكان « اللواء » جريدة الحزب الوطني يستهوى النفوس ، وكنا نسارع إلى شرائه عقب الانصراف من المدرسة . ولكن الشبان الأقباط كانوا يجدون بعض الاستياء من الدعوة الدينية في الحزب الوطني وكذلك الدعوة العثمانية أى التركية . وكان منطقتهم يقول : « إذا كنتم تدعون إلى جامعة إسلامية وإلى تأييد الحقوق العثمانية في مصر ، مع أن الأتراك ليسوا فقط أجناب بل إن تاريخهم يحفل بالمظالم في مصر ، فان لنا الحق في الاتجاه نحو جامعة مسيحية والاعتماد على الاحتلال البريطاني . »

وقد انتهى موقفهم هذا إلى أن حمل مصطفى كامل عليهم وأثار تعصباً دينياً ساءت عواقبه واستغله الانجليز أيام كرومر وجورست . ولم يصلح هذا الفساد القومي غير أحمد لطفى السيد حين أسس « الجريدة » ودعا دعوة مصرية بحجة ليس فيها شئ من الدعاية للاتراك أو للعرب أو للإسلام . ولكن حتى مصطفى كامل قبيل وفاته بخمسة أشهر أو ستة أعلن في مقالات أن مصر يجب أن تكون للمصريين فقط ، وصار لهذا يعارض الخديو عباس في بمالأنة للدولة العثمانية . وبلغ من معارضته له أن جريدة « المؤيد » وصفته بأنه قد أصبح يشبه عرابي .

والواقع أن المجتمع المصرى فى بداية هذا القرن كان مجتمعاً تركياً أو كالتركى ؛ فكان الاصطيف فى استنبول مألوفاً . وكانت الحكومة المصرية تؤدى « الجزية » السنوية لتركيا . وكانت العائلات الغنية عائلات تركية خالصة أو خلاصية . وقلما كنا نجد « مصرياً » ثرياً . ولذلك حين نتأمل العائلات المصرية الثرية فى ١٩٤٧ نجد أنها كلها حديثة العهد بالثراء . وهذه الحال تفسر لنا نفسية الحركة العرابية . فان عرابي كان يتأمل وطنه فى ١٨٨٠ فلا يجد فيه مصرياً صمياً يملك شيئاً يؤبه له . وأن جميع الأثرياء من الأتراك أو الألبان الذين كان يمد على قد اختصاصهم بالامتيازات وأقطعهم أرض المالكين المصريين السابقين الذين استولى على عقود امتلاكهم وأحرقها . ولذلك كنا لا نعرف رئيساً للوزارة إلا وهو تركى الأصل . بل أحياناً كانت تؤلف الوزارة وليس بين أعضائها مصرى صميم واحد أيام اسماعيل وتوفيق .

وكننا نرى هؤلاء الأرستقراطيين على سفنهم ونذاتهم وهم في عرباتهم يتنزهون على جسر قصر النيل . وكان يتقدمهم قواص أو قواصان وكل منهما في سترة تهريرية يحمل عصا طويلة في وضع عمودي ويعدو أمام العربية وهو يصيح بأعلى صوته : هيه، هيه .

وكانت الجرائد المتروعة في تلك السنوات ثلاثاً : « اللواء » الذي كان يحرك الأمة إلى المطالبة بالجملاء ويقرؤه جميع الشبان . و « المؤيد » الذي كان يؤيد الخديوي وقرأه أبناء البيوتات التركية والمحافظون من المصريين . و « المقطم » الذي كان يؤيد الانجليز ويقرؤه الموظفون . أما « الأهرام » فكانت في ركود يشبه الموت لا يقرؤها غير عدد صغير من التجار .

وكان الخديوي عباس محور الحركة الوطنية في أوائل حكمه . وهو الذي أوعز بإيجاد الحزب الوطني ، وكان يعاونه بالمال . ومما زاد الخديوي اتجاهاً نحو الحركة الوطنية تلك الاهانات الشخصية التي كان يجدها من كرومر . فقد حصل هذا الرجل على تربيته السياسية في الهند ، وكان يعامل المصريين كما كان يعامل الانجليز الهنود قبل خمسين أو ستين سنة ، وكانت له في ذلك أساليب طفولية . وقد رأيت ذات مرة وهو ينزل من عربته ، فلم ينزل مستوياً على قدميه كما يفعل البشر بل تقدم له خادم مصري وحمله كأنه طفل من العربية في عناية ورقة حتى حط جثته على الأرض . . . وقد فعل هذا في ظني كي يثبت أنه سيد مطاع أو ملك غير رسمي . وتشاجر مرة مع الخديوي لأن الخوذي الذي كان يسوق عربة الخديوي إنجليزي . وحاول مرة ، عقب انتقاد

الخدويوي للجيش المصري الذي كان كمنشتر قائداً عاماً له ، أن يعين وزيراً إنجليزياً . وكان كرومر هذا من عتاة الاستعماريين ، وهو الذي أحال القطر المصري كله إلى عزبة للقطن ، وقتل الصناعة المصرية قتلا تاماً ، حتى إننا حوالي ١٨٩٨ أنشأنا مصنعاً في القاهرة لغزل القطن ونسجه ، وجئنا له بمدير إنجليزي ، فأصر كرومر على فرض الضرائب الباهظة عليه حتى أغلقه . ثم ، وهنا عبرة ، عين مديره الإنجليزي في الحكومة المصرية .

وبفضل الحزب الوطني ، بل بفضل الشاب مصطفى كامل ، تزايدت الحركة الوطنية وأخذت موجاتها تعلو وتزيد . ورأى كرومر عجزه عن مكافحتها ، فعمله الغيظ على العنف الأحمق بل على التوحش الاجرامى . فانهز حوالي سنة ١٩٠٧ فرصة النقاء الجنود ببعض الريفيين في دنشواى إحدى القرى في المنوفية ، وكانوا يصيدون الحمام الذي كان هؤلاء الفلاحون يربونه . فاشتبك الريفيون مع الانجليز في مشاجرة انتهت بقتل بعض الانجليز أو بالأحرى بوفاته . وعندئذ عينت محكمة «مخصوصة» وكان رئيسها المرحوم بطرس شالى باشا ، ومن أعضائها المرحوم فتحى زغلول باشا ، وكان الحامى عن الانجليز المرحوم الهلباوى الذى صار بعد ذلك عضواً في حزب الأحرار الدستوريين . وشرع في محاكمة الدنشوائيين وعم الأمة توتر نفسى وغلت العواطف . وكتب «المقطم» بأن المشنقة أرسلت إلى دنشواى قبل أن تنتهى المحاكمة ، فحجلت الحكومة وكذبت الخبر . ولكن المرجح أن المقطم كان صادقاً . لأنه كان يتصل اتصالاً وثيقاً بالانجليز في ذلك الوقت . وصدر حكم

الحكمة بجلد البعض وبشئق الآخرين . وأنفذت الأحكام فى القرية ذاتها . ورأى الأطفال اباءهم يشتمون أو يجلدون ، ورأت الزوجات والأمهات والشقيقات والآباء أعزاءهم وهم يتدلون من الجبال أو يصرخون من الجلد .

وأذكر أنى كنت فى الاسكندرية فى ذلك الوقت أنتزه مع أخى ، وكنا نأكل فى المطاعم . فلما قرأت الحكم عنى جمود يشبه الغثيان ، فلم أستطع الأكل جملة أيام ، ودارت فى رأسى خواطر جنائية عن هؤلاء المعتدين على بلادنا وأهلنا . وخجل الانجليز أنفسهم من هذا الحادث الاجرامى ، فعزلوا كرومر عن وكرالته فى مصر . وكان يرأس الوزارة الانجليزية فى ذلك الوقت رجل من الحريرين يدعى هنرى كاسيل باترومان . ولكن وزير الخارجية المدعو جراى قد برر جريمة كرومر بأن وقف فى البرلمان يقول : « إن التعصب الاسلامى قد تفشى فى إفريقيا الشمالية كلها بما فى ذلك مصر . » وكتب « المقطم » مقالا عنوانه « التعصب يمتد ويشتد » أى تعصب المصريين المسلمين الذين يجب أن يكبحوا بمشائق دنشواى . وما زالت كلمات هذا المقال ترن فى ذهنى ، ولا تزال « دنشواى » عندى من الذكريات النفسية الأليمة .

وقد وجدت تعزية فى شىء واحد هو أن الوجدان الوطنى أصبح عاماً وتنبهت الأمة كأنها استيقظت من نوم . فكنت أجد بعض الشبان يشترون « المقطم » ويمزقونه حتى لا يقرأه أحد . وحتى الأقباط الذين كانوا متوجسين من حركات الحزب الوطنى الدينية ، أصبحوا وطنيين يكرهون الانجليز . وكان هذا الانفعال الجديد ملحوظاً فى أعضاء عائلتنا

ولكن اختلاط الحركة الوطنية بالدعوة الاسلامية من ناحية وبالرغبة في السيادة العثمانية من ناحية أخرى عرقل الاندماج التام للاقباط في الحركة الوطنية . فكانوا يشيخون عنها ويذكرون حكم الأتراك ومظالمهم أيام إسماعيل وتوفيق .

وشعرت في ذلك الوقت بما زلت أشعر به الآن ، وهو أن الاستعمار البريطاني ليس هو العدو الوحيد لبلادنا ؛ لأن الرجعية بالتزام التقاليد ، وكراهة الروح العصرية في السياسة والاجتماع والعقيدة ، كل هذا يتألف منه عدو آخر لحرقة أمتنا عن التقدم . وكانت نظرية التطور التي تعلمتها من « المتكطف » قد جعلتني أبح بصيصاً من الرؤيا الجديدة ، وأن أؤمن بأن العلم ، الذي حقق السيادة وإن لم يحقق السعادة لأوروبا ، جدير بأن يرفعنا من حضيض الفقر والجهل الذي وضعنا عليه الانجليز ، وأن يحقق لنا استقلالنا . ولذلك وجدتني من ذلك الوقت أدعو إلى أن نعيش المعيشة العصرية ، وأن أناصب الرجعيين المصريين العداء الذي أناصبه للانجليز .

وكان على يوسف صاحب جريدة « المؤيد » معدوداً بين كبراء الكتاب الصحفيين يحسن المناقشة ويلتزم المنطق والتعقل . وكان « المؤيد » قليل الانتشار يسبقه « اللواء » ويطغى عليه بمقالات مصطفى كامل النارية . ولكن « المؤيد » كان يثب في الأزمات . ففي حادثة دنشواي مثلاً أقبل عليه القراء ، وهم في كمد وحزن وحيرة ، يقرأونه ويتعطلون ما يكتبه عن السياسة الانجليزية المصرية ويتظنون للمستقبل من خلال بصيرته .

ولكن علاقة الشيخ على يوسف بالخدوي جعلته يتجه صوب استامبول أو كما كانوا يسمونها « الأستانة العلية » حتى إنه عندما أسس « مجلس المبعوثان » في تركيا دعا المصريين إلى أن يرسلوا نواباً عنهم فيه ؛ إذ أن مصر جزء من الدولة العثمانية . . .

أما مصطفى كامل فكان يغزو قلوب الشبان . وكان إذا أعلن عن خطبة يلقيها تجمع الألوف لسامعه . وكان في شبابه وحاسته إغراء للشبان . وقد مات بالدرن وما يبلغ الثانية والثلاثين .

وفي تلك السنين شبت الحرب بين روسيا وياپان ، فاتجه الرأي العام نحو اليابانيين باعتبار أنهم أمة شرقية مثلنا ، فكنا نفرح كلما قرأنا عن هزيمة روسية ؛ لأن روسيا كانت تمثل في أذهان الجمهور أوروبا التي تنتمى إليها بريطانيا ، كما أن يابان كانت تمثل بقفلة الشرق . حتى إن مصطفى كامل ألف عنها كتاباً باسم « الشمس المشرقة » .

وأحدث خليل صادق نهضة أدبية في تلك السنين بسلسلة من القصص كانت تخرج كل شهر باسم « مسامرات الشعب » وهي قصص مترجمة عن الفرنسية والانجليزية اشترك في الترجمة له فيها كتابنا المعروفون مثل حافظ عوض وعبد القادر حمزة (باشا) ومحمود أبو الفتح وغيرهم . ولكن الأدب لم « يتمصر » في ذلك الوقت . لأن كفاحنا للامبريالية البريطانية كان يستغرق كل مجهودنا . فكان الكاتب الذي يجد في نفسه القدرة على التعبير الفني يلتفت إلى السياسة قبل الأدب ، ويجاهد في إنقاذ الوجدان المصرى الوطنى . وما نقصنا

نحن من هذه الوجهة سده إخواننا السوريون عنا . وهم بالطبع كانوا أقرب إلى الثقافة العصرية الأوروبية منا ؛ لأنهم تعلموا في الجامعة الكاثوليكية والجامعة الأمريكية في بيروت . وهم أيضاً ، لأنهم كانوا مسيحيين ، لم يجدوا العائق السيكولوجي الذي كنا نجدُه نحن في مصر إزاء الثقافة الأوروبية العصرية .

وكنا فيما بين ١٩٠٣ و ١٩٠٨ في تبليب سياسي وفي تبليب آخر أدبي واجتماعي . فقد كانت تسود وجداننا السياسي نزعتان : الأولى والكبرى في الاتجاه نحو الدولة العثمانية ، والدفاع عن استقلالنا المصري ، بدعوى أننا جزء من هذه الدولة العثمانية . وواضح أن موقفنا هنا كان حائراً مقلقاً . ثم كانت النزعة الأخرى وقد بزغت ضعيفة تتلجلج بل لا تكاد تنطق ، وهي الدعوة إلى الاستقلال المصري التام والتخلص من بريطانيا وتركيا معاً .

أما التبليب الأدبي فلم نكده نحس به في تلك السنوات . وكان جميع الكتاب ، باستثناء السوريين ، يعنون بالأدب دراسة القدماء من العرب لا أكثر . ولكن كان هناك تبليب اجتماعي وضع خميرته محمد عبده وقاسم أمين ، وثبت وزكت هذه الخميرة في الوسط الاسلامي . وأصبح لها دعاة وخصوم .

وكان الخديو عباس محبوباً إلى سنة ١٩٠٧ يجد فيه الشباب رمزاً للكفاح . وكانت شراسة كرومر ، الذي كان يرغب في معاملته كما لو كان أحد مهرجات الهند ، تنبه فيه هذا الكفاح . وتعلق به الجمهور وشاعت عنه مواقف وطنية . وما سمعناه في تلك السنين أن

ويصا واصف ومرقس حنا وعدداً آخر ، معظمهم من المحامين ، قصدوا إلى سراى عابدين وانتظروا إلى أن هم الخديو بركوب عربته ، فأصروا على أن يجلوا خيولها ويمروها بهم . ولكن الخديو اتخذ موقفاً معارضا لاتجاهات الشيخ محمد عبده نحو الأزهر ؛ فكان ، أي الخديو ، يصصر على أن يبقى الأزهر كما كان منذ مئات السنين محافظاً لا تتسرب إليه تيارات الثقافة العصرية . وكان محمد عبده يصصر على أن يتطور الأزهر إلى جامعة عصرية . واتجه المستنيرون من الأمة وجهة محمد عبده فازوروا عن الخديو . ولكن أعظم ما جعل الجمهور المصرى يتغير على الخديو هو ما كان يسمى بسياسة الوفاق . فان الانجليز ، بعد أن رأوا سياسة كرومر الشرسة مع الخديو قد أحالته إلى وطنى يدس لهم ويؤيد الحركات الوطنية ضدهم ، عينوا السر الدون جورست وكيلا لهم بالقاهرة ؛ فتجرب هذا إلى الخديو وزاد فى سلطته . وارتاح الخديو إلى هذا التغيير ارتياحاً عظيماً جداً ، وشرع يعارض الحركات الوطنية الدستورية ، ويسير مع الانجليز فى « سياسة وفاق » كان ضررها بالأمة فادحاً . وكانت سياسة الوفاق هذه سبباً فى انقلاب مصطفى كامل ؛ إذ أنه أبى أن يسير مع الخديو ، وأصر على الكفاح . ولم تمض سنوات حتى أصيب جورست بالسرطان ومات به فى إنجلترا . وأعرب الخديو عن حبه له ، وتقديره لسياسة الوفاق بأن زاره خفية وهو فى فراش الموت . ثم جاء كتشتر ، فأعاد سياسة كرومر ، ولكن فى فجأة العسكرى وغشومته . وعاد الخديو إلى موقف المعارضة والمعاكسة للانجليز . ولو سئلت عن الفرق فى القاهرة بين ١٩٠٥ و ١٩٤٥ لقلت إن

نبض القاهرة قبل أربعين سنة كان أبطأ ، كما أن الايقاع كان شرقياً في كل شيء تقريباً . فكان الناس يمشون أكثر مما يركبون . وكانت المدينة متجمعة متكئة في رقعة صغيرة لم تستفص بعد إلى صحراء هليوبوليس أو إلى الضفة الغربية من النيل . وكنا في الملابس نعبر طور الانتقال . فاني أذكر أني لبست قفطاناً بحزام وأنا تلميذ بمدرسة الأقباط في الرزازيق ، وكنت في العاشرة من العمر . ثم لبست أيضاً وأنا في الثانية عشرة بذلة رمادية من طراز الريدنجوت . أما نساؤنا وآسائنا فبقين كلهن إلى سنة ١٩١٩ يتخذن البراقع والحبرات .

وكنا تقضى ليالى السرور عند الشيخ سلامة حجازي . والحى أن هذا الرجل كان ممثلاً بارعاً ، ولكنه لم يكن يمثل قدر ما يعنى . فقد وجد إقبالا عظيما على أغانيه فكان التمثيل عنده ملحقا بالغناء . وظنى أنه كان يفعل هذا مضطراً ؛ لأن كفاءته المسرحية كانت عظيمة جداً . ولايد أنه كان يتألم ؛ لأن الجمهور لا يقدرها ويؤثر عليها الغناء . وكانت هناك إلى جنب مسرح الشيخ سلامة ملاء أخرى كانت غاية في الفحش ، حيث كانت الرقصات يقمن بمحركات وإيماءات هي في صميمها محاكاة غير فنية للتعارف الجنسي ، محاكاة فاحشة رخيصة دنسة مهتكة . وقد اضطررنا بعد سنة ١٩٢٣ ، إلى إلغاء هذا الرقص . ولكن بعض الأغاني القديمة الفاحشة لا تزال تغنى إلى أيامنا هذه . وشرعنا ، بعد ذلك بسنوات ، نحس الوجدان المسرحي ، وندرك معنى الدراما وبغزاها ، مما ترجمه فرح أنطون ومما مثله جورج أبيض من الدرامات عن اللغة الفرنسية .

أول وجداني الذهني

كنت في سنة ١٩٠٣ تلميذاً في السنة الأولى الثانوية قد تركت بلدتي الزقازيق ورحلت إلى القاهرة ؛ إذ لم تكن في تلك السنين مدارس ثانوية إلا ثلاث في القاهرة والاسكندرية . وكأنت سني إذ ذاك نحو ١٥ أو ١٦ سنة ، فشرعت أقرأ الجرائد اليومية وأشتري مجلتي « المقتطف » و « الجامعة » وأسأل عن الكتب . ولم تكن هناك مجلات أسبوعية . وبقيت الحال كذلك إلى أن أنشأت أنا أول مجلة أسبوعية في ١٩١٤ وهي « المستقبل » .

وعرفت « المقتطف » . وكان اهتدائي إليه من المصادفات البديعة التي أعاننتني على التثقيف الذاتي . وكنت أشتري الأعداد القديمة بل أحياناً الأعداد الجديدة ، من الإدارة ، على غلاء ثمنها ، وألتمها من الغلاف إلى الغلاف . وعندما عدت إلى الزقازيق وجدت في بيت صديق لي بقرية قريبة من الزقازيق نحو مئة عدد من هذه المجلة ، فاستعرتها وقرأتها جميعها . وكان يحرر « المقتطف » في تلك السنين الدكتور يعقوب صروف . وكانت بؤرة اهتمامه الذهني في ذلك الوقت نظرية التطور التي كان يسميها نظرية النشوء والارتقاء . ولذلك لم يكن يخلو عدد من بحث هذه النظرية .

وفي مجتمعنا المصري كثير من الكظوم التي ترهق الذهن بالقيود
والسدود . وكان الايمان بنظرية التطور نوعاً من التفريج والانتقام .
ولذلك وجددتني في ذلك الوقت داعية متحمساً لهذه النظرية في البيت
والمدرسة وفي كل مكان آخر . وشجرت كأتى ممتاز بهذه النظرية . فبعثني
هذا إلى التوسع فيها ، وعرفت لذلك الدكتور شبلي شميل ، وكان رجلاً
كبير الذكاء محدود المعارف . فكان يعتمد على الحججة المنطقية أكثر
مما يعتمد على البيئنة العلمية . وفي الوقت الذي كان يعتمد عليه «المقتطف»
على البيئئات العلمية ويمثل أنوال البيولوجيين في أوروبا عن هذه
النظرية كان شبلي شميل ينافح عنها ويدعو إليها بقوة المنطق . ولكن
يجب مع هذا أن نذكر فضل شبلي شميل في أنه نقل إلى العربية
كتاب بوختر في المادية العلمية . والحق أن هذه النظرية كانت
رؤياً جديدة لشباب مثلي لم يكده يخرج من طور الصبا ، كما كان
شبلي شميل بجرأته وذكائه شخصية فذة لها قوة الايحاء والتوجيه
في نفسى .

ولكن مع ذلك لم يستطع «المقتطف» ولا شبلي شميل تكوين مدرسة
فكرية . لأن الركود الذهني كان عاماً كما كان الشرق بقواته
التاريخية الساحقة يخيم علينا بل يحط علينا بكل كفه . فلم يكن المجتمع
المصري وقتئذ يميز لنا أن نبوح ونعلن سرالنا . فكنا لذلك أفراداً
متفرقين نناقش هذه الأفكار والآراء في همس متسترين أو في استحياء
يشبه الاعتذار إذا صادفنا غرباء . وكثيراً ما كنت أجد أن الحججة
تنتقل من الرأس إلى الذراع ، فأسارع إلى التسليم وأعلن صحة العقائد

والتقاليد وكذب الآراء والعلوم . لأن المنكرين كانوا في العادة أكبر مني سنًا وأضخم جسمًا . . .

وإني أعزو إلى « المقتطف » هذه النزعة العلمية التي لازمتني طوال حياتي الماضية كما أعزو إليه هذا « الأسلوب التلغرافي » الذي أكتب به والذي يظن كثيرون أنه من اختراعي . وكان الدكتور يعقوب صروف لا يعرف التزاويقي بل كان في الأغلب لا يتذوق الجملة الفصيحة أو الكلمة الناصعة أو العبارة الثلاثية أو سائر تلك الألاعيب الصبغانية التي كان الكتاب يرفعون من شأنها إلى قبيل الحرب الكوكبية الأولى .

وكان يرافق هذا الوجدان العلمي بالنظر المادي وجدان أدبي آخر غمرني وبسط لي آفاقاً جديدة . ذلك أننا في تلك الستين أي حوالي سنة ١٩٠٥ أو ١٩٠٦ لم نكن نعرف من معنى الأدب سوى القواعد الجاردة للبيان والبلاغة التي نحفظها عن ظهر قلب في جمود أو كراهة؛ ولكننا كنا نتذوق شيئاً من الجبال الفنى في مقالات اللواء ومصباح الشرق . وكنا نقرأ كتاب أدب الدنيا والدين للماوردي أو كتاب كليلة ودمثة لابن المقفع . والواقع أن أسلوب الأول يخالف أسلوب الثاني ؛ فان الماوردي سهب غير ململم أو محبوبك في حين أن ابن المقفع موجز رصين مضبوط . ولذلك كانت رؤيا جديدة بل إلهاماً جديداً أن أعرف مجلة « الجامعة » لفرح أنطون . فقد عثرت على بضعة عشر عدداً من هذه المجلة ، ثم اتشيت مؤلفات هذا الكاتب العظيم ، فرأيت دنيا جديدة من الأدب الأوربي لم نكن نعرف عنها شيئاً من قبل .

وقد مس هذا الأدب أوتاراً في نفوس جميع قارئيه في الشرق العربي . لأن هذه الدنيا الجديدة من الأدب الأوربي كانت تختلف ، لا بل تناقض ، ما تعلمنا من أدب عربي . ذلك لأن الأدب العربي ، كما كنا نعرفه في ذلك الوقت ، كان أدب السلطة والتقاليد والعقائد . ولكن الأدب الأوربي ، أو بالأصح الفرنسي ، الذي نقله إلينا فرح أنطون ، كان أدب الثورة والتمرد ، أدب العقل الذي يحس والقلب الذي يعقل ، أدب فولتير وروسو وديدرو وبرناردان دوسان بيير . وكان جميع هؤلاء مجاهدين يكافحون استبداد الملوك والأمراء واستبداد العقيدة وسلطان التاريخ .

وكنا نحن في مصر في حالة اجتماعية وسياسية تحملنا على الترحيب بهذا الأدب ، ففتحتنا له قلوبنا ، لا بل تفرزنا وتمردنا . وكان هذا الأدب هو الذي هباً فرنسا التهيئة الذهنية للثورة الكبرى . ويبدولى الآن أن فرح أنطون لم يكن على جهل بما يعمل . فإنه خرج من لبنان حوالي سنة ١٩٠٠ ، وكان هذا القطر يغط في ركود تاريخي آسن وقد خيمت عليه الدولة « العثمانية » ومنعت عنه النور إلا بصيصاً يتلقاه الشباب في كلية بيروت الفرنسية أو الجامعة الأمريكية . ودرس فرح أنطون الفرنسية وتشبعت نفسه وذهنه بأدائها . فلما رحل إلى مصر وجاء شيئاً من الحرية . ولكنه أدرك أن الظلام الذي كان يشكوه لبنان هو نفسه الظلام الذي تشكوه مصر مع فرق في الدرجة فقط . فعمد إلى هؤلاء المؤلفين الفرنسيين الذين ذكرت أسماءهم يتنقل عنهم أو يستلهمهم في كل ما يكتب . ومن هنا كانت جدته وطفاته لي بل لجميع

قرائه. فان « المتكطف » لم يكن يعنى بالأدب. وكان « مصباح الشرق » جريدة أدبية يصدرها المويلحي ، ولكن لأدب العرب نقط . أما الجامعة فانفجرت بيننا تثير وتشير وتثير . أى تثير عقولنا وتشير إلى مبادئ ومناهج رتبها أدباء فرنسا في أواخر القرن الثامن عشر . وكان يحس أننا في حاجة إلى هذه المبادئ والمناهج . ولذلك أثارنا بترجمة قصة الثورة الفرنسية لألكسندر دوماس . ولا أعرف واحداً يقضاً في تلك الستين لم يقرأ هذه القصة ولم يتغير بها وإسائر مؤلفات فرح أنطون . وكان جديراً بهذه المؤلفات أن تحدث حركة رومانسية ابتداعية في الأدب العربي ، ولكنها للأسف لم تحدث . فإن خلاصتها أن الانسان حسن مسالم ، ولكن المجتمع سيء يحمل على الرذائل . وما كان أبداً منها من فكرة لمثل أستنا في مثل ذلك العصر أى حوالى ١٩٠٥ أو ١٩٠٦ . فان هذه الفكرة كانت جديرة بأن تستمر وتبحث النشاط الذهني في جميع القراء ، كما تبعت وجداناً أدبياً جديداً ينضج ويتوالد في شتى الأفكار والآراء .

ولعل محتاج هنا إلى أن أشرح ماذا أنصد إليه من الاتجاه الرومانتي في الأدب . فان الأدب يمكن أن يقسم من ناحية المزاج والاتجاه وقواعد التفكير واللغة بأنه أذب كلاسي اتباعى أو أذب رومانتي إبتداعى . وليس أحدهما خيراً من الآخر ، ولكنهما مختلفان . وفي فترة ما تحتاج الأمة إلى النزعة الاتباعية في حين أنها في فترة أخرى قد تحتاج إلى النزعة الابتداعية .

فالنزعة الاتباعية تقتضى العناية بالماضى والحجى على أساليب

السلف والتقييد بالنصوص في قواعد التفكير واللغة . ففولتير اتباعى .
وطه حسين في كتابه عن المعرى اتباعى . والعقاد في كتبه عن رجال
الاسلام الأولين اتباعى . وقس على هذا .

والنزعة الابتداعية تقتضى الخيال أكثر من التقيد بالنصوص .
وهى تجنح إلى التحلل من النص والقاعدة . ولذلك كان روسو ابتداعياً
كما أن طه حسين في « الأيام » ابتداعى . وكذلك توفيق الحكيم
ابتداعى في معظم ما يكتب .

ونحن محتاجون إلى النزعتين ، ولكننا في مصر أكثر احتياجاً إلى
النزعة الابتداعية ؛ لأنها في النهاية نزعة التجديد وفتح المستقبل .
وكان فرح أنطون فيما ألف ونقل رومانتيّاً ابتداعياً . بل إن أول
الكتب التى نقلها عن الفرنسية كان كتاب « إميل » لجان جاك
روسو ، وهو يعد أساساً للحركة الرومانتية في أوروبا ، ويقول بأن الطبيعة
البشرية حسنة يفسدها المجتمع والحكومات والقوانين . وهذا الكتاب
مع الأسف لم يطبع إلى الآن .

ولكن حياة فرح أنطون في ذلك الوقت بترت ؛ لأنه وقع في
مناقشات تمس الدين مع الشيخ محمد عبده ، فبارت مجلته بعد الزواج .
ورحل إلى القارة الأمريكية حيث اشترك في خصوصيات صحفية لم يكن
القلم وحده أداة الرأى والحجة فيها ، فعاد مهزوماً إلى مصر .
وكان أن فرح أنطون في نفسى أنى أن تبرز الأدب الأوربى إكباراً
عظيماً .

ولم يكن هذا غريباً في مثلى . فان فرح أنطون استبدل بالماوردى

عندي جان جاك روسو ، وحملني على أن أستبدل بالكلمة الوضيئة
والعبارة المذهبة أدب المبادئ والفلسفة والفكرة .

وعرفت فرح أنطون بعد ذلك حين اشتغلت معه في جريدة « اللواء » ،
وكانت جريدة الحزب الوطني يرأسها المرحوم عثمان صبرى حوالى
١٩١٠ ، فزادنى توجيهاً نحو الأدب الأوروبى . وعاش فرح فى مصر
إلى ١٩٢١ حين توفى وهو فى الحادية والأربعين . وكانت وفاته نكبة
على النهضة المصرية السياسية والأدبية . وكان من السوريين القلائل
الذين اندغموا فى الحركة الوطنية المصرية اندغاماً تاماً . وكان سعد
زغلول يحبه ويقدره . وزاره واصف غالى باشا وهو فى فراش المرض
قبيل وفاته بمنزل أخته السيدة روزا حداد وقدم له تحية الوفد .

والآن أعود بالذاكرة إلى هذه الشخصية الفذة وأتساءل : ما مقدار
ماضiac منا بوفاته ؟

الحق أن سافقدنا فيه عظيم فادح . فلو أنه عاش إلى أيامنا مثلاً
لطبع النزعات الأدبية والسياسية فى مصر بطابعه . ولعله كان يوجه
الأدب المصرى هذه الوجهة الرومانتية التى أسف على أنه لا يتجهها
الآن . لأننا على الرغم من كل جديد فى هذا الأدب مازلنا نعيش فى
أسر التاريخ بأدب أغلبه سلفى ، ن فكر بمزاج سلفى فى لهجة سلفية .
وأدبنا هو أبعاد الآداب عن روسو ، بل لقد أصبحت حركاتنا الاجتماعية
سلفية أيضاً كما ترى فى حركة « الأخوان المسلمين » .

وكان فرح أنطون بشرى النزعة والايان ، يؤمن بالانسان
ويكره الأساطير الغيبية بل يشمئز منها . وكان يمتاز بالذهن

الاستطلاعى يرود كل جديد فى الثقافة الأوربية . فهو أول من كتب عن نيتشه . وأظن أنى أنا كنت الثانى ؛ لأن أول مقال صحفى لى كان فى « المقتطف » سنة ١٩٠٩ بعنوان « نيتشه وابن الانسان » وقد وصلت إلى نيتشه مستقلا وأنا بأوربا .

ولذلك عقب عودتى من أوربا واتصالى به كنت لا أجد موضوعاً أختلف فيه معه . وكنا نتحدث عن الاشتراكية والنزعات الأدبية الجديدة والسياسة فى مصر ، فنكاد نتفق فى كل شىء حتى فى العقيدة الدينية .

وفىما بين ١٩٠٧ و ١٩١٠ ظهرت قوة جديدة فى مصر كان لها أثر آخر فى توجيهى النفسى ، وكانت هذه القوة أحمد لطفى السيد . ففى تلك السنين كانت الوطنية المصرية فى طور اليرقة لم تنسلخ بعد إلى الجسم الحى الكامل . وكانت عرضة لأخطار شتى وتطوحات مختلفة . وحسب القارىء أن يعرف أن كلمة « وطنية » ليست عربية وأنا إنما سككنا هذه الكلمة كى نعبر بها عن وجدان جديد . ذلك أن مصر فى بداية هذا القرن كانت لا تزال فى أسر الماضى . وكانت الدولة « العثمانية » هى دولتنا التى كنا نكافح بها الامبراطورية البريطانية . وكان بيننا متنبهون تعلموا فى المدارس الفرنسية أو نهبتم الحوادث وأيقظت فيهم وجداناً وطنياً ، فلم يكونوا يسيئون منطلق اللواء والمؤيد فى الدفاع عن استقلال مصر بحق الأتراك فى سيادتها . وكان الأقباط ينفرون من هذه الوطنية العثمانية نفوراً عظيماً .

وظهر لطفى السيد فى الجرائد يدافع عن هذه البديهيية الواضحة ،

وهي أن مصر يجب أن يملكها المصريون دون الأتراك ودون الانجليز. ووجد في الأول مصادمة قوية من الكتاب الذين ألفوا الدعاية للأتراك ولكن سرعان ما انتصر وظفر بالرأي العام في مصر. ووجد الأقباط منطلقاً في هذه الوطنية كما وجد المثقفون فيها أملاً جديداً يعي الأمة للإصلاح والتجديد فأقبلوا على الجريدة وشغفوا بمقالات لطفي السيد. وكثير من القراء في أيامنا، أي بعد نحو ٣٥ سنة من هذه الحركة، لا يعرفون مقدار هذه الحركة وفضل أحمد لطفي السيد فيها. ذلك أننا جميعاً قد اعتقنا هذه الوطنية الجديدة، ووطنية مصر للمصريين ولم نعد نعرف غيرها. ولكن على القارئ أن يذكر أن الدولة «العثمانية» كانت شيئاً أكبر من تركيا الحاضرة. وكانت إمبراطورية شاسعة لها جيوش وموظفون في اليمن والحجاز والعراق وطرابلس. وكانت الرحلة السنوية إلى استامبول أو كما كان يصفها الصحفيون وقتئذ «دار السعادة» لا تقل في عدد المسافرين المتترهين عن الرحلة إلى باريس. وكان جبل الدسائس لا ينقطع بين القاهرة واستامبول. ولكنه مع ذلك كان واهياً، كما كانت هذه الدسائس عقيمة.

وكان لطفي السيد وعبد العزيز فهمي وقاسم أمين جبلاً جديداً في مصر بعد الحليل الذي كان منه الأفغانى ومهد عبده. وكان هذا الحليل أكثر جرأة. ولذلك نجد أن قاسم أمين يدعو إلى سفور المرأة وإلغاء الاعراب في اللغة. ولطفي السيد يدعو إلى لغة مبسطة تقارب العامية، كما نجد عبد العزيز فهمي الآن يدعو إلى الخط اللاتيني. وقد

حفظ هذا الأخير شبابه الذهني إلى ما بعد السابعة والسبعين . وهو يعاني الآن من هذا الشباب عنتاً من خصومه أولئك الشبان الذين شاخوا قبل الثلاثين والأربعين .

والواقع أن لطفى السيد مهد لحركة سنة ١٩١٩ بجمع الأمة على رأى موحد في الوطنية ، كما أنه جعل التجديد مساعاً لا يتهم القائمون به بالهوج أو الرعونة . بل أصبحت الدعوة إلى حرية المرأة وتعليمها شيئاً وقوراً محترماً ، واحترمت « الجريدة » بعد أن كانت موضوعاً للنكات البذيئة .

وقد سبق أن قلت إن أسلوب المتتطف كان علمياً مقتصداً وإني أخذت عنه ما أسميته « الأسلوب التلغرافي » . ولكن أسلوب لطفى السيد كان موجزاً مقتصداً أيضاً . وهو أشبه الأساليب بأسلوب ابن المقفع . وأظن أني تأثرت به أيضاً .

وقد كان هؤلاء الثلاثة : يعقوب صروف ، وفرح أنطون ، ولطفى السيد ، من القوات التي صاغت شخصيتي الثقافية الذهنية . فان الأول وجهنى إلى طريق العلم . والثاني بسط لى الآفاق الأوربية للدب . والثالث جعل من المستطاع لى ، بوصف أى غير مسلم ، أن أكون وطنياً في مصر .

كرومر وجورست وكتشنز

في ١٩٠٧ كنت قد بلغت حالا من القلق النفسى والثقافى جعلت مقامى فى مصر شاقاً . فقد كنت أعانى هذا الكرب المدرسى الذى أحدثه الانجليز بنظام الشكنات فى المدارس ، إلى جنب نكد عائلى آخر أوجدته تلك المطامع العائلية الصغيرة التى أجد من البر أن أنساها . والقارىء يعرف أننا فى مصر نكابد خلافات عائلية تتعدد مراجعها من التمييز المالى أو المطامع المالىة بين الورثة إلى الاشتباكات التى تعود إلى مصاهرات سيئة تحمىل العائلات إلى قبائل تحمى النار وتعيش السنين وهى فى الشقاق والنزاع . وقد كابدت من كل ذلك مضطراً وألماً . ولكنى كنت أجد العزاء فى شغفى بالثقافة . بل لقد كانت هذه المساوىء العائلية تحملى على تجنب الاختلاط بالاعتكاف للدراسة كما كانت الدراسة نفسها سروراً أنشده كى أخفف عن نفسى هذا البلاء . وحين أرجع بذاكرتى الآن إلى تلك الأيام أجد أن بؤرة هذه المتاعب كان واحداً أو اثنين قد أسىء إليهما فى طفولتهما بالتدليل المسرف . فنشأ كلاهما على العدوان والعناد والخطف . والحق أنهما لا يزالان على هذه الحال إلى الآن .

وسافرت إلى أوروبا وأنا على غير وجهة تعليمية معينة سوى الحصول

بأية وسيلة على الثقافة العصرية . وقد كان ميراثي من أبي الذي مات وأنا دون السنيتين يكفل لي نحو ٢٥ أو ٣٠ جنياً في الشهر دخلاً ثابتاً . فلم أحس الحاجة إلى إعداد مهني أتكسب به . ولم تكن الوظائف مغرية في ذلك الوقت لأن الحاصل على الدبلوم لم يكن يزيد مرتبه على ثمانية جنيهات .

وقصدت إلى باريس عن طريق استامبول . وكانت الدولة العثمانية (تركيا) في تضعفها قد شاع فيها التفكك والانحلال . وكانت غايتي من اختيار هذا الطريق أن أرى أوروبا قبل أن أهبط باريس . وقد يلذ للقارئ أن أروي له ثلاث حوادث وقعت لي في السفر لا تزال بارزة في ذهني . أولها أنه كان يرافقني في قمرة الباخرة موظف تركي كان قادماً من الين إلى استامبول . وكان يعرف العربية . وكان يعين مساهم بشرب زجاجة من العرق . ويعين صباحه بملء فمه ماء ثم ينفخ طربوشه نفخاً من فمه ويمسحه بعد ذلك . وكنا نتحدث كثيراً عن السياسة التي كان يفيض ويصرح في شؤونها عقب الكؤوس الأولى من العرق . وكان يسب اليمينيين والعرب عامة . وكانت الباخرة قد قامت من بورسعيد تقصد إلى الموانئ الشرقية على البحر المتوسط وتلبث في كل منها نحو ثلاث أو أربع ساعات . فكنا ننزل للتفرج . فلما بلغنا أزمير اقترح علي أن يرافقني وأن نستأجر عربة لرؤية المدينة . فلما واجهنا العربات على رصيف الميناء جعل يسأل الحوذية بلغته التركية عن أسمائهم فطلبت منه أن يخبرني عن السبب لهذه الأسئلة . فأجابني : « أسأل كي أعرف إذا كان مسيحياً أم مسلماً لأننا يجب ألا نركب إلا مع

حودى مسلم . « ولم يكن يعرف أنى مسيحي . وبصرت عندئذ باحدى المشكلات التى أدت فى النهاية إلى موت السلطنة العثمانية . إذ ليس شك أن الأقليات من العرب والأرمن ، لما نالها من عسف ، حطمت بنيان هذه السلطنة لأن هذا التعصب الدينى كان يرافقه تعصب عنصرى آخر ضد العرب . كما نعرف نحن مما فعله الشريف حسين حين ألّب العرب وانضم إلى الانجليز وحارب الأتراك فى الحرب الكبرى الأولى .

والحادثة الثانية أنى وأنا فى استامبول دخلت قهوة تركية كان دخان النارجيلات قد انعقد فيها بحيث لم يكن الداخل يستطيع التنفس أو رؤية السقف . وصدمنى هذا الجو فارتددت بعد أن فتحت الباب . وعدت إلى الشارع . ولكنى تأملت وقلت فى نفسى يجب أن أعرف هذا الوسط التركى بعيوبه وميزاته . ورجعت إلى القهوة وقعدت . وأنا من الأصل أكره الدخان . وظنى أنى على « استهداف » طبي منه . مثل أولئك الذين يستهدفون لهباء القطن أو القمح أو عطور بعض الأزهار . ولم يمض على هذه القهوة نصف ساعة حتى شعرت بغثيان فخرجت وقتت فى الشارع . وقصدت إلى الفندق وأنا فى غاية الكرب فى الرابعة بعد الظهر . وآويت إلى الفراش . وفى رأسى ضربان كأن مطرقة تدق دماغى . وتوزمت العدد فى عنتى . ولم أفق إلا فى صباح اليوم التالى . وكان واضحاً أنى تسممت بدخان هذه القهوة .

أما الحادث الثالث فهو رؤية السلطان عبد الحميد وهو يقصد من قصره إلى المسجد لصلاة الجمعة . وكنا نحن المتفرجين قد اصطفنا

على الطريق وأماننا الجنود الأتراك في صف عسكري . وكانت المدافع تطلق قنابلها والنواقيس تدق في المسجد ، على غير مألوفنا في مصر . والمؤذن يهتف باللغة العربية ، ويدعو إلى الصلاة . وخرج عبد الحميد في عربته وكان قد تجاوز الشيخوخة إلى الهرم المتحطم . فكان منحنيًا يكاد رأسه يلمس ركبته . وكانت العربة تسير على مهل وهتاف القائد « بادي شاه شوك يشا » يبعث في كل منا حماسة تاريخية وإن تكن غير ديمقراطية . ولكن أفسد علينا هذه الحماسة التاريخية منظر آخر هو ضابط شركسي كان واقفًا قريبًا منا . وكان غاية في جمال الوجه وفتنة القوام . وزادت هذا الجمال شكته العسكرية الزاهية . وكان إلى جنبي وخلفي سيدات أجنبيات فأخذت عيناي تتجسس عليهن كي أرى وقع هذا المنظر فيهن . وكان ما توقعت . فقد تركت أعينهن عبد الحميد وتجمعت نظراتهن في بؤرة مفردة هي هذا الضابط الشركسي . وهكذا انتصر عرش الجمال والشباب على عرش السلاطين الأتراك . وقطعت الطريق من استانبول إلى باريس على مراحل قصيرة كي أرى العواصم الأوروبية حتى استقرت في باريس . وسأروى في فصل آخر ماذا رأيت في فرنسا . وكنت قد تركت مصر عقب خروج كرومر الطاغية الإنجليزي الذي عاث وعربد في كياننا الاقتصادي والسياسي وعطل بلادنا من التطور . وكان السبب لخروجه فظيعة دنشواي التي فضحت الاستعمار البريطاني في جميع أنحاء العالم المتمدن . ولم يكتب إلى الآن في اللغة العربية تاريخ كرومر . فقد كان هذا الرجل جاهلا يتشدد بعبارات لاتينية أو أعريقية قديمة ولا يعرف

شيئاً من العلوم العصرية الجديدة . ولما ترك مصر استخدمته مجلة « اسبكتاتور لندن » لكتابة النقد للكتب السياسية الجديدة . وكنت أقرأ مقالاته هذه وأنا في لندن فلا أجد نوراً أو معرفة ، ولكن حذقت لغوية جوفاء وآراء سخيفة مستغرصة . وكان استعارياً مسرفاً في الاستعارة فمنع التعليم ، وخاصة تعليم المرأة ، وقتل الصناعة المصرية . وأحال القطر المصرى إلى عزية للقطن . ولا أصر السرهبرى كامبل بانرمان رئيس وزارة الأحرار على طرده من مصر عقب فظيعة دنشواى وقف في دار الأوبرا يودع أصدقاءه الأتجلىز وأعداءه المصرىين فقال هذه الكلمات التالية التى تدل على حنقه وعجزه . وذلك فى ٤ مايو من ١٩٠٧ :

« أخاف أن أكون قد أتعبتكم أيها السادة بطول الكلام . ولكن ما قلته إلى الآن كان عن الماضى . فاذا تكرمتم علىّ بالاصغاء فانى أقول شيئاً عن المستقبل .

« ما هى حقائق الحال المصرية الآن ؟ أولها أن الاحتلال البريطانى سيدوم إلى ما شاء الله . وقد قالت لنا حكومة صاحب الجلالة الملك ذلك رسمياً . والثانى أنه ما دام الاحتلال البريطانى باقياً فالحكومة البريطانية تكون بالضرورة مسئولة عن الخطئة التى تجرى عليها الحكومة المصرية . ولا يكون عند أحد أقل ريب فى هذه الحقيقة الثابتة . والنتيجة التى أستخلصها من هذه القدمة أن نظام الحكم الحاضر دائم . »

وإذا كانت هذه الكلمات تدل على حنقه فانها أيضاً توضح سياسته التى اتبعها فى مصر .

وجاء بعد كرومر من يدعى جورست ، وكان قد أدرك أن الخديوى عباس يرأس الحركة الوطنية ويؤيد مصطفى كامل فى جهاده الوطنى وأنه يمكن أن يجتذب الخديوى إلى الانجليز . فاخترع ما كان يسمى « سياسة الوفاق » أى أن الانجليز يجدون المحالفة مع الخديوى أسوس له وأتفع لمصالحهم من الخلاف المستمر والتصادم بينهم وبينه . وكان ما أراد جورست . فان الخديوى تنكر لمصطفى كامل بعدما أطلقت يد الخديوى فى « نظارة » الأوقاف . بل أصبح يناوى حزب الأمة الذى كان يطالبه بالدستور . وكان أحمد لطفى السيد قد أصدر ، بمعاونة بعض الأعيان « الجزيرة » . وجعل رسالتها الأولى الدعوة إلى الدستور . وكان من وقت لآخر يحمل على الخديوى لأنه تتاح له الفرصة لمنح الدستور ولكنه لا يمنحه . ووقعت البلاد من هذا « الوفاق » بين عميد الاستعمار البريطانى وأمير البلاد فى هاوية من اليأس . وتوطدت الصداقة بين عباس باشا وجورست حتى أنه عند ما مرض هذا سافر إليه الخديوى وزاره فى لندن وهو فى فراش الموت كما سبق أن ذكرت .

ثم كان هذا الانبعاث الوطنى الجديد فى الأمة فعمد جورست إلى مناورة استعمارية أخرى هى إيجاد الخلاف والشقاق بين المسلمين والأقباط ، فكان الموظفون الانجليز يحرضون الأقباط من ناحية على المسلمين ثم يعودون فيحرضون المسلمين من ناحية أخرى على الأقباط . وشرعت المصالح الحكومية تخرج إحصاءات ، غير مطلوبة ، كى تبين عدد الموظفين من القبط والمسلمين . وشرع كل فريق يعقد المؤتمرات ويطلب بطبات كأن مصر لم يعد لها طلبات قبل الانجليز المعتدين علينا جميعاً وإنما

صار كل ما نطمع فيه أن يطلب المسلمون من الأقباط ترك هذه الوظائف أو تلك ويطلب الأقباط من المسلمين هذا الحق أو غيره . وهكذا انتهى جورست إلى « تهنيده » مصر . وسعد الانجليز وشقيتنا نحن ونسينا الدستور ونسينا الاستقلال . وخيم الشر على الأمة حتى أن كاتباً يدعى عبد العزيز جاويش كتب في اللواء جريدة الحزب الوطنى يقول فى رعونة إن المسلمين كانوا يستطيعون أن يصنعوا لعالم من حدود الأقباط . . .

وعاشت مصر أياماً سوداً اغتبط فيها العدو وابتأس الصديق . وقتل بطرس غالى باشا رئيس الوزراء فحمل قتله على أنه ثمرة التعصب الدينى . وهكذا تحققت الأسطورة التى اخترعها ادوارد جراى وزير الخارجية البريطانية كى يبرر بها فظيعة دنشواى وهى أن التعصب الاسلامى قد فشا فى مصر وعم أفريقيا الشمالية . واستغل المستعمرون هذه الاسطورة .

ومات جورست قبل أن ينال جميع الثمرات التى كان ينتظرها من الوقعة التى غرسها بين الأقباط والمسلمين . وجاء بعده كتشنر ، وكان عسكرياً فظاً غلبت العقل يحمل حقداً قديماً على الخديوى . وبقى إلى ١٩١٤ ، وكانت غايته محو الحركة الوطنية وضم مصر إلى الملكات البريطانية . وسار سيرة الضغط والعداء للامة وللخديوى . وأفشى التجسس فى الحكومة . وأرسل بعثة مصرية إلى موسكو كى يتعلم رجالها طرق التجسس التى كانت تستعملها حكومة القيصر نيقولا فى مكافحة الأحرار الروس حتى تصل إلى شنتهم أو نفيهم إلى سيبيريا .

وأقام قلعة تحت ستار ثكنة في ميدان باب الحديد لا تزال قائمة إلى الآن وعلى كل زاوية منها مزاعل من الحديد . وكنت أمراً هذه الأخبار في الجرائد التي واطبت على الاشتراك فيها وأنا بفرنسا وكلى بأس واهتمام . وكانت تصل إلى أيضا خطابات خاصة من أقاربي وأصدقائي الأقباط وهم حائقون على إخوانهم المسلمين وخاصة لهذا المقال البذيء الذي كتبه ذلك الكاتب الشاطح عبد العزيز جاويش ، عن خدود الأقباط تصنع نعالا ، في نقاش صحفى بين جريدتى اللواء والوطن .

ولكن مع هذا الظلام الذى عم مصر فيما بين ١٩٠٧ و ١٩١٢ كانت هناك أشعة من نور . منها الدستور الذى دأب حزب الأمة ولسانه « الجريدة » فى المطالبة به . ومنها هذا التطور الملحوظ فى الوطنية المصرية . والفضل فيه أيضاً للجريدة وأعنى به الانتقال من الوطنية العثمانية إلى الوطنية المصرية البحتة . وقد كان هناك تطورات أخرى غير ملحوظة لأنها سارت فى هدوء . فقد رأت مصر سيدة مصرية تكتب فى الجرائد باسم « باحثة البادية » هى ابنة المرحوم حفى ناصف بل رأت أيضاً الأنسة نبوية موسى تنجح فى نيل الشهادة الثانوية على الرغم من معارضة ذلوب لها ومنعها من التقدم للامتحان فى السنة الأولى . ومن التطورات غير الملحوظة أن الثروة انتقلت من العائلات التركية إلى العائلات المصرية . وذلك لأن أبناء الأتراك قنعوا بثروتهم الموروثة ولم يتعلموا . فى حين أقدم الشبان المصريون على التعلم ، فصار منهم الأطباء والمحامون والمهندسون وعامة الموظفين . وكان هذا انتصاراً عظيماً للعنصرية المصرية . والقراء الذين ألفوا رؤية

وزراء من المصريين فيما بين ١٩٢٠ و ١٩٤٧ قد يتعجبون حين يعرفون أن المصري القح لم يكن يعين وزيراً إلا نادراً ، بل نادراً جداً ، قبل ١٩٠٠ . وكان بطرس غالى باشا أول رئيس مصرى للوزارة منذ الاحتلال البريطانى . كما أن فرح الأمة باختيار سعد زغلول باشا وزيراً للمعارف فى وزارة بطرس باشا كان يرجع بعضه إلى أنه مصرى العنصر . والتفتأت هنا إلى هذا الموضوع بدل القارى على أننا منذ بداية هذا القرن كنا على وجدان بالعنصرية المصرية . وقد ضعف هذا الوجدان بتقهقر السلالة التركية فى الوظائف الحكومية .

وعدت إلى مصر بعد قضاء سنة فى فرنسا فى ١٩٠٩ ، وأذكر أنى حين نزلت فى الاسكندرية سارعت إلى قطع التذاكر عند شركة كوك لرؤية مدن الصعيد إلى الأقصر . وقضيت شهرين أنتقل من بلدة إلى أخرى أدرس الآثار المصرية . وكان الباعث المؤمل بل الخزى على هذه الرحلة أنى لم أكن ألقى أحداً فى أوروبا إلا وكان يفاجئنى بالسؤال عن تاريخ الفراعنة الذين كنا نجهلهم تمام الجهل . لأن الانجليز كانوا يشعرون أن هذا التاريخ الذى يشتعل مجدداً وعظمة يجب ألا يعرفه أبناء الفراعنة فى القرن العشرين لئلا يشتعل فيهم مثل هذا المجد أيضاً فيطلبون الاستقلال . ومنذ ذلك الوقت وأنا أهتم بالفراعنة وثقافتهم ، وكان كتابى « مصر أصل الحضارة » ثمرة هذا الاهتمام .

وعدت إلى القاهرة بعد هذه الرحلة . وكانت الحركة الوطنية على أشدها ، فكانت هناك المظاهرات من الطلبة ، كما كانت هناك الصحف التى تضالبت الانجليز بالجللاء والحدويوى بالدستور والشعب

بالنهوض . فكتبت أنا بعض المقالات في اللواء جريدة الحزب الوطنى . وكان يرأس التحرير فيها المرحوم عثمان صبرى . وكان رجلاً حكيماً عرف الهوة التي أردى فيها عبد العزيز جاويش الأمة حين وصف خدود الأقباط بأنها تصنع نعالاً فشرع يستصلح ويسترضى ويضع الوناق مكان الشقاق . ودعاني إلى التحرير . وكان من أعظم ما طرقت له أنى وجدت هناك فرح أنطون صاحب الجامعة التي وجدت فيها الثقاب الذى أشعل فى نفسى الرغبة فى درس الآداب الأوربية . وقد انتفعت كثيراً بصحبة فرح أنطون فى ذلك الوقت . فانى ، زيادة على ما كنت أستمع به من حديثه فى الصباح كنت أجمع به فى المساء ، فى إحدى القهوات بميدان الأوبرا . وكان فرح جميل الطلعة عصرى الذهن أوربى التفكير ، يكره الأتراك والانجليز على السواء . وكان مساهراً ينتقل من الأدب إلى السياسة ولا تفوته النكتة العالية والاقْتباس الفريد .

وكان المندوبون الانجليز ، كرومر وجورست وكتشنر ، سواء فى الغاية وهى استغلالنا ونهب أموالنا . ولكنهم كانوا يختلفون فى الوسيلة . فقد كان كرومر لورداً لا يعد هتلم شيناً فى جانبه من حيث الاعتقاد بأن الآريين يفضلون الآسيويين والأفريقيين . وكان يصر على مظاهر السيادة البريطانية فى كل شىء بحيث كان يصرح بأنه يجب على الرئيس المصرى أن يخضع للمرءوس الانجليزى . وكان لكل وزارة « مستشار » هو فى حقيقته وزير يتصرف كما يشاء ، وليس على رؤسائه سوى الخضوع . وأستطيع أن أخلص سياسته كما أذكرها الآن فيما يلى :

١ - قتل الصناعة المصرية قتلاً تاماً بحيث لا يجوز لمصرى أن ينشئ مصنفاً ، إذ على مصر أن تستورد جميع المصنوعات من إنجلترا ، بل من غير إنجلترا ، إذا اقتضى الأمر ذلك ، حتى لا يتعلم المصريون شيئاً من الثقافة الصناعية .

٢ - إحالة القطن المصرى كله إلى عزبة للقطن ، كأنه ضاحية زراعية لمصانع لمكشير . وتوجيه نشاط الحكومة كله إلى هذه الغاية . حتى فقدت كلمة « مشروعات » معناها اللغوى عند الحكومة وأصبح معناها الوحيد زيادة المياه للرى حتى تزيد مساحة الأرض التى تزرع قطناً . وكانت هذه الزيادة فى المياه السبب فى تفشى البلهارسيا والانكستوما واستشباع التربة بالماء حتى وهنت .

٣ - قصر التعليم وتحديد عدد المدارس لتخريج الموظفين للحكومة فقط ، وذلك بعد قصر نشاط الحكومة على مهمة واحدة هى زراعة القطن .

٤ - المحافظة على تقاليدنا التى ورثناها من القرون المظلمة وكانت تؤخرنا . وأهمها بقاء البرقع والحجاب للمرأة وتثبيط تعليمها . وقد اتبع من جاءوا بعده هذه الخطط كلها . حتى أننا لم نؤسس مدرسة ثانوية للبنات إلا فى ١٩٢٥ .

أما جورست فكان بعيداً عن صراحة كرومر . ولكنه كان يسير فى الخطة نفسها من حيث تثبيط التعليم ومنع الصناعة وزيادة الزراعة القطنية . وزاد على ذلك الوقيعة بين المسلمين والأقباط . وزاد أيضاً حياً متبادلاً بينه وبين الحديوى عباس على حساب الشعب .

أما كتشنر فقد عاد إلى صراحة كرومر . وكان يكره الخديو عباس كراهة شخصية ، ولم يكن فيه من الميزات السياسية ما يمكنه من إخفاء هذه الكراهة . وكان صغيراً في أساليبه شرساً في مبادئه الأمبيريالية . فقد أراد الخديو عباس حوالى ١٩١١ أن يزور بعض المدن . وكان الأعيان يستقبلونه على المحطات . فكان من صغار كتشنر أنه عندما كانت القهوة توشك أن تقدم على المحطة يصفر القطار ويطير في سرعة مفاجئة فيرتبك الخديو ويضطرب المستقبلون ويعم الهرج . وكان هذا الصغار يلدّ لكتشنر . وقد ذكر هذه القصة جورج لويد مع الإعجاب ، لأن هذا الأخير كان ، نفساً وذهناً ، لا يختلف عن كتشنر صغاراً وانحطاطاً .

وقد كانت شهرة كتشنر حربية . ولذلك كانت له الكلمة العليا في الحرب الكوكبية الأولى . وقد عانى الانجليز أعظم خسائرهم باستماعهم لمشورة كتشنر الذى أوصى بانفاذ حملة إلى الدردنيل كانت من بدايتها لنهايتها خساراً فادحاً للانجليز وهزائم متوالية منكرة . ولم أبقى سوى بضعة أشهر في اللواء جنيت فيها مرانة حسنة على الكتابة وبعض الدراية عن الشؤون الداخلية في مصر . ثم سافرت إلى فرنسا عن طريق سويسرا التى تركت لى أجمل الذكريات النفسية عن جبالها وبحيراتها ومدنها وناسها وحريتها وثقافتها .

وكنت وأنا بفرنسا أتتبع الجهاد الوطنى في مصر وأشترك في معظم الجرائد والمجلات . ووجدت في « الجريدة » نزعة وطنية جديدة خلاصتها أن الجهاد يجب أن يتركز في بؤرة وطنية هي أن مصر للمصريين

وليست للانجليز أو الأتراك . وإن الشعب يجب أن يحكم نفسه بلستور حتى لا يترك الخديوى حاكماً مطلقاً للبلاد . وقد أدت هذه الدعوة إلى تقهقر الحزب الوطنى ، وإلى اعتناق الأقباط للوطنية المصرية التى كانوا قبل ذلك يتوجسون منها ويخشون أن تكون وطنية تركية لمصلحة السلطنة العثمانية .

وأخذت الحركة للمطالبة بالدستور تنتشر وتعم الأمة ، وأصبح الخديوى بعيداً عن الحركة الوطنية إن لم يكن مناهضاً لها .

الأفاق الأوربية تتفتح لى

لما فوجئ العالم فى أوائل أغسطس من هذا العام (١٩٤٥) بالقبلة الذرية وجد كثير من شباننا « المتعلمين » أنهم محتاجون إلى أن يراجعوا حياتهم وأن يفتشوا أذهانهم كي يعرفوا موقفهم على هذا الكوكب . وقد اضطر كثير منهم إلى أن يغيروا الأوزان والقيم الثقافية التى كانوا يرتضونها من قبل وأن يستبدلوا بها قيماً وأوزاناً أخرى . وقد أحدثت هذه القبلة صدمة فى أذهان هؤلاء المتعلمين أوكد أنها لا تقل ، فى قيمتها الروحية ، عن الصدمة المادية التى أحدثتها فى هيروشيما وناجازاكي فى اليابان .

أعرف من هؤلاء الشبان اثنين كلاهما يستمتع بمركز مالى حسن كما أنه على اطلاع حسن بالتيارات الثقافية العصرية . وقد كان إلى أغسطس الماضى قانعاً بمعارفه وتطوراتهِ الذهنية . ولكن هذه القبلة كشفت له عن نفسه فجأة . فقال لى واحد منهما : « أشهى أن أعيش طويلاً كي أتعلم وأعرف كثيراً من تطورات العالم بعد ظهور هذه القبلة . » وقال الثانى : « لى أحسن كائى أحتاج إلى تربية جديدة كاملة أولد بها من جديد أتعلم معارف جديدة وأقف على كنه هذه القبلة وعواقبها الحربية والمدنية . »

وقد ذكرت مثلى هذين الشابين كى أقول لى فى عام ١٩٠٨
أحسست مثل هذا الوجدان ، وضاقت نفسى إلى حد الانفجار . فقد
وجدت من الأدب الذى نقله إلى العربية فرح أنطون ومن نظرية التطور
اللى دأب فى شرحها يعقوب صروف سنوات فى « المتطف » لى إزاء
رؤيا أنا أعمى إلا عن بصيص منها ، وإن هناك أفاقاً مغلقة يجب أن
يكون همى واهتمامى فى حياتى أن أفتحها . وذلك بعد أن استقر عندى
أن جهلى عميق ، وأنى فى مصر أعيش فى حياة ذهنية صحراوية تقفر
من التفكير الخصب . لذلك قررت وأنا فى التاسعة عشرة أن أترك
مصر وأرحل إلى أوروبا كى أبحث عن الحياة وأربى نفسى وأولد من
جديد . وكنت فى ذلك الموقف الذى وجدته فى أغسطس من ١٩٤٥
من ذينك الشابين الذين ذكرتهما ، وأحسست كأنى أريد أن أنسى ،
عن ظهر قلب ، كل ما سبق أن تعلمت ، وأن أمسح لوحة ذهنى كى
أقش فيها المعارف التى اختارها بنفسى .

وكان من حظى الحسن كما سبق أن ذكرت أن الناحية المالية
بفضل ما ورثت من عقار صغير مغل ، لم تحوجنى قط إلى الاهتمام بالكسب
ولم يكن الاسراف أو الاستهتار فى مزاجى . ولذلك لم أبال فى دراستى
أن أعين هدفاً بنية الارتزاق والكسب ، بل كان كل قصدى ونشاطى
أن أستير وأن أقشع هذا الظلام المخيم على عقلى . وشرعت آخذ تربيته
فى يدى وأعين برنامجى أو برامجى لا للدرس فقط بل للحياة أيضاً . بل الحق
أن الدرس كان عندى هو الحياة ؛ لأنى شعرت أنى أعيش لأدرس وأنى
أدرس لأعيش . ويبدو لى أنى أحسنت الاختيار فى هذا البرنامج ؛ لأنى

أجد في ١٩٤٥ أن همومي الثقافية لا تزال هي نفسها تلك الهموم التي كانت تشغل قلبي وذهنى في ١٩٠٨ و ١٩٠٩ . وإذا كان هناك تغيير فهو في التوسع والتفرع فقط .

في ١٩٠٨ سافرت إلى فرنسا وهبطت بباريس :

شباب و فراغ وباريس ، وأنا في التاسعة عشرة ، ولكن لا ! فان باريس عندي لم تكن مدينة الأنوار التي كان يحج إليها المصطافون ويجدون فيها ما يشتهون . لأن هذا الذي يشتهون قد وضع لهم وحدهم . إذ أن سواد الباريسيين يجهله . وباريس من حيث الانغماس الجنسي تعد من أنسك العواصم الأوروبية . ثم كانت شهوراتي المتهبة في تلك السنين ذهنية أكثر مما كانت جنسية . وكانت الدهشة عندي على أعظم ما تكون حين وجدته في مجتمع يخالف المجتمع الذي نشأت فيه في مصر . ولم تكن دهشة منبهة فقط بل كانت صدمة موقظة .

كنت في مصر قبل ١٩٠٨ أعرف الحجاب وأرتضى شعائره ولا أجد غرابة أو عيباً في التلميذات الصغيرات يدخلن المدرسة السنية الابتدائية وعلى وجوههن براقع بيض . وكنت أجد الفصل بين الجنسين شيئاً مألوفاً . والبيت في مصر خدر كاسل ونساؤنا مخدرات كملات . ولا أكاد أذكر أني طوال عمري في مصر قبل سفري إلى فرنسا قد تحدثت إلى آنسة أو قعدت إلى سيدة أو فتحت عيني في وجه امرأة مصرية . فلما وجدت المجتمع الباريسي واختلطت به ورأيت فيه المرأة الفرنسية على حريتها وصراحتها وطلاقها شعرت أن أفقاً جديداً يتفتح أمامي لم يستطع يعقوب صروف أو فرح أنطون أن يفتحه لي من قبل . فانهما لم يمسا

هذا الموضوع ، أى حرية المرأة ، لسبب واضح وهو أنهما مسيحيان . وكانا بالطبع يخشيان أن يعاب عليهما النقد للعقائد أو التقاليد الاسلامية . ولم أكن قد عرفت قاسم أمين أو بالأحرى لم أتحسس له . ولا أدرى العلة لغيابه عن وجداني في ذلك الوقت . لذلك كنت حين أضطر إلى محادثة إحدى الباريسيات أحس ارتباكا يغمر كياني فلا أجد اللعثة في لساني فقط بل التخاذل أيضاً في سائر أعضائي . وقد احتجت إلى سنوات كثيرة حتى أتغلب على هذا الشعور المتعس الذي غرسته في نفسي تسع عشرة سنة من الفصل بين الجنسين في مصر .

وواضح أن هذا الشلل النفسى منع عاطفة الحب أو كظمها في الوقت الذى كان يجب أن تنفجر فيه أو تتسامى . ذلك أن للحب فناً كنا نجهله نحن في مصر في تلك السنين . وكانت أية محاولة منى نحو التعارف الحميم بآنسة تنتهى بنجبية تكوى القلب والعقل معاً . وفي مصر في وقتنا هذا من ينظر إلى الاختلاط بين الجنسين بعين المقت أو النفور ولكنى حين أقارن حالى سنة ١٩٠٩ وما كنت عليه من تعس جنسى ووكس عاطفى بحال شباننا الآن فى سرورهم ولهوهم أراهم مضطراً إلى الاعتراف بأنهم سعداء يغتبطون فى ظروف كنت أنا فيها شقيماً يرثى لى . وحبست نفسى فى مدرسة ابتدائية فى قرية قريبة من باريس تدعى موليرى من قرى القرون الوسطى . واندغمت فى عائلة ناظر المدرسة ، وشرعت أتعلم اللغة الفرنسية فى نشاط ومشاركة حتى تبرزت بين المعلمين بعبارة « كيه فوديرما » أى « ما المعنى » وذلك لالحاحى على السؤال . ولم تمض أشهر حتى وجدتني أقرأ الجريدة اليومية بل الكتاب فى فهم

وتعقل بمساعدة المعلم . وكان انتفاعى بجرائد فرنسا اليومية عظيماً لأنها وجهتني في السياسة وجهة عالية كانت جرائدنا في مصر في ذلك الوقت تعجز عنها . وانتظمت صلتى بمصر باستثناء « الجريدة » التي كان يصدرها لطفي السيد وكان يلتقن تعاليمه الجديدة : مصر للمصريين لا للاتراك ولا للانجليز . حرية المرأة . الحكومة الدستورية بإيجاد برلمان . وكان يكتب في هذه الشؤون وغيرها بأسلوب اقتصادي بعيد عن الزخارف التي كنا نتعلمها في المدارس الثانوية ونحسب أنها قمة البلاغة وتاج الفصاحة . وقد عرفت أن مجلة « المقتطف » قد جمعت هذا العام (١٩٤٥) عدداً كبيراً من مقالاته التي كتبها بالجريدة فيما بين ١٩٠٧ و ١٩١٤ . والقارى يستطيع أن يجد في هذه المقالات ذلك التوجيه الوطنى الذى وجدته أنا في تلك السنين منها .

وكانت المرأة الفرنسية ، كما قد عرف القارى مما ذكرت ، أعظم ما حرك وجدانى الاجتماعى . بل كذلك حرية المرأة في أوروبا الغربية . فان هذه الحرية كانت لها يلسع ويجرحنى في كرامتى الوطنية كما ذكرت حال المرأة المصرية . وإلى هذه السنوات وإلى هذا الوجدان تعود ثورتي بعد ذلك على التقاليد المصرية التي لم أعد أطيق صبراً عليها . وكثيراً ما فقدت صداقات كنت أحرص عليها لموقفى من هذه التقاليد . بل هناك من أصدقائى من يقول إنى فُتدت بكاسب .

وبعد ذلك قرأت هنريك إبسن ودعوته إلى شخصية مستقلة للمرأة ثم عرفت المنظمات والجمعيات النسوية التي كانت في لندن تطالب بحقوق الانتخاب والنيابة . وامتلأ قلبى وذهنى نوراً وتفأولاً بمستقبل البشر .

وقد نشأت فى مصر فى وسط ريفى . ولذلك التفت إلى الريف فى فرنسا وتعلمت منه . فأننا فى مصر لا نرحل إلى الريف إلا مضطرين كارهين لأننا نتوقع الغبار على السكك والاهمال الصحى فى المساكن . وريفنا فضلاً عن هذا صحراء الروح لما يخيم عليه من جهل وفاقه وقدر للجسم كأنه الدنس للنفس . ولكن ريف فرنسا جنة العين . وكنت أجد السعادة العظمى فى فسحة أفضيها ماشياً على الطرق الزراعية التى يكسوها البلاط (وقتئذ) بين حقول تموج بحركة الحياة النامية فى البقول أو تزدان بالكروم وأشجار الفاكهة الزاكية . وما زلت أذكر ذات مرة أنى رأيت على مسافة فى جولاقى هرمأ صغيراً أحمر أثار استطلاعى فقصدت إليه . فلما بلغتة وجدته شجرة قد كساها التفاح الأحمر حتى كاد يخفى أوراقها . . .

والقرية الفرنسية ، مهما صغرت ، تحتوى كثيراً من المرافق الاجتماعية حتى لكأنها مدينة صغيرة . فان فيها المطعم والحانة والفندق والسوق الأسبوعية . ولذلك كثيراً ما يقضى الباريسى أسبوعاً أو شهراً فى الريف كما يقضى أحدنا مثل هذه المدة فى الإسكندرية أو رأس البر .

وفى الحرب الكبرى الثانية أشار الماريشال بيتان شبهات وشكوكاً بشأن المجتمع الفرنسى أوهمت كثيراً من القراء المصريين أن هذا المجتمع مريض قد تفككت فيه العائلة وتزعزع الإيمان . والواقع أن كل هذا وهم ؛ فانه ليس فى أوروبا عائلة متمسكة كالعائلة الفرنسية . ولا يزال نظام هذه العائلة بطريركياً لا تتخرج فيه السلطة عن الأب .

وليس في كل أوروبا الغربية أمة تقترم الكنيسة كما يحترمها الفرنسيون. وحسب القارى أن يعرف أن جميع الكنائس في فرنسا ، وبعضها ينفرد في ريف فاء ، تترك مفتوحة ليلاً ونهاراً . ومع ذلك لا يسرق ما فيها من الأثاث الغالى الذى يقدر أحياناً بمئات أو ألوف الجنيهات . وهذا على الرغم من حرية الفكر المستفيضة . لا بل على الرغم من الدعايات النشيطة ضد الدين والكنيسة . وما زلت أذكر منظرأ كان له أثر الصدمة الموجهة لأول شهر كنت فيه في باريس في ١٩٠٨ . فقد رأيت جنازة تسير في أحد الشوارع تتقدمها راية قد كتب عليها « لا رب ولا سيد » .

ومثل هذا المنظر يوهم أن الأمة الفرنسية قد استفاض فيها الكفر والالحاد . ولكن وقفة واحدة خارج الكنيسة أو داخلها يوم الأحد كانت تكذب هذا الوهم . فان كاهن القرية هو الرئيس الروحي الذى يخاطب السكان بلهجة الأمر تحيط به هيئة التقاليد . والواقع أنه ليس في أوروبا كلها كنيسة حية كالكنيسة الفرنسية .

والحانة ، على الرغم من اسمها وشهرتها ، هى في باريس والمدن والقري مؤسسة اجتماعية للسمر بين الرجال أو بين الرجال والنساء . وكثيراً ما يجدها فيها الزائر الطعام إلى جنب الشراب . ومع أن في فرنسا آلاف الحانات ، ومع أن الأطفال يشربون الخمر ، فاني لا أذكر أنى رأيت طوال إقامتى في فرنسا في ١٩٠٨ و ١٩٠٩ رجلاً سكران . ولعل مرجع ذلك أن الفرنسي يأكل ويشرب ويسكن ويلبس ويعمل وله في كل ذلك ماأرب فنى يحمله على أن يتأنق في معيشتة . فهو يتجنب

السكر عن تأنق وفن كما يجد فى التمالك كرامة ولياقة . والمائدة الفرنسية ، بأوانها وزهورها ، هى متعة فنية للعين كما هى لذة الذوق بمهارة طهايتها .

ويدهى أن تماسك العائلة الفرنسية نتيجة هى أن فرنسا أقل أنظار العالم كله طلاقاً . وأن البيت الفرنسى يشبه فى كثير من الأحيان متحفاً يحوى كثيراً من التحف القديمة والطرف الغالية . والحليل الجديد يرث عن الحيل السابق تقاليد فى البيت هى الشعائر الاجتماعية التى يتعارف بها الأفراد كما يرث الأبناء تراث الآباء من أثاث مادمى أو ذكريات روحية .

وتعلمت اللغة الفرنسية فى سرعة عجيبة . وقد هبطت وحدى بلا معونة على طريقة ، وجدت بعد ذلك أن المرين قد انتفتوا إليها ، هى أن الجملة ، دون الكلمة ، هى التى تحفظ وتستذكر . وحين كنت أزور باريس كنت على الدوام أعنى بحضور إحدى الدرامات . وقد أتيت لى أن أستمتع برؤية سارة بونار وهى تمثل «العقاب الصغير» ولكنها كانت فى كهولتها قد ذهبت عنها لمعة الشباب مع بقاء البراعة الفنية . ودأبت فى قراءة الجرائد الفرنسية اليومية . وكانت تباع بأثمان التراب . وتعرفت إلى الأحزاب الفرنسية وشغفت بقراءة الأومانياتية التى كانت تعبر عن آراء الاشتراكيين . وكانت الاشتراكية رؤيا جديدة حملتني على أن أذكر الطبقة الفقيرة فى مصر وأجعلها موضع اهتمامي . وأكسبتني الجرائد الفرنسية العقلية السياسية الأوربية ، واستطعت أن أفهم كثيراً فى ضوء المذهب الاشتراكي . وكانت جرائدنا

في مصر « محلية » قد أنهكها الكفاح للاستقلال وحال بينها وبين دراسة الشؤون المالية . ولذلك انتفعت كثيراً بهذه النظرة الواسعة . وخاصة لأن إقامتي في فرنسا صادفت تلك السنوات التي سبقت الحرب الكوكبية الأولى . فكانت الخماثر تحتتمر لمن يتشمم الأخبار ويتنسم الطوالع .

ومع أن اللغة الفرنسية هي لغة الافصح والايماض ، لغة الأدب الحر الذي يمتاز بعبقريته خاصة في الدقة والوضوح، ومع أن باريس بؤرة الآداب الأوربية بل شعلة الثقافة التي تعشو إلى ضوئها عيون الأوربيين ، ومع أن فرنسا لا تزال في وجداني فكرة أكثر مما هي قطر ، فاني لاتباهي العلمي وجدتني في مستقبل أيامي أميل إلى قراءة الكتب الانجليزية وأوثرها على الفرنسية . لأن الانجليزية تعبر عن نزعة عملية حقيقية كثيراً ما نجدها بعيدة أو غائبة عن المزاج الذهني الفرنسي ، ولذلك أعزو تربيتي أو بالأحرى معارفي الثقافية إلى الانجليزية أكثر مما أعزوها إلى الفرنسية .

وإذا سألتني القارئ : هل وجدت في الانجليزية أدبياً له مرانة الفن ودقة الحس وإناقة التفكير وجمال التعبير مثل أنطول فرانس أو هل وجدت أدبياً في الانجليزية له حكمة فولتير وثورة روسو وحنونهما المقدس في خدمة الحق والفن ؟ فاني أجيب بلا . بل أني أعترف أن هناك آخرين غير أنطول فرانس وفولتير وروسو ممن أثمرتهم الثقافة الفرنسية ولا يوجد من يضارعهم من أدباء الانجليز أو الأمريكين . ولكن ميزة الكاتب الانجليزي ، وأسمى كتاب الانجليز عندي هو برنارد شو ،

ميزته أنه يلصق بالحقائق ، وله قدم ثابتة في الأرض حتى حين يرتفع رأسه فوق السحاب . ومع أنى ما زلت إلى الآن أوتر الجريدة الفرنسية في القاهرة على الجريدة الانجليزية ، ولا أتوك نزعاً أدبية فرنسية تفوتني ، فاني حين أحتاج إلى دراسة تطالبنى بالهرس والطحن أعمد إلى الكتب الانجليزية .

وفضل فرنسا على أنها جعلتني أوروبي التفكير والنزعة . وقد تركت باريس في نفسي إحساساً بأنها عاصمة العالم المتمدن . ولم يتركني هذا الاحساس إلى الآن . بل إنى أرى من الحق أن نصف المصرى أو الألماني أو الروسى أو الصينى الذى استشيع بالثقافة الفرنسية بأنه « فرنسى » كما كان يوصف سكان البحر المتوسط من الرومان والمصريين والمشاركة بأنهم « سلتينيون » إذا استشبعوا بالثقافة الاغريقية ونزعوا النزعة الأتينية . لأن إغريقيا لم تكن وطناً جغرافياً للاغريق فقط بل كانت أيضاً وطناً ثقافياً لغيرهم من أبناء الأمم المجاورة . وكذلك فرنسا ليست الآن وطناً جغرافياً للفرنسيين وحدهم ، وإنما هى وطن كل مثقف درس الثورة الفرنسية وأحب باسكال وروسو وعرف كلود برنار وأناطول فرانس . ولا يستطيع أحد أن يقول مثل هذا القول عن أى قطر آخر . لقد فتحت لي فرنسا الآفاق الأوروبية التى لا تزال تنبسط أمامى فتكسب حياتى مغزى حتى حين أعيش في وسط ليس له معنى فضلاً عن مغزى . وأى عزاء أكبر من هذا ؟

أنا أربي نفسي

في ١٩٠٩ قصدت إلى لندن بعد قضاء شهرين في مصر عقب عودتي من فرنسا . وهنا يجب أن أذكر أن السفر كان في ذلك الوقت حراً . فلا جوازات ولا تقييدات أو عراقيل حكومية . وكان السفر إلى باريس أو برلين أو لندن لا يختلف عندي من السفر إلى طنطا أو أسيوط . وأذكر أني أخذت إلى لندن باخرة قادمة من الهند عليها موظفون من الانجليز في الحكومة الهندية . فقاطعتني حتى على المائدة حين يحتاج كل واحد إلى مناولة الملاحه أو إناء الماء أو غيره . ولم أنجح في حمل أحد من هؤلاء الانجليز على الحديث معي ونحن على سطح الباخرة . وعمملت كما لو كنت هنديةً . أنا العبد وهم السادة . ولكنني وجدت بعض الهنود الذين عزلوا أيضاً ، اجتماعياً ، مثلي . فكنا نتحدث معاً ونحن على وجدان بهذا الاستغراض الامبراطوري . أجل . لقد عرف الانجليز نظرية « الشعب السائد » ومارسوها حين كان لا يزال الألمان مبتدئين في تفهم مغزاها يكتبون عنها فقط . وكان هذا أول اختباري للاستغراض اللوني . لأن أوروبا كلها لم تكن تعرف هذا الاستغراض . وكنا نحن المصريين نجد الاحترام بل الاكرام في عواصم أوروبا إلا في عاصمتين : استانبول حيث كان الأتراك ينظرون

بالاحتقار إلى كل عربي ، ولندن حيث كان الانجليز على وجدان وفتح
بسيادتهم للهنود والمصريين وسائر الأمم التي استولوا عليها .

وقد يسأل القارى : لماذا لم أعد إلى باريس بعد أن قضيت فيها
نحو سنتين كانت بالطبع لا تكفى للتعلم ؟

وللاجابة أقول أن باريس بعد أن بسطت لى آفاق الثقافة الأوروبية
حملتنى على أن أسرف فى الطموح . فقد كنت فى مصر أعيش فى عزوبة
ثقافية لا أقرأ غير اللغة العربية ولا أستشير عن شئون هذا العالم حتى
بقراءة الجريدة العربية . وكان تعلمى للفرنسية بمشابة التزوج من
الثقافة الأوروبية . وخشيت إن أنا بقيت فى باريس أن أنسى اللغة
الانجليزية التي تعلمتها بمصر . فأضمرت برنامجاً لتربيتى الذاتية ، برنامج
الحياة ، هو أن أعيش فى لندن سنة أو أكثر ثم أتصد إلى برلين فأتعلم
الألمانية . وابتلاك هذه اللغات الثلاث يكفل الاتصال بالعالم
المتمدن كله جملة وتفصيلاً من حيث الوقوف على معارفه واتجاهاته .
وقد احتل هذا البرنامج فيما بعد . فأتى وأنا فى لندن شرعت فى تعلم
الألمانية . ولكن صعوبة هذه اللغة ، وأيضاً سوء الطريقة التي اتبعها
المعلم معى ، كلاهما جعلنى أكف عن الاستمرار فى تعلمها . وبدلاً من
أن أبقى فى لندن سنة بقيت نحو أربع سنوات .

ورأيت وأنا بلندن أن أتخذ دراسة نظامية إلى جنب دراساتى
الأخرى الاختيارية . ولم يكن لى من قصد فى هذه الدراسة النظامية
سوى الحصول على الشهادة للوجاهة لا للكسب . ولذلك لم أبال
أية دراسة . والتحقت بلنكولنز إن . وهى أشبه هيئة نقابية للمحاميين

في لندن تجهز الطلبة الملتحقين بها بدراسات قانونية ينتهي من اجتياز الامتحان فيها بالحصول على شهادة هي في الحقيقة رخصة بأن يكون محامياً أو وكيل دعاوى . وقد كان اختياري لهذه الدراسة كارثة . فاني بعد أن درست الدستور البريطاني بشئ من الحماسة والتوسع وجدت سائر القوانين الانجليزية لا تطاق ولا تستحق العناء وخاصة تلك القوانين التي تعالج مشكلات التجارة البحرية . ولذلك شملني فتور حال دون الاستمرار في الدراسة .

ولكن هذا الفتور في دراسة القوانين الانجليزية كان يصحبه نشاط محمود في دراسات أخرى كنت أتجد لها في الليل . كما كانت هناك فترات تطول أياماً بلا دراسة ولكن في تأمل وفي إستحان ذاتي حين كنت أبحث عن مراسي في هذه الدنيا المبلبلية . وأذكر أنني في إحدى هذه الفترات ، وجدته قاعداً على الكرسي كئيب قد سميت به . وكأني نويت أني لن أبرح هذا الكرسي حتى أصل إلى قرار حاسم . ماذا أنا عامل في هذه الدنيا ؟ من هم خصومي الذين يجب أن أكاغهم ؟ من هم أصدقائي الذين يجب أن أؤيدهم ؟

ووجدته أفكر وأجيب . وأحياناً يتحدث تفكيرى فأسمعه كلاماً أنطق به . أجل . ليس لي مأرب في هذه الدنيا . فلست أبالي أن أكون ثرياً . لا بل لست أبالي أيضاً أن تكون لي زوجة وأطفال . وإنما تصدى أن أفهم ، أن أعرف كل شئ ، وأكل المعرفة أكلاً .

ثم عدت فقلت : ولكن لماذا ؟ وأجبت : لأكافح .
أكافح الانجليز حتى يجلو عن وطننا . وأيضاً أكافح تاريخنا .

أكانح هذا الشرق المتعفن الذي تنغل فيه ديدان التقاليد .
وأكانح هذا الهوان الذي يعيش فيه أبناء وطني : هوان الجهل وهوان
الفقر . أجل أنى عدو للانجليز وعدو لآلاف من أبناء وطني ، لهؤلاء
الرجعيين الذين يعارضون العلم والحضارة العصرية وحرية المرأة ،
ويؤمنون بالغيبيات . وصارت هذه الأفكار همماً يؤزق .

وعقب مقامى فى لندن بأربعة أشهر فقط أصبت بمنزلة شعبية فنهضت
منها منهوكتاً حتى نصح لى الطبيب المعالج بأن أعود إلى مصر كي أنتفع
بشمسها . فوجدت أن العودة إلى مصر بعد شهر فقط قد تحدث
ارتباكاً كبيراً فى برنامجى . ولما كان الغرض هو ترك جو لندن أى
الضباب والبرودة فانى فكرت فى مراكش لقربها من إنجلترا . وقلت :
أقضى بضعة أسابيع هناك وأعود فى مارس حين يكون قد خف البرد .
وتجهزت للسفر . وكانت الرحلة من لندن إلى جبل طارق حافلة بعناء
الأمواج المضطربة فى خليج بسكاي ونعاصة الإقامة مع الموظفين الانجليز
العائدين إلى مصر والهند وسائر الامبراطورية . وكان هؤلاء ينظرون
إلينا كأننا كلاب بل أشنع . ونزلت فى جبل طارق حيث طاب لى أن
أتردد على المراكشيين التجار وأتحدث معهم بالانجليزية والعربية .
وقصدت إلى طنجة مدينة ابن بطوطة . وهناك قضيت نحو عشرين
يوماً كان أعظم وقعها فى نفسى أنى اقتنعت بأن الشرق مفلس وأن
طراز الثقافة الذى يعيش به ويسترشد بقواعده يجب أن يتغير . فقد
كانت الحكومة المراكشية تتبع الحشيش للاهالى وتحتكر الاتجار به
تؤثر بذلك ربحها على صحة السكان . وقد حدث أنى خرجت مع الدليل

لرؤية بعض الآثار الرومانية التي تبعد أميالا عن طنجة . وكان كل منا على بغلة . فلما وصلنا إلى سفح تل نزلنا للاستراحة . فانطلقت بغلة الدليل وفرت فوق التل . فلما طلبت إليه أن ينهض ويدركها أجابني في برود وطمأنينة بأن الحشيش « قطع » قلبه . وأنى يجب أن أنهض أنا وأعدو وراء البغلة حتى أمسكها وأعود بها إليه . ونظرت إلى وجهه وتأسلت شحوبه وتحقق لي أنه ليس هناك مفر من أن أستمع لكلامه . وقمت أجرى خلف البغلة على التل . وقد احتجت إلى نحو نصف ساعة وأنا أهت جهداً حتى قبضت عليها وعدت بها لهذا الدليل الحشاش . وقيل لي وأنا في طنجة أن الرقص ممنوع . ولكن الدليل أسر في أذني بأنه على الرغم من هذا المنع فإني أستطيع أن أرى الرقص وأسمع الغناء المغربيين . ولكن في مكان غير علني . ويعنى الاستطلاع على أن أستجيب لاقتراحه . وقصدت معه بعد الثامنة مساء إلى هذا المكان حيث وجدت فتيات عاريات لا تستر أجسامهن خرقة وهن يرقصن ويغجن ويغنين أغاني مراكشية ويظربن الأجانب وبعض الوطنيين بهذا الابتذال الذي بعث في نفسي اشمئزاً عظيماً .

وكانت لغة المغاربة عربية بالطبع . ولكنها تنطق بلهجة تغاير لهجتنا في مصر حتى كنت أؤثر التحدث بالفرنسية . فاذا لم يفهمها محدثي ألقيت عليه السؤال باللغة العربية الفصحى . وكان ، بعد أن يتألمني في دهشة ، يحيب بفهم على سؤالى . وقد كتبت عن رحلتي هذه مقالا بالمقتطف في ١٩٠٩ بعنوان : « أسبوعان في المغرب » . وعدت إلى لندن متنعشاً معافى وقد فطمتني الزيارة للمغرب من

أى أثر باقى من الولاء للشرق . وشرعت أتعرف إلى يتابع الثقافة الانجليزية العصرية وأتبع مناقشات الصحف . والتحقت بالجمعية الفابية التى كانت تنشر الاشتراكية بين المتوسطين والأغنياء دون العمال . وكانت هذه الجمعية فى ذلك الوقت تجمع عدداً كبيراً من المثقفين للتطورات الاجتماعية والاقتصادية بزعامة برنارد شو وولز . وكان الثانى قد تركها ولكن أنه كان باقياً . ولم أقطع منذ أن عرفت هذين المؤلفين عن دراسة مؤلفاتهما التى تعد تربية عصرية فى الاقتصاد والاجتماع والدين والأدب . وقد تربي عليهما جيل فى أوروبا وأمريكا أصبح أفرادهم يقودون عصرهم ويرتادون المستقبل . وعرفت أيضاً جمعية العقلين . وكانوا يطبعون مؤلفات مبسطة رخيصة عن العلوم والمكتشفات التى تناهض العقائد الدينية المألوفة . وقد طبعوا الملايين من هذه الكتب التى كان يباع الواحد منها بنحو ٣٥ ملياً . وقرأت جميع مؤلفاتهم ومطبوعاتهم .

وكان المذهب العقلى يتفشى فى أوروبا فى تلك السنين ويوجد أخصب تربة لنموه فى فرنسا . فقد كان فى باريس جرائد يومية ، مثل لولاترن ، تكايع الغيبات . ولا أنسى مظاهرة هائجة ارتجت لها لندن وسائر العواصم الأوروبية حوالى ١٩١٠ . فقد حدث أن رجلا من هؤلاء العقلين يدعى فرانسيسكو فيرير أعدم فى أسبانيا . وكانت التهمة التى حوكم من أجلها أنه دبر مؤامرة لقلب نظام الحكم من الملكية إلى الجمهورية وتهم أخرى خاصة بالجيش . ولكن التهمة الحقيقية كانت أنه كان ينشر فى أسبانيا المظلمة مؤلفات الأحرار فى أوروبا مثل قولتير وبيتشه

وكوربتكين وروسو وتولستوى وترجم مؤلفات العقليين ، وخاصة ما اتصل منها بنظرية التطور ، إلى اللغة الأسبانية وبيع هذه المؤلفات بأثمان منخفضة حتى تصل إلى العامة . ورأى الكهنة والرجعيون أن هذه المؤلفات خائر سوف تقوض سلطانهم وتلغى امتيازاتهم واحتكاراتهم . فدبروا له تهمة « قلب نظام الحكم عنوة » وأعدموه . وهاجت أوروبا كلها لاعدام هذا الرجل . فكانت مظاهرات في كل مدينة بل في كل قرية . وكانت الخطب النارية في كل ناد ومحفل استنكاراً لهذه الجريمة . وحضرت المظاهرة الكبرى التي سارت مواكبها في لندن وتجمعت أخيراً في ساحة الطرف الأغر حيث أقيمت الخطب من الأحرار والديمقراطيين في التشجيع بالحكومة الأسبانية واستبداد الكنيسة الكاثوليكية . وعقدت اجتماعات كثيرة بعد ذلك في هذا الشأن . ووصلت الأخبار من باريس في مساء ذلك اليوم بأن المظاهرات جمحت وقتل عدد من المتظاهرين الذين حاولوا الهجوم على الكنائس والأحزاب الرجعية . وصدرت الكتب العديدة في شرح الحركة العقلية التي كان يقوم بها فيرير ومحاكمته الجائرة التي انتهت باعدامه . واتضح من هذه المحاكمة أن وكيل النيابة الذي شرح التهمة للمحكمة صرح بأنه لا يعرف من هو تولستوى الذي كان فيرير يتعب وينفق ماله في نشر مؤلفاته باللغة الأسبانية . ولما وثب الطاغية فرانكو إلى الحكم في ١٩٣٧ ، وحارب الديمقراطيين والاشتراكيين ، بمعاونة الكهنة ، وقتلهم ودمر المدن الأسبانية بمساعدة الطيارين الفاشيين من ألمانيا وإيطاليا ، تذكرت فيرير . وتذكرت ما كان يقول الأحرار وقتئذ

عن أسبانيا وهو أن الفاصل بين أوروبا المتعلمة المتمدنة وبين أفريقيا السوداء هو جبال البرانس التي تفصل أيضاً بين فرنسا وأسبانيا . . . وقد أنعشتى هذه المظاهرات وبت ليلتى وأنا أفكر فى هذا الروح البشرى فى مدن أوروبا المتمدنة وقرأها ، هذا الروح الذى انطلق بالسخط واللعنة على الحكومة الأسبانية لأنها أعدت رجلاً أوربياً من أبناء القرن العشرين فى حين هى أصرت على أن تعيش فى القرون المظلمة وأن تكون أفريقية متوحشة . وأخذت أسائل : هل مثل هذه المظاهرات يمكن أن يوجد فى مدن الشرق ؟

وكان من الأغلط التى وقعت فيها أنى آمنت بمذهب النباتيين فامتنعت عن تناول اللحم نحو عام كدت أسوت من الهزال فى نهايته . وكانت المطاعم النباتية فى لندن كثيرة تقدم لزيائنها مختلف الألوان الشبيهة التى تغنى فى الطعم عن اللحم . فلم أجد صعوبة فى الكف عن الوان اللحوم . ولكنى هزلت حتى كدت أسرض .

والتحقت ببعض الكليات لدراسة العلوم المختلفة التى جذبتنى ، مثل المصطلوجية للاستاذ بترى ، ومثل والبيولوجية الجبولوجية والاقتصاد وانغمست فى هذه الدراسات كثيراً .

وعلى الرغم من الشهرة التى تتمتع بها باريس بشأن حرية المرأة فقد وجدت أن المرأة الانجليزية أكثر حرية . والشبان والفتيات يتحابون ويتغازلون جهرة فى الحدائق العامة بل أحياناً فى الشوارع . ولكن الشلل النفسى الذى أحدثته التربية الشرقية فىنا حال دون

استمتعنا نحن المصريين بهذه المسرات في لندن . واحتجت إلى مرانة طويلة قبل أن أجرؤ على المبادأة والسلوك الاستقلالي في الحب . ثم حانت فرصة .

ذلك أني كنت أصطاف في إحدى المدن الصغيرة على الشاطئ^١ الشرقى لانجلترا . فعرفت هناك فتاة إيرلندية في سني أو أكبر قليلا كانت تعمل في التدريس . وكانت تحنق على الانجليز لسلوكلهم الامبراطوري في إيرلندا كما كنت أحنق أنا على احتلالهم لمصر . وتوطدت بيننا صداقة على أساس هذا الحنق . ثم صارت الصداقة حباً فغراماً . واستسلمت لي واستسلمت لها وكنا نقضي ليالينا في غرفة واحدة وكانت من الجمال بحيث تحدث فيمن يجيها أو في بعضهم ذلك العيب الأكبر الذي كان يعمله فرويد بمركب أوديب . وقد استطعت أنا بعد ذلك بعشرين سنة أن أشفي صديقاً عزيزاً إلى من هذا المأزق . ولكني لتعسى في ١٩١٠ كنت أجهل فرويد وأجهل السيكولوجية . وكانت اليزاييث جميلة تمتاز ببشرة غاية في النعومة والصفاء . وكانت مديدة القامة كنت أحس وهي قادمة إلى عن بعد أنها علم يخفق . وكان نشاطها يبدو في حركاتها كأن جسمها وذنها يتفزان . وتناسقنا كلانا في التفكير والعواطف . فكنا نقرأ الجرائد معاً وننطق على مغزى الأخبار .

وعدت إلى لندن وعادت هي إلى مدينتها في وسط انجلترا . ولم تنقطع المراسلة بيننا . وعقد في لندن مؤتمر الشعوب الخضعة . وكان محمد فريد يمثل مصر . وكان دي فاليرا يمثل إيرلندا . فجاءت اليزاييث

وقضينا أياماً في لندن حضرنا فيها اجتماع هذا المؤتمر الذي خطب فيه دى فاليرا باللغة الأارلندية التي لم يفهمها أحد . ولكنه أصر على ذلك كي يثبت حق أمته في ثقافة ولغة مستقلتين . وترجمت خطبته إلى الانجليزية . وكذلك خطب مجد فريد باللغة الفرنسية . ويعد هذه الزيارة القصيرة للندن عادت إلى بلدتها وتأكيد لي عندئذ أن الزواج غير مستطاع لأنى لن أبرأ . وبعثت إليها بذلك مع هدية غالية . وتزوجت هى بعد ذلك ولكنى لم أرها وهى متزوجة .

وقد ملا هذا الاختبار نفسى غم ومرارة ولكنه بعثنى على الاستطلاع والدراسة للشئون الجنسية . فعرفت هافلوك أليس وأوجست فوريل قبل أن أعرف فرويد . بل إن هذا الاستطلاع الجنسي كان سبباً فى استطلاعات ثقافية أخرى عديدة .

وكانت الحركة النسرية على أشدها فى لندن حوالى ١٩١٠ . فكانت مظاهرات النساء للمطالبة بحقوق الانتخاب . وكان بعض هذه المظاهرات عنيفاً تشبك فيه السيدات والفتيات مع رجال البوليس . وكانت زعيمة هذه الحركة سيدة تدعى المسز بانكهيرست وكانت جريئة مقدامة تتخير الكلمات الجارحة عندما تصف رجال الحكومة الذين كانوا يعارضون هذه الحركة . وحضرت أحد هذه الاجتماعات وعجبت للحماسة بين الحاضرات المستمعات وهى حماسة تجلت عن جمع نحو خمسة آلاف جنيه فى بضع دقائق للاتفاق على هذه الحركة .

وكان البيت الانجليزى يمتاز برفاهية لا تعرفها البيوت فى أى قطر آخر فى أوربا . وذلك لارتفاع مستوى المعيشة بين الانجليز بما كانوا

ينهبونه من محصولات الأمم الخضعة في إمبراطوريتهم أو يشترونه رخيصاً من هذه الأمم ويبيعونه غالياً لهم ولغيرهم . وكذلك بما كان يرد إليهم من دخل آخر هو أرباحهم من الشركات التي يؤسسونها في الهند أو مصر أو غيرها . ولذلك كثيراً ما كنت أجد منزل النجار في أحد المصيفات مؤثماً بالرياش التي تعد في مصر فاخرة لا يحصل على مثلها إلا موظف في الدرجة الرابعة .

وانتفعت كثيراً باختلاطى بأعضاء الجمعية الفايبة . وكانوا ، كما قلت ، من الاشتراكيين . ولكنهم كانوا مع ذلك أماسيين في شئون أخرى . وأيما حركة كانت تنتشر في الأدب ، أو نظرية يقول بها العلميون ، أو دعوة إلى بدعة جديدة في الدين أو الفلسفة ، كنا نجد لها من يمثلها أو تمثلها في الجمعية الفايبة . فقد كانت بها اجتماعات لبحث اليوجنية أي هذا العلم الجديد لترقية النسل . كما كان بها اجتماعات أخرى لدرس التطورات الاجتماعية أو الاقتصادية في ألمانيا أو فرنسا . وقد عرفت الأدب الروسي عن طريق هذه الجمعية كما عرفت إبسن . ولا أذكر شو أو ولز وكلاهما كان من أعلام هذه الجمعية .

وكان برنارد شو في تلك السنين في شبابه أحمر اللحية يتعلق به الفاييون ويتكأ كأون حوله ، وكان أول لقائي له في الحديث أنه رأى أتأمل رسماً له على الحائط . فجاءني وقال : ما رأيك في هذا القذف؟ فقلت إن الرسم جميل ولا يعد قذفاً . فلما عرف أني قبطني قال : أنت مونوفيزيت؟

نأربكني السؤال لأنى لم أكن أعرف هذه الكلمة الضخمة . وتبادر
إلى أن الكلمة تتعلق بالطعام النباتى . لأن برنارد شو كان مقروناً
فى ذهنى إلى الطعام النباتى . وكنت قد داعبت الفكرة بأن أقتصر
أنا أيضاً على النبات وانقطعت عن اللحم جملة أشهر . وظننت أن
الخطاب موجه إلينا كأمة لأن كلمة أتم تقال فى الإنجليزية للمفرد
كما للجمع . وأنه قد حسب أننا مثل الهندوكيين تقتصر على الطعام
النباتى . فقلت : لآنحن نأكل اللحم أيضاً فى مصر .

فانفجر بالضحك . وطلب إلى أن أبحث فى المعجم عن «مونوفيزيت»
وبحثت عنها ذلك المساء فوجدت أنها تتعلق بالغيبيات المسيحية . وأن
الأقباط يؤمنون أن طبيعة المسيح البشرية قد اندغمت فى طبيعته
الآلهية . وأن له لذلك طبيعة واحدة أى مونوفيزيت . وأن هذا
المعنى هو النقطة الجوهرية فى الخلاف بيننا وبين الكاثوليك الذين
يعتقدون أن طبيعة المسيح حين كان على الأرض كانت بشرية . وأن
طبيعته الآلهية تبدأ من رفعه إلى السماء بعد صلبه .

وكان برنارد شو فى تلك السنين «الطفل المدلل» فى الصحافة
والأدب . وكانت دراماته قد بدأت تغزو المسارح وأفكاره تستحيل
إلى مذاهب تتشيع لها أو عليها الجماعات المفكرة . وقد غزا برنارد شو
عصره وأشعل نوراً ، كثيراً ما كان يستحيل إلى نار ، حين كان يجد
جوراً إمبراطورياً أو ظلماً استعراضية أو تعصبية .

وقد كانت لندن حوالى ١٩١٠ فى ثورة فكرية على التقاليد التى
كانت تسود الأمة فى العصر الفكتورى أى القرن التاسع عشر . فقد

اختمرت في هذا القرن جملة خائتر في الاقتصاد والدين والاجتماع .
 واتفق وجودى في لندن في الوقت الذى كانت قد شرعت فيه هذه
 الخائتر تغيير الآراء والعقائد والاتجاهات . وكان أعظم ماتركته في
 نفسى ، الثقافة العامة الانجليزية في ذلك الوقت ، هو الشك في القيم
 والأوزان الأخلاقية والروحية . وقد رأيتى أسير في لندن بلا قبعة
 إحتجاجاً على العرف مع أن الرأس العارى لم يكن وقتئذ مألوفاً كما
 هو في آياسنا . وكان إكبابى على دراسة كتب العقليين دليلاً آخر
 على هذا القلق الذى كان يشيع في الأوساط المتعلمة اليقظة . وزادنى
 قلقاً إختلاطى بأعضاء الجمعية الفابية وكانوا على وجدان بالتغيرات
 الكاسنة والقادمة يضعون أناملهم على نبض الثقافة الأوربية ويتعرفون
 اتجاهاتها . وفي هذا العام (١٩٠٩) ألقت رسالة صغيرة دعوتها «مقدمة
 السبرمان» وأرسلتها إلى المرحوم جرجى زيدان محرر الهلال فطبعها لى
 بعد أن حذف بعض الفقرات الجريئة . وهى تدل القارىء على القلق
 العام لشاب مصرى لم تزد سنه على ٢٠ أو ٢١ سنة . شاب مسته بل
 كوته الثقافة الجديدة وقطعت مايينه وبين الماضى وسددت نظره إلى
 بصيص من نور المستقبل .

وقد نفذت هذه الرسالة ولم أعد طبعها . ولكنى ، بعد تنقيحات
 أو تلطيفات ، جعلتها فصلاً من فصول كتابى « اليوم والغد » .
 ولا أنسى هنا أن أذكر المتحف البريطانى . فان هذا المتحف ،
 زيادة على ما فيه من الآثار القديمة التى تحوى مقداراً كبيراً من مخلفات
 القراعنة ، يحتوى أيضاً مكتبة بها نحو أربعة ملايين مجلد . وكنت أتردد

كثيراً على هذه المكتبة . بل لقد قرأت فيها بعض الكتب العربية . وقد ذكرت شيئاً عن الاستعراض اللوني في لندن . ولكن هذا الاستعراض كان مع ذلك ضعيفاً . وكان لا يبدو إلا في بعض البنسيونات أو الفنادق التي كانت ترفض نزول الهنود فيها . وكنا نحن المصريين نعامل أحياناً مثل الهنود . وأحياناً نجد التسامح لأن لونا كان قريباً من لون الأوربيين . أما في الريف الإنجليزي فلم نكن نجد شيئاً يتأتى من هذا الاستعراض .

والريف في إنجلترا هو أجمل ريف في العالم كله ؛ لأن الإنجليزي لا يعنون بالزراعة . فالجبل والسهل ، والبحيرة والغابة ، لاتزال جميعها على عذريتها لم تمسسها سكة المحراث إلا في نبذ صغيرة متباعدة . ولذلك يجد الزائر الجائل في الريف الإنجليزي الطبيعة الساذجة في صميم جبالها . والريف في كل أوروبا يعد مزاراً في الربيع والصيف حين ترعى الحقول وتزهد بقبض الحياة الهاجثة . والقرية الأوربية مبلطة الشوارع جميلة البناء تغسلها الأمطار حتى لتبدو عقب شؤبوب من المطر كأنها صورة مزخرفة بالألوان الزاهية . وكل قرية ، مهما صغرت ، تحتوي الحانة والمطعم والفندق . ولذلك يستطيع الزائر أن يجد الراحة أسبوعاً أو أكثر . وقد انتفعت كثيراً واستغلت هذه الحضارة القروية في تأملات ومقارنات مع ريفنا الكالح الأسيف الذي لا يزال يعيش الفلاحون في قراه في جحور تحطم صحتهم وتجرى المستبدين على انتهاك كرامتهم . وأذكر أني في بعض زياراتي للريف البريطاني قعدت على العشب أتحدث إلى فلاح مسن . وكان ، قريباً منا ، حقل قد نمت فيه الذرة

وزكت إرتفاعاً وغصوناً. فسألت الفلاح : هل تشوون الذرة كما تفعل؟ فلم يفهم سؤالي . وعرفت أن الذرة تنمو في إنجلترا ولكنها لا تثمر . أى أن الكوز أو القنديل لا يتكون . لأن القمة التى تتألف من اللقاح الذكري لا تتم . وإنما تزرع الذرة كي تصير مرعى فقط للبهائم . وبرودة المناخ هى التى تمنع نمو الذرة إلى النضج .

وإيجار الغدان لم يكن يزيد على نصف جنيه أو جنيه . فمن يملك مئة فدان فى إنجلترا لا يحصل إلا على خمسين أو مئة جنيه فى السنة إيجاراً . أما الفلاح المستأجر فيحصل على نحو عشرة جنيهات ربحاً من الغدان . وهذا عكس ما نجد فى مصر حيث أكثر الربح لذلك وأقله بل أقله جداً للمستأجر .

وزرت فلاحاً آخر فى بيته . فوجدته يربى نحو خمسين عجلاً يشتريها وهى فى الأسبوع الثالث من عمرها . ثم يرضعها فى بيته بالبرازة . أى أنه كان يبيع قشدة اللبن ثم يأخذ الخيض ويخلطه بزيت القطن ويرضع بمخلوطهما هذه العجول . فيكسب ثمن القشدة أو الزبدة فى حين أن العجل يجود فى الزيت عوضاً عنهما . فإذا فطم العجل حبس حتى لا يكاد يتحرك ثم يسمن بالغذاء المركز من كسب القطن وبعض البروتينات . والعجل المسمن فى إنجلترا يبلغ وزنه أحياناً طناً كاملاً (٢٢ قنطاراً) ويبيع لحمه بأعلى مما يبيع الضأن .

وقد كان تأملى للمزارع الأوربية يعثنى على الاكتاب كلما فكرت فى فلاحينا فى مصر؛ لأن المقارنة بين القرية الأوربية والقرية المصرية إتمامى مقارنة بين النعيم والجحيم أو بين الجمال والقبح أو بين الكرامة والمهانة .

تريقتى الأدبية

عندما أرجع بذا كرتى إلى البذور والجذور التى نشأت ونبئت منها ثقافتى الحاضرة أجد أنها تكاد جميعها تعود إلى الفترة الواقعة بين ١٩٠٧ و ١٩١١ حين كنت فى لندن . فى تلك الفترة كانت هناك طائفة من المذاهب والنظريات ، فى الأدب والعالم ، « تتجرثم » . وقد كان من حظى الحسن أن أدركت الجرائم الأولى لهذه الحركات . ومع أنى الآن مشرف على الستين ، فانى أجد ، بالاستبطان ذهنى ، أن ما أعرفه أو أعتقده أو أدعو إليه من نظريات أو مذاهب فى ١٩٤٦ إنما أخذت جرائمه الأولى فى تلك الفترة . ولم تكن الزيادة فى السنين بعد ذلك سوى زيادة فى نمو هذه النظريات والمذاهب أو التوسع فيها أو التفرع منها . وظنى أن هذا هو المؤلف أيضاً فى سير التكشف الثماتى عند غيرى . أى إننا لا نكاد بعد العشرين نجد شيئاً ، وإنما قصارانا أن ندافع عما أحببنا أو تلقينا راغبين ، ثم يعثنا الحب إلى النمو بالتوسع والتعمق . وعندى البرهان على ذلك . فانى فى ١٩٠٩ ألقت رسالة صغيرة تبلغ نحو ٣ صفحات بعنوان « مقدمة السبرمان » ، حين أعود إليها الآن ، أجد فيها جميع الجرائم الفكرية التى لا تزال تشغل ذهنى . وهى تمتاز بفجاجة فى الأسلوب مع لجور فى التفكير .

إذا كانت تدل على عقل خام ناشئ ، فهي أيضاً تدل على عقل مستطلع واثب .

واندجحت في المجتمع الانجليزي . وأعنى بنعت « الجديد » تلك الطوائف والجماعات المستطلعة المتسائلة في « الجمعية الغاية » و « جمعية العقلين » وأمثالها . وكان كل شيء في تلك السنين في البوتقة في سبيل التغير والتطور . فقد كان حزب الأحرار في مجده يقوده كاسيل بانرمان واسكرويت ولويد جورج . ولكن هذا المجد كان يحمل غبار القرن التاسع عشر . وتراكم هذا الغبار حتى لم يستطع الأحرار أن ينفضوه عنهم . فلم تمض عليهم بعد ذلك نحو عشر سنوات حتى خنقهم فلم نعد نسمع عن الأحرار بعد الحرب الكوكبية الأولى . وكانت جرائم الاشتراكية تختمر في كل أوروبا ، وكان هؤلاء الأحرار أنفسهم عجيتها التي تمت فيها هذه الجرائم .

ولم يمض على عام في لندن حتى وجدتني ألقه نحو اليسار أي نحو الاشتراكية . ولم يكن هذا الوجدان سياسياً فقط ، فقد وجدتني اشتراكياً قبل أن أقرأ ماركس لقوة الجذب التي كانت عند الاشتراكيين في ناحيتي العلم والأدب . ذلك أن هؤلاء المجددين في السياسة كانوا أيضاً مجددين في العلم والأدب ، يؤمنون بمذهب داروين ، ويؤلفون جمعيات لليوجينية أي إصلاح النسل ، كما كانوا يقرأون الأدب الروسي ونيتشه وإيسن . ولذلك أدركتني الاشتراكية في تلك الأيام عن طريق الأدب أكثر مما أدركتني عن طريق السياسة . وكان « التطور » لا يزال مذهباً أكثر مما كان نظرية علمية . ولذلك أنفتق « العقليون » مجهوداً

كبيراً في المقاومة السلبية للكتب المقدسة بدلا من أن يتيروا أو يشرحوا حقائق التطور .

وأذكر أنه في تلك السنوات طغى الأدب الروسي على لندن . فلم يكن هناك حديث أو سمر إلا عن جوركي أو دوستوفسكي وأمثالهما . وأذكر أني حضرت محاضرة عن تولستوي فوجدت الحاضرين المستمعين كأنهم في معبد خاشعين . وكانت المحاضرة أيضاً أشبه بعظة دينية . وكان هذا طبعاً من الانحرافات في تفسير تولستوي ؛ لأن مقام تولستوي في الفن كان أكبر جداً من تلك التطوحات الوعظية التي شطح فيها . وأذكر أن أحد الناشرين عرض قصة صغيرة لأحد الروس فسارت في المكتبات كأنها حريق ، فلم يكن أحد يتكلم إلا عنها . وهذا يدل القارىء على المكانة العظمى التي احتلها أدباء الروس في لندن في تلك الفترة ، حتى أشار إليهم برنارد شو مرة بقوله « العمالقة » . ولما عدت إلى القاهرة شرعت ، بهذا التأثير ، أترجم « الجريمة والعقاب » لدستوفسكي وطبعت منها على نفقتي جزءاً يبلغ نحو ١٢٠ صفحة . ولكنني أخفقت في نشره حتى بعث هذا الجزء بسعر مائة واحد للنسخة . وثبطني هذا عن المضي في الترجمة لسائر القصة . ولكنني دأبت في الحديث والكتابة عن الأدباء الروس ، حتى صار كثير من القراء الذين كانوا يجهلونهم على وجدان بهم .

وفي تلك السنوات عرفت إبسن ونيشيه و برنارد شو وولز . وأذكر أني قضيت ليلة كاملة إلى الصباح وأنا أقرأ نيتشه وقد أخذني سحر أسلوبه وجرأة تفكيره . ونيشه لا يخطو ولا يعدو ، ولكنه يقتحم

ويشب . ولكنى عندما أرجع أيضاً إلى الاستبطان الذهني أجد أنى لم أتأثر كثيراً به أو أن أثره كان مقصوراً على سنوات ، على الرغم من الحماسة التي كنت ألقى بها مؤلفاته وأحفظ بها عباراته . فأنا الآن خلواً أو كاخلواً من المركبات الذهنية التي أستطيع أن أعزوها إلى نيتشه ولكنه غرس في الأقدام الفلسفي وحطم عندي ما كان باقياً من قيود غيبية . أما مؤلفات داروين مثلاً فكنت أقرؤها في عناء التفكير حتى كنت أترك الكتاب أياماً أو أسابيع ثم أعود إليه يحفزني إحساس الواجب لا الرغبة ؛ فلم يكن له في صدري حماسة . ومع ذلك هو الباقي الآن في كياني الثقافي . وكتابي « نظرية التطور وأصل الانسان » هو إحدى ثمرات داروين . ولا تزال هذه النظرية تفتق في خلاياي الذهنية ، وتحملني على توسع وتعمق في التفكير البيولوجي والسيكولوجي والاجتماعي .

وهنريك إبسن يعد الآن من الكتاب القدامى ، ولكنه كان جديداً في تلك الفترة بين ١٩٠٧ و ١٩١١ . وكان وقعه في نفسي كبيراً ، أكبر مما كان في نفوس قرائه الأوربيين . وذلك لأنه كان يجدد في مجتمع كنت أعدّه أنا جديداً بالمقارنة إلى مجتمعنا المصري الجامد؛ إذ كنت أدمن التفكير في حال المرأة المصرية والمرأة الأوربية ، وكنت كثير الإعجاب بحرية الثانية في باريس ولندن وأنها تملك جزءاً كبيراً من مصيرها وتقرره . ولكن درامة إبسن « بيت اللعبة » أو « بيت عروس » كشفت لي حقائق ، وبسطت لي آفاقاً جديدة ؛ لأن ما كنت أتوهمه عن حرية المرأة أو استقلالها في أوربا إنما هو في نظر إبسن لم يكن سوى

طلاء سطحي يخفي حقيقة الاستعباد القائمة ؛ لأن المرأة لا تجد من المجتمع سوى التدليل لأنها لعبة الرجل أو هي كالعروس من الخشب يلعب بها الأطفال ، أطفال الرجال الذين لا يطبقون المساواة الحقيقية بينهم وبين النساء . ومغزى الدراما أن المرأة يجب أن ترتفع من الأنثوية إلى الانسانية ؛ ويجب أن ترفض التدليل وأن تربي نفسها وتكسب الاختبارات في هذه الدنيا ؛ لأنها إنسان قبل أن تكون زوجة أو أمًا . وعندئذ نجابت عن ذهني غشاوة ؛ واتضح لي أن المرأة الأوربية كالمرأة الشرقية سواء ، وأن ما بينهما من فرق إنما هو طلاء الحضارة فقط . أو هو فقط فرق الدرجة في الاستعباد . وهو استعباد بعيد أحياناً عن أية رحمة أو رأفة ؛ لأن المرأة التي تعمل كالرجل لا تحصل على أجره . وفي أقطار أوربية كثيرة كانت لا تحصل على ميراثه . وكانت الجامعات ترفض قبولها طالبة ، كما كانت ترفض الدولة قبولها ناخبة أو مرشحة لعضوية المجالس البرلمانية .

وليس لهذه الدراما قيمة في أوروبا الآن ؛ لأن الحال تغيرت في ١٩٤٦ عما كانت عليه في ١٩١٠ ، بل تغيرت كثيراً جداً . وكثير من هذا التغيير يعزى إلى هذه الدراما التي أهابت بالمرأة أن تكون إنساناً له شخصيته وسكانته في هذه الدنيا قبل أن تكون أُنثى أو زوجة لها مكاتها في البيت .

وكنت في تلك السنوات لا أعرف عن المسرح إلا ما كان يخرجنا لنا سلامة حجازي من التمثيل الميلودرامي والأغاني الغرامية . فكانت الدراما عندي هوأً فنياً لا أكثر . ولكن إبسن جعل الدراما اجتماعية

بل أحياناً فلسفية . وقرأته في انتباه وقلقي وتفكير كثير . وأصبحت
أصد ، في اشتمزاز ذهني ، عن المرأة المؤنثة المغناج ، وأحترم المرأة
العاملة الكسبية التي تصر على أن تحيا وأن تعرف وتختبر . وعندى
أن إبسن كان محورياً في ثقافتى ؛ لأن دراساته بعثتني على دراسات
أخرى متصلة بالموضوعات التي عالجها هو في أسلوبه الدرامى .

وإذا كانت أوروبا قد أهملت إبسن الآن فذلك لأنها تعلمته وعملت
بجميع مبادئه . ويعد برنارد شو إحدى ثمرات إبسن . فان جميع دراساته
اجتماعية وفلسفية . ولكنه يختلف عن معلمه من حيث عجزه عن
الكال الفنى الذى استطاع إبسن أن يرتفع إليه .

وقد تأثرت كثيراً ببرنارد شو . وعندما أسألت : لماذا لم أؤلف
كتاباً عنه إلى الآن ؟ أعود بذاكرتى إلى محاولات فى هذا التأليف
كان يصدنى عن المضى فيها أنى أعرف الكثير عن برنارد شو . فصعوبتى
هى صعوبة خراش ، بل هى أكثر . وهى أنى زيادة على أنى سأضطر
إلى الاختيار مع الاسهاب والتفصيل فانى أيضاً سوف أواجه من المبادئ
والأفكار والفلسفات ما أحتاج إلى تفصيله مما لا يطيقه قارى رجمى
أو جامد لم تتفتح مسام ذهنه للتفكير العصرى بل المستقبلى . فان
برنارد شو يفكر للمستقبل . وهو علمى الذهن يفكر فى آفاق فلسفية
بلغة أدبية . وقد أمضيت من حياتى نحو أربعين سنة وأنا أتعلم على يدي
هذا الحكيم الذى أعد حياته فى عصرنا نوراً وناراً لجميع الذين يعرفونه
ولا أظن أنه فاتنى شئ مما كتب . وكتاباته هى إلى الآن هورمونات
ذهنية توقظنى وتحركنى .

والكاتب ينفعنا إما بما يبسط لنا من معارف ، وإما بما يرسد لنا من خطط واتجاهات . و برنارد شو من النوع الثانى ؛ لأنه يسدد العقول الزائغة نحو أهداف بشرية جديدة ، ويعبئنا على الاستطلاع العلمى للعالم وللإنسان والمستقبل . والنزعة العلمى فى برنارد شو قوية جداً ، ولكنها ممزوجة بترعة فنية أيضاً . ولذلك نشعر كأنه يحس بعقله ويفكر بقلبه . وهو أحياناً يسب ويهاتر ويهدد بالمعانى العلمى . ومشاجرته مع داروين بشأن « تنازع البقاء » هى مشاجرة فلسفية سيتوقف على الاجابة عليها ، وخاصة بعد اختراع القنبلة الذرية ، مصير الانسان . إذ ماذا يكون مصير ٩٩ فى المئة من البشر إذا ثبت أن الحق للقوة ، مهما يكن نوع هذه القوة ؟ أو إذا كان معنى تنازع البقاء هو بقاء الأصلح كما نراه فى عصرنا ؟

لقد رد برنارد شو على داروين بأن ذكره بأن المسيح لم يكن صالحاً للبقاء . . . فى النظام البيولوجى الذى وضعه داروين للتطور .

وبرنارد شو مجاهد . وأدبه هو الأدب الجهادى ، أو كما يسميه هو الأدب الصحفى ؛ لأنه يبحث الموم والاهتمامات العصرية بالذهن العلمى فى ضوء المستقبل . وقد أحدث لى مركبات أو عقداً أدبية وفنية ذهنية كثيرة فى حياق الثقافية لا تزال إلى الآن مشار التفكير والتأمل . وأحياناً حين أنأمل الكاتب العظيم أجد أنه عظيم من حيث إنه قادر على أن يترك لنا عقدة ذهنية ، فى المعنى الحسن ، تترتب عليها أفكار واهتمامات متصلة متشابكة نامية . فقد ترك إبسن فى ذهنى عقدة ذهنية هى « الشخصية الاستقلالية » التى هى الواجب الأول على

كل إنسان . وترك برنارد شو عندي طائفة من العقد ربما كان أهمها هو النظر البيولوجي للإنسان ، وأن التطور المستقبلي للبشر يجب أن يكون له المقام الأول عند أية حكومة متمدنة . بل هو يقترح أن تكون لكل دولة وزارة خاصة بالتطور غايتها بحث الوسائل كي تتطور الأمة . ولا عبرة بأن تكون له أخطاء وأوهام . إذ ماذا نبألى ، كما

يقول نيتشه ، أن يكون في رأس الفكر بعض الديدان ؟

ولم أر رؤياً واحدة في برنارد شو ، بل رأيت ثلاثاً أو أربعاً . والرؤيا الأولى هي الاشتراكية الانسانية . وهي بالطبع لا تختلف عن اشتراكية ماركس العلمية . ولكن برنارد شو ، لأنه أديب وفيلسوف وفنان ، جعل المذهب الاشتراكي مذهباً إنسانياً ، ودفع بالخزى كل من يجهل الاشتراكية أو لا يسعى لها . وهو الذى استطاع أن ينشر هذا المذهب بين الأثرياء ؛ لأنه أثبت لهم أن أسوأهم لا تساوى همومهم وما يتعرضون له من قلق ، وأن الاشتراكية إنما جاءت لتغنى وتزبد لا لتفقر وتنقص . والرؤيا الثانية هي ديانة برنارد شو ، فإن مشاجرته مع داروين ينتهى مغزاها إلى أنها مشاجرة دينية . إذ كيف يمكن أن نسكن إلى كون يكون محوره ومغزاه تنازع البقاء وبقاء الأصلح ؟ وقد قلت إن من الموانع التى حالت دون تأليفى عن برنارد شو أن أخشى الأذهان الجامدة التى لم تتسع مسامها الذهنية للآراء الجديدة . وهنا أيضاً أقول إنى عاجز عن بعض الاسهاب أو التفصيل لديانة برنارد شو . وقصاراى أن أقول إنها ديانتى وإن عمودها القبرى هو التطور الذى يعد فيها أسلوباً وهدفاً .

أما الرؤيا الثالثة فهي الايمان بالعلم بل السلوك العلمى ولكن مع الدين ، وعلّم بلا دين هو القبلة الذرية وبقاء الأصلاح كما يفهم هذا الأصلاح أو يتخيله تجار منشستر ونيويورك . ولكن العلم مع الدين هو السعادة البشرية والتطور إلى السبرمان .

وبرنارد شو مثل جيته قد جعل من حياته كتاباً آخر ، بل ربما كان هذا الكتاب أحسن مؤلفاته . فان الناس يقرأون حياته ويستوحون منها القدوة والصلاح . فهو الآن في التسعين ، وقد عاش منها ستين سنة وهو نباتى . وهو يسير كل يوم ساعياً على قدميه نحو سبعة كيلومترات ويقرأ ويكتب كما لو كان في الثلاثين أو العشرين . وهو يخفف من ألم الحقائق بالفكاهة ، تلك الفكاهة الجدية النارية التي تخرج منه كأنها تشنجات الحكمة أو وخزات الفلسفة .

ومن عجب أن هذا الرجل ، الذى نسترشد بأرائه وتستشير برؤاه أحسن الطبقات المثقفة فى العالم ، هذا الرجل لم يتعلم قط فى مدرسة أو جامعة . وقصارى ما حصل عليه تعاليم أيتز فى السنتين الأولى والثانية من المدرسة الابتدائية . ولكن إذا عد هذا تقصيراً أو قصوراً فى النظام التعليمى وبرايمه ، فإنه يجب علينا أن نعد ارتقاء برنارد شو إلى القمة فى الثقافة العصرية برهاناً على أن الثقافة السامية قد أصبحت مشاعة بين الجمهور ، بحيث إذا توافر الذكاء والعناية استطاع أى فرد منه أن يصل ، من الكتب المطبوعة ، إلى أرقى ما يستطيع المتعلم فى الجامعة بل أكثر . وهذا مالا يمكن أن يقال فى قطر مثل مصر . وإنما يقال مع التأكيد عن فرنسا أو بريطانيا أو الولايات المتحدة ؛ لأن

الثقافة شائعة تفشوفى كل مكان بكل طرزها الابتدائى والمتوسط والعالى .
ولذلك سرعان ما يتعلم الأعمى أو من هو فى مقامه ويتسلىق
إلى القمم .

وهناك شخصية فذة أخرى كانت محورية توجيهية فى حياتى هى
شخصية ه. ج. ولز. وطنى أنه الآن (١٩٤٦) فى مرض من الموت. وكل
من شو وولز يبحثان العالم وكأنهما يشرفان عليه كما يشرف العمدة فى
ألفة ومعرفة على قريته . ولكن بينهما مع ذلك فرقا ؛ فان شو يتجاوز
الأعماق والآفاق إلى ما وراءها . وولز يتعمق ولكنه لا ينظر إلى
ما وراء الآفاق . يعيش على الأرض فى حين يعيش شو فى السماء ،
حتى لنحس ونحن نقرأ ولز أننا نختنق بهواء المدينة ولو أننا نتحدث إلى
رجل يعرف كل ما فيها ، ولكننا نحس حين نقرأ شو أننا نتنسم أوزون
البحر المعقم . وكلاهما طائر ، ولكن ولز يدرج وقلما يخلق . أما شو
فدأبه الطيران والتحليق .

والمغزى فى شو أن الانسان سيتغير ، جسما ونفسا ؛ لأن التطور
يقضى بذلك . ورسالته هى أن يبعث وجدان التطور فى قرائه .

ولكن المغزى فى ولز أن المجتمع سيتغير ، فى نظمته وأخلاقه ؛
لأن الآلات قد أحدثت قوات اقتصادية جديدة سوف تضطر أم العالم
إلى أن تكون أمة واحدة . ورسالته هى أن يبعث فى قرائه وجدانا
هو أن هذا العالم قريتنا الكبرى .

وولز هو بلا شك الأب الروحى للعالم الجديد ؛ فانه يدعو إلى
لغة واحدة وثقافة واحدة . بل لقد ألف فى شرح الطرق التى يجب

أن تتخذ لإيجاد موسوعة عالمية يتحد فيها أبناء هذا الكوكب في آراءه واتجاهاته نحو الخير والحضارة . وله ثلاثة مؤلفات تدل على اتجاهه العالمي . أولها « خلاصة التاريخ » وقد ألفه عقب الحرب الكبرى الأولى حين كانت عبارة « الحرب لانهاء الحرب » تجري على الألسنة وتوحى الخيالات الزاهية بشأن اتحاد العالم . وهذا الكتاب هو محاولة نيرة خيرة غايتها أن نفهم أن الحضارة القائمة هي مجهود البشر جميعهم . وأن هذه الأمم الكثيرة المختلفة إنما هي أمة واحدة ، أو يجب أن تكون كذلك . وكتابه الثاني : « علم الحياة » هو دعوة إلى النظر العلمي لهذه الدنيا وسكانها من الأحياء . وهي دعوة دينية علمية . وكتابه الثالث : « أعمال البشر وثروتهم وسعادتهم » هو بحث في حاضر البشر وطاقتهم لحضارة قادمة .

وقد كان أثر وولز عندى نفسياً أكثر مما كان ذهنياً . أى إنه أكسبني مزاجاً عالمياً يكاد يكون مساوياً للحاسة الوطنية ، فان اهتمامى بالحركة الوطنية مثلاً فى الهند يحرك عاطفتى ويشير انفعالى كالحركة الوطنية فى مصر . وكنوز أفريقيا من الحيوان تشغل ذهنى وتثير غضبى عند ما أقرأ عن عبث الصيادين فى الغابات ، كما تشغل ذهنى وتثير غضبى سياسة الانجليز فى زراعة السودان أو ضبط مياه النيل . بل كسبت من ولز مزاج التساؤل والاستطلاع والتوسع الثقافى فى العلم والأدب والفن .

وقد كان اهتمامى إلى شو وولز عن طريق الجمعية الغائية حوالى سنة ١٩٠٩ . ولكنى واليت اتصالى بهذين الكاتبين إلى وقتنا هذا .

وهما يدرسان السياسة العالمية على آفاقها العالية . ومفتاح دراستهما هو الاشتراكية والتطور .

وفي الفترة بين ١٩٠٧ و ١٩١١ كان إبسن وشو وولز عالقين بقلبي برسبون لى معالم دراساتي في المستقبل . ولكن كان هناك مؤلف آخر تسلط فترة قصيرة على ذهني ، وكان تسلطه نارياً ثم عاد تحريرياً ، أعنى به نييتشه . فقد التهمت مؤلفاته في حماسة ولذة فعصفت لى . وكان ظني وقتئذ أنه فتح لى أبواباً كانت مغلقة من قبل . ولكن الحقيقة أنى كنت مأخوذاً بسحره فى الأسلوب وجرأته فى التفكير ، وهما سحر وجرأة يستهويان الشباب . وهو يؤلف النثر وكأنه يقرض الشعر ، ويفكر وكأنه يقتحم . وانتفعت كثيراً بتحليله للأخلاق . ولكن هذا التحليل بالطبع فقد قيمته بعد أن عرفت التحليل الماركسى ، وإن كان كلاهما ينتهى إلى أن الأخلاق السائدة هى أخلاق السائدين . ولكن ماركس وصل إلى هذه النتيجة بالتحليل الاقتصادى للمجتمع على حين وصل إليها نييتشه بالتحليل التاريخى اللغوى . أما أخلاق الأقوياء التى دعا إليها نييتشه وجعل منها ديانة جديدة يجب أن يبشر بها الفيلسوف الجديد فقد استهوتنى سنوات ، بل انحزت إليها وآمنت بها ، فيما يشبه الحزبية الفلسفية ، بتأييد من نظرية التطور حين استسلمت لتنازع البقاء وبقاء الأصلح . ولكن رويداً رويداً تفهقت نييتشه من وجداني وتغير عندى مغزى التطور بل تطورت عندى نظرية التطور ؛ فلم يعد نابليون هو السبرمان ، ولم يكن للامبراطوريات مغزى التفوق البيولوجى الذى كاد نييتشه يوهنى أنه كذلك .

وعرفت بعد ذلك ماركس وجيته وفرويد . عرفتهم عن سبيل تلك المركبات أو العقد الذهنية التي أحدثها لى شو وولز وإيسن وداروين .

وفي تلك السنوات أيضاً كان في لندن مجلات أسبوعية أدبية كثيرة تختص بدراسة الأدب الانجليزي والأوربي . وكانت « ذى أثنيوم » ثم « ذى أكاديمي » أقوى هذه المجلات . وكانت الأولى راقية حاوية موضوعية . أما الثانية فكانت شخصية جدلية ، وكان يحررها اللورد ألفريد دو جلاس صديقي أوسكار وايلد . وكان شاعراً أيقناً ، ولكن تاريخه الماضي وعلاقته الحميمة بأوسكار وايلد كانا يجعلان الجمهور الانجليزي المحافظ يصد عنه ، وكانت مجلته تنزوي في استحياء في المكتبات يسأل عنها طلبها .

وربما نستغرب في مصر أنه ليس عند الانجليز الآن مجلة أسبوعية واحدة للأدب إذ استثنينا الملحق الأدبي للتمس ومجلة جون أو لندن وهي تكتب للعامة . وقد يعد القارئ هذه الحال تأخراً للحركة الأدبية ، ولكنى أعده تقدماً . ذلك أن الأدب انتقل من برجه العاجي ، أدب للأدباء ، إلى الميدان الاجتماعي بل السياسي والاقتصادي . ولذلك فإن المجلات السياسية الانجليزية تعالج الأدب في عناية وخبرة تدلان على أنها تعرف قدره في التفكير والتوجيه . أو قل إن التطور السياسي في أوروبا قد أصبح حاقلاً بالانقلابات والانفجارات ، وإنه جذب إليه جميع الأدباء ، ولذلك صار الأدب مذهبياً يتحزب ويتشعب لآراء معينة في السياسة أو الاجتماع أو الاقتصاد .

وغاية الثقافة بعد ذلك أن نزيد الحياة وجداناً بأن نجعل مشكلات العالم مشكلاتنا الشخصية كأن الحياة تناديننا إلى اليقظة والفهم والجد كلما استولى علينا النعاس والركود . والأدب هو إحدى الوسائل لزيادة هذا الوجدان . وعندى أن الرجل المثقف هو الذى يرتفع وجدانه الشخصى إلى الوجدان العالمى . ولا يكون هذا إلا بالانغماس فى المشكلات البشرية العالمية .

وهذا هو ما يجب أن يكون ؛ لأن الأدب للأدب هو الأدب فى الخواء . وقد يقال حسب الأدب أن يكون إنسانياً . ولكن كيف يكون كذلك إذا لم يشترك فى المشكلات الانسانية الحاضرة : السياسة والاقتصاد والاجتماع ؟

ووجدت من هذه الحركات الأدبية فى تلك السنوات توجيهاً لى وتربية . وكثير من مؤلفاتى ، إن لم يكن جميعها ، اتجهت فيها هذه الوجهة الاجتماعية ، حتى صرت أوصف بآنى « كاتب اجتماعى » . وكان هؤلاء الواصفين أرادوا أن يميزوا بينى وبين الأدباء الذين ما زالوا يفصلون بين الأدب وبين الاجتماع . ولكنى ، مع ذلك ، أجد فرقاً أساسياً آخر بينى وبين بعض الأدباء فى مصر ، هو أنى أمارس طرازاً من البلاغة يمارسون هم غيره . ذلك أن طرازى أوروبى وطرازهم عربى . وقد حملنى هذا الفرق أن أولف كتابى « اللغة العربية والبلاغة العصرية » ؛ لأن بلاغتنا التقليدية لا تلابس حضارتنا العصرية ، وقد وجدت فيها عجزاً عن التعبير لشئون عصرنا ، فاخترت أسلوباً آخر للتعبير الذى يجمع بين الفن والاقتصاد ، كما يكون على وجدان بقيمة

التفكير ثم التعبير العلمى . فان معاجمنا العربية التى ورثناها عن الأدب العربى نقول مثلاً إن الطب هو السحر . ولكننا فى القرن العشرين نقول إن السحر هو الخرافة . وإن الطب قد صار علماً تجريبياً اجتماعياً بيولوجياً . ويجب ، لهذا السبب ، أن تلابس البلاغة العصرية عند الكاتب العصرى ، هذا الطب الجديد فتكون هى أيضاً علماً تجريبياً اجتماعياً بيولوجياً . ويكلمة أخرى أقول : إن البلاغة ، كاللغة ، اجتماعية . أى إنها تخدم المجتمع وتلابسه . فاذا تغير المجتمع وجب أن تتغير البلاغة . ومجتمع القرن العشرين يحتاج إلى بلاغة القرن العشرين ، بلاغة العلم والاجتماع الجديدين لا بلاغة العباسيين ولا بلاغة الأمويين .

تريقتى العلمية

لما تركت مصر إلى فرنسا في سنة ١٩٠٧ كان « التطور » من مركباتى الذهنية البارزة ، بل المركب الأول . حتى إنى حين هبطت باريس جمعت طائفة من الكتب التى تعالج هذا الموضوع ، ولكنى لم أستطع فهمها وقتئذ ؛ لأنى أسأت الاختيار فلم أقتن الكتب الابتدائية أو بالأحرى لم أجدها . فلما قصدت إلى لندن وجدت العشرات من هذه الكتب الابتدائية . وكانت جمعية « العقليين » تنشرها وتبيعها بأثمان التراب بسعر ٢٥ مليا لكل كتاب . فأكبت عليها فى دراسة مباشرة ، مع استخراج الخلاصات وكتابة التعليقات . وقرأت كتاب داروين « أصل الأنواع » . وليس فى هذا الكتاب شئ يشق على الفهم . ولكنه يحتاج إلى التأمل الكثير . وداروين بعيد كل البعد عن التعبير المسرحى ؛ إذ هو متواضع معتدل يكتب فى حذر كأنه يخشى أن يؤمن القارى بكل ما يقول . وهو الضد لنيتشه فى الأسلوب . فان نيتشه نارى سماوى . أما داروين فأرضى طبيى . وأسلوب نيتشه عاطفى ذائق حتى حين يهتدى إلى الحقائق الموضوعية . أما داروين فيكتب عن وجدان وتعقل ؛ حتى لتحس أنه ينفذ عن نفسه عاطفته وذاتيته كما ينفذ أحدا الغبار عن شخصه .

وليس شك أن حبي لداروين وتحميزي لنظرية التطور ، منذ نشأتني الثقافية ، قد تركا أثرهما في أسلوبى الكتابي . فقد قيل إن الأسلوب يدل على الجانب الأخلاقي للمؤلف بل يكشف عنه . أى يدل على الاتجاه التفكيرى وإيثار بعض القيم على بعض . وأنا أؤثر أسلوب داروين : أسلوب المنطق الصارم والحذر والاعتدال على أى أسلوب آخر يوصف بأنه « أدبى » . وكثيراً ما وصفنى الكتاب فى مصر بأنى لست « أديباً » ؛ لأنهم لا يجدون عندى تلك الزخارف والتزاويق المألوفة فى غيرى من الكتاب . ومع ذلك فانى لا أنكر سحر الأسلوب العاطفى . ولكنى إذا كنت ألتذ السحر أحياناً وأستمع بما فيه من مهارة فانى أؤثر عليه أسلوب التعقل والوجدان . وأذكر أنى حين قرأت « من الأعماق » تأليف أوسكار وايلد أعجبت بسحره . حتى إنى عندما بلغت الصفحة الأخيرة عدت فوراً إلى الصفحة الأولى أقرؤه ثانية كأنى أستعيد لحناً جميلاً وأنغاماً رائعة . ولكنه لم يترك فى رأسى مركبات ذهنية كتلك التى تركها « أصل الأنواع » لداروين . فقد غيرنى داروين . أما أوسكار وايلد وجون روسكين وكارليل من الكتاب الذاتيين فقد نسيتهم ؛ لأنهم جميعاً بعيدون عن الحقائق الموضوعية . وحين أقرؤهم الآن أشعر أنهم يخطبون أو يصرخون أو يتفصحون . فأجد اللذة العابرة فى أسلوبهم ولكنى أحس أنهم ليسوا مفكرين أساسيين . والمفكر الأساسى عندى هو داروين الذى يتحدث فى اعتدال وحذر . وأسلوبه هو الأسلوب الرصين . وأقرب الناس إليه فى هذا الأسلوب هو برنارد شو . وقد سبق أن قلت إن أحسن ما تقيس به الكاتب أن تعرف

مقدار ما تركه لنا من المركبات الذهنية ؛ لأنه على قدر هذه المركبات يكون تفكيره محورياً أو بذرياً ، أى إننا لا نأخذ منه المعرفة الجامدة فقط ، بل نأخذ المعرفة النامية التي تنمو وتتسع في الخلايا الرمادية من المخ فتتركنا ونحن نفكر ونشتبك في اشتباكات جديدة لا تفتأ تنبهنا إلى توسع وتعمق فإيناع . ومنذ ١٩٠٨ حين قرأت « أصل الأنواع » وأنا في هذا التوسع والتعمق . فقد درست البيولوجية والجيولوجية بل سيكولوجية فرويد بحافز من داروين . كما أن داروين كان السبيل إلى التعرف إلى هيربرت سبنسر . وكان داروين يصفه بأنه « فيلسوف التطور » والحق أن سبنسر هو المسئول عن تعميم هذه النظرية ونقلها إلى المجتمع ، ولا عبرة بأنه ارتكب أخطاء كثيرة في التفاصيل . فان الأخطاء أحياناً قد تكون منيرة مثل الاصابات ؛ لأنها تفتح كوة على ناحية لم تكن مفتوحة من قبل . فاذا كان الناظر إليها قد أخطأ الرؤية ، فان فضله لا يزال عظيماً لأنه فتح الكوة . وهذا هو ما أراه في كثير من المفكرين مثل فرويد وسبنسر بل داروين نفسه . فقد نبهنا فرويد في خطئه عن « مركب أوديب » ، كما نبهنا سبنسر في خطئه عن وراثية الصفات المكتسبة ، وكذلك نبهنا داروين في خطئه عن تنازع البقاء . وكل هذه الأخطاء كانت كوات جعلتنا نفكر ونبحث ؛ لأنها فتحت لنا آفاقاً جديدة . وقد انتقلنا بها من الميدان البيولوجي إلى ميادين الاجتماع والدين والاقتصاد .

ومن الكتاب البذريين الأساسيين الذين تأثرت بهم ، وما زالت المركبات الذهنية التي خلفوها في خلاياي الحية قائمة بل نامية ،

كارل ماركس . فقد وصلت إليه عن استغراض ضده من كَتَّاب « الانفرادية » الذين يقولون بالمباراة الاقتصادية مثل هربرت سبنسر ، وخرجت منه على احترام له واحتقار لهربرت سبنسر وأسئله . ولكن هذا الاحتقار في هذه النقطة المعينة ، لم يتقص من إكبارى للقوة التفكيرية عند سبنسر . والحق أنها قوة عظيمة جداً . فان نظرتة شاملة وهو فيلسوف أكثر مما هو عالم . ولكنه فيلسوف بعيد عن الغيبيات . وقد احترف هذا الرجل التفكير احترافاً . حتى ليسأم الانسان حين يقرؤه ويكاد يسائل : لماذا هذا الجذ ؟ لماذا يلهث ويعرق ؟ ألا يفكر في إجازة يستريح فيها ؟

والحق أنه لم يفكر في إجازة . وقد أصيب لهذا السبب بانهيار عقلى تألم منه نحو سنتين ، وحتى بعد ذلك كان أحياناً يطلب من ضيوفه ألا يتكلموا بل أن يبقوا في ضيافته أو رفقته صامتين . . .

وفي هذه السنين كدنا ننسى هربرت سبنسر . ولكن كارل ماركس يزداد بمرور السنين قوة بل حياة . فان نظرياته تبها في كل مكان في العالم ، والأزمة العالمية الحاضرة هي أزمة الصراع المنتظر ، أو الوفاق المحتمل ، بين الماركسيين دعاة الانتاج التعاونى وبين الديمقراطيين دعاة المباراة الاقتصادية . ولذلك لا يمكن أحداً أن يصف نفسه بأنه مثقف إذا كان يجهل الماركسية ولو كان يكرهها . لأن الأزمة العالمية هي في صميمها أزمة ماركسية .

وقيمة الماركسية في فهم السياسة العالمية والتطورات الاجتماعية والأخلاقية الحاضرة كبيرة جداً . ولكن لها قيمة أخرى في فهم

التطورات التاريخية . والمتعمق في دراسة ماركس لا يتألم من الشعور بأنه هو ، لا فرويد ، الأساس الصحيح للفهم السيكلوجي . فان ماركس أثبت أن العواطف الاجتماعية ، أي التي نكتسبها من المجتمع ، أكبر قيمة وأبعث على التغير والتطور وأثبت في كياننا مما نسميه العواطف الطبيعية . ولذلك لا يقتصر فضل ماركس على أنه جعل الاقتصاد علماً ، لأن الحقيقة أنه جعل كذلك الأخلاق والاجتماع والسيكولوجية علوماً . ولا يستطيع أحد أن يفهم هذه الثلاثة على حقيقتها الفهم الموضوعي إلا إذا كان ماركسياً .

داروين وماركس ، كلاهما قد غرس في رأسي مركبات ذهنية ، وجعلني أنظر إلى الدنيا وإلى الأحياء في استغراض علمي وتحليل اقتصادي وسيكلوجي . وعندما أستبطن إحساسى الدينى أجد أن يؤرة هذا الاحساس هو « التطور » . وهذا الاحساس الدينى هو فهم وممارسة . فاني أفهم أننا وجميع الأحياء أسرة واحدة بما في ذلك النبات ، وأن الخلية الأولى التي نبض بها طين السواحل قبل نحو ألف مليون سنة هي عنصرنا الأول . وأنا ما زلنا ننبض ونتغير في تجارب لا تنقطع . وأن سنتنا هي لذلك سنة التغير ، وجريمتنا هي لذلك جريمة الجمود . ونحن حين نحمد إنما نكفر بسنة الكون مادة وحياة . ولكن إلى جنب هذا الفهم الدينى يجب أن « تمارس » ممارسة دينية باحترام الحياة أيا كانت والتعرف إلى أشكالها وحماتها من الأميين المستهترين بالطبيعة . هذه الطبيعة التي تكتسب في ذهني قداسة كلما فكرت في غابات أفريقيا أو الهند وما تحوى من تحف الحياة ، أو كلما فكرت

في غياهب المحيط الهادى أو الأطلنطى أو المحيطين القطبيين وما بهما من أحياء يحاول التجاريون ، في غير شرف ، أن يبيدوها بالالحاح عليها في الصيد .

وكذلك لا أقرأ الجريدة اليومية ولا أسمع عن خبر سياسى أو مشروع لقانون جديد إلا وأنظر إليه بالاستغراض الماركسى من حيث دلالاته على النوازع المختلفة التى دفعت إليه ، فى حين أن الذى يجهل الماركسية يتطوح ويتخبط فى تقديرات « شخصية » للممثلين السياسيين أو الحرييين . مع أن هؤلاء ليسوا سوى أدوات تأخذ مكانها فى دورة الآلة الكبرى ، فى حركة المجتمع الاقتصادى . ولذلك أيضاً أصبحت فكرة « البطل » فى التاريخ من الأفكار التى كانت تتقهقر فى وجدانى كلما تقدمت فى التحليل الاقتصادى . ولكن يجب أن أعترف أنها مع تقهقرها لم تتمح ، وأنه لا يزال للشخصية قيمتها فى تفكيرى .

وفرق عظيم ، بل عظيم جداً ، بين شخص قد قرأ ماركس ودرس التفسير الاقتصادى للتاريخ ، وبين آخر يجهله . لأن الأول الذى استاز وجدانه بالحاسة التاريخية التى اكتسبها من ماركس يجد فى أخبار الجريدة اليومية من المعنى والمعزى ما لا يجده الثانى الذى يحسب أن الحوادث التافهة والخطيرة ، والاتجاهات السياسية ، والتطور والثورة والحرب والسلام ، كلها أشياء تجري جزافاً .

ويأتى فرويد ، بعد داروين وماركس ، فى إيجاد المركبات الذهنية التى عملت فى توسعى وتعمقى . وعندى أن « مركب أوديب » الذى يعد محور السيكولوجية الفرويدية هو خطأ . ولكنه خطأ منير ، لأنه

نهبنا ، كأنه دسيسة علمية تحركنا إلى البحث والتتقيب في كهوف النفس المظلمة ، إلى قيمة السنين الأولى أيام الطفولة في تكوين الشخصية . وقد وصفت أفكار فرويد بحق بأنها « سيكولوجية الأعماق » ، وهي كذلك وإن كنا نختلف كثيراً عما نجد في هذه الأعماق . ولولا فرويد لما كان هذا الجيش الذى يتألف من آلاف العلميين الذين يبحثون النفس البشرية في جميع الأقطار المتمدنة . وقد جمعت بين فرويد وماركس وخرجت منهما بأزكى الثمرات ، بل فطنت إلى أن ماركس هو السيكلوجى الأساسى ؛ لأنه يجعل وجدان الفرد ثمرة المجتمع .

وعبارة « التحليل النفسى » من العبارات التى تعزى إلى فرويد وهى « اللافتة » لجميع أنواع العلاج السكلوجى ، وليس ثمة شك في قيمة التحليل . ولكنى أحس أن « التأليف النفسى » أهم وأنفع من التحليل وإنه إلى الآن مهمل لأن السيكلوجيين مقيدون بفرويد . وفي حياتنا العصرية لا يستطيع أحد أن يهمل التفكير العلمى ؛ لأن الحضارة الصناعية السائدة هى حضارة العلم . وقد دأبت في دراسة العلوم التى تدور حول التطور أو الاقتصاد أو السيكلوجية أكثر من ثلاثين أو أربعين سنة ، ولذلك أستطيع أن أتناول كتاباً عن الهورمونات ، أى مفرزات الغدد الصماء ، أو كتاباً عن الايكولوجية ، أى علاقة الحى بالبيئة ، أو كتاباً عن مشكلات الوراثة ، أو كتاباً عن جنون الشيزوفرينا ، فاقروها جميعاً في رغبة وفهم ولا أجد ذلك الصدود الذى يجده غيرى ممن لم يعنوا بالعلوم .

وكل هذه العلوم هي دراستى المستقلة ؛ لأن ما حضرته من محاضرات فى لندن لا يؤبه به . وما آسف عليه أحياناً أنى لم أجد المرشد حوالى ١٩٠٧ الذى كان يستطيع أن يعين لى منهجاً دراسياً فى العلوم . ولكنى ، بعد التفكير ، أسائل : هل كان يكون أفضل لى لو أنى كنت قد انغمست فى دراسة علمية تحريية معينة ؟ ألم تكن مثل هذه الدراسة مانعة بطبيعتها الإحصائية من ألوان أخرى من الثقافة الموسوعية التى أتمتع بها الآن ؟ إنى لا أكاد أعرف إحصائياً فى علم ما ، نجح فى أن يكون موسوعياً ينطلق فى سهولة ويسر إلى رياض الفلسفة والأدب والاجتماع ؛ مع أن كل هذه الميادين ، فضلاً عن العلوم ، قد ألفتها وجلت بل تقبت ، فيها وفكرت فى تناسقتها ، وسرت فيها بروح المتعلم الذى يربى نفسه فى بعد عن الاغترار والزهو . فاذا اعتبرت القيم ، قيم الحياة لا قيم التخصص الثقافى ، فانى أجد أنى نجحت فى تربية نفسى أكثر مما لو كنت قد تخصصت . لأن المتخصص فى البيولوجية أو البيولوجية أو الايكولوجية قلما يفكر فى دراسة أفلاطون أو قراءة الجاحظ أو دراسة الحضارة الفرعونية . ولكنى أنا بالاتجاه الموسوعى الذى اتجهته قد درست هذه العلوم ، فى غير تخصص ، ولكن مع الاستطلاع الدائم لغيرها من الثقافة . حتى أنى أقدر ، مثلاً ، عدد المؤلفات التى قرأتها عن حضارة الفراعنة بما لا يقل عن أربعين أو خمسين كتاباً . ولم أترك كلمة مطبوعة للجاحظ لم أقرأها . وكذلك أستطيع أن أولف كتاباً عن جيته أو الإصلاح الزراعى فى مصر أو المسألة الهندية بأيسر عناء . ولذلك يربى القارى أنى درست ، لا للثقافة ، بل للحياة . وقد

حملتني دراستي العلمية على أن ألتفت كثيراً إلى المراحل البعيدة التي قطعها العلوم المادية ، كالطب والهندسة والكيمياء والميكانيكيات والطبيعات ، مع تأخر العلوم الاجتماعية ، التي حال دون التفكير الحر فيها وتغيير قواعدها ، تقاليد وشعائر وسنن وقوانين تعمل كلها لتجميد تطورنا الاجتماعي . فالاجتماع ، باعتباره علماً ، يعيش على مستوى التفكير في ١٦٠٠ أو ١٧٠٠ ميلادية ، بل هو في أقطار آسيا وأفريقيا يعيش على مستوى سنة ١٠٠٠ للميلاد ، في حين أن الكيمياء أو الطب يسبقانه بنحو ٣٠٠ أو ٤٠٠ سنة . ولذلك نحن لا نعيش المعيشة العلمية في بيوتنا ولا يسود حكومتنا النظام العلمي . ولو أنه كانت هناك تقاليد وشعائر وسنن وقوانين للكيمياء مثلاً ، كما للمجتمع ، لبقى هذا العلم على مستواه حين كان كل عم الكيماوي أن يحيل الرصاص إلى ذهب . كما أننا لو استطعنا التخلص من تقاليدينا ومن الاستغراضات التي تتخذه بعض الهيئات والطبقات لكان في مقدورنا أن نرتفع بالاجتماع إلى مستوى العلوم التجريبية المادية .

ولهذا أيضاً نجد أن الطالب الذي يدرس الطب نقول له في صراحة إن الذباب ينقل عدوى الرمد أو الدوسنطاريا ، أو إن لحم البقر الذي أصيب بالدرن تنتقل عدواه إلى آكله من البشر ، ولكننا لا نقول لهؤلاء التلاميذ أو الطلبة إن الأجور المنخفضة التي يحصل عليها العامل في مصر تغشى بينهم الدرن والعمى والموت ؛ لأننا نخشى هنا الاستغراضات الامتيازية والاحتكارية والاقتصادية . ونخشى أن نصرح للفلاحين بأن كثيراً من الغيبات التي يؤمنون بها خرافية .

ذات يوم في ١٩١٨ كنت قاعداً في الريف إلى قناة صغيرة في ظل شجرة وإلى جنبي فلاح قد بلغ الثمانين . وكنت أنأمل يوقات الضفادع وهي تسبح . فسألت الشيخ عنها فاتضح لي أنه لايعرف أنها ضفادع صغيرة . ثم تشعب الحديث إلى النبات فقال : « إن لكل نبتة من هذه الأعشاب التي تنمو على شطوط القنوات ملكاً يحرسها . » وبما نهضت أخذت أفكر في هذه الرواسب الثقافية التي انحدرت إلينا عن الفراعنة والكلدانيين والبابليين ، وجعلتنا نعيش في غيبات تحملنا على النظر الخطي لحقائق هذا العالم وتباعد بيننا وبين النظر العلمي الموضوعي . وقلت في نفسي : هذا الرجل غيبي يؤمن بأن العالم حافل بالأرواح التي تحرس الناس والحيوان والنبات . إذن هو من خصوم داروين .

ولكن هذا الفلاح المسن يمثل في سذاجته المركزة جهل الرجل العادي والمرأة العادية . وكلاهما يعيش بذهنه على رواسب قديمة من العقائد . حتى إن فكرة « القرينة » عند الفراعنة ، لا تزال حية في أيامنا . أجل ! لقد ذكرت الآن ؛ فقد كنت طفلاً لم أتجاوز السابعة أو السادسة ، وكنت قد غضبت وصرخت ورفست وأنا على العشاء . فقالت لي أمي تخيفني : « دلوقت أختك تزعل منك وتضربك » .

وكانت تعني بأختي هذه « قرينة » الفراعنة . وقصدت إلى الفراش وتمت بلا عشاء . وإذا بي أحلم أن فتاة قد حضرت وهي تحمل سوطاً ترفعه في الهواء كي تتحفز لضربي ، فصرخت في النوم . وأقبلت إلى أمي في فزع فأيقظتني وحضنتني وجاءتني بكوب من الماء شربت منه

جرعة . ثم أخبرتها عن الحلم ، فأخذت تقبلني وهي تبكي : « حقا على يا ابني . أنا كنت بضحك . مفيش أخت . مفيش أخت . »
ولكن مجتمعنا لا يزال في أسر هذه القرينة أو ما يشابهها من العقائد التي تتخذ أحيانا أسلوب البحث العلمي . كما نرى مثلا في أولئك الذين يزعمون أنهم يستجلبون الأرواح فتتقر على المائدة وتتحدث عن العالم الثاني . . . وهذه العقائد تعيش كأنها كابوس للمجتمع تعمل على تجميده وتخوفه حتى لا يتطور . ودعاة الروح هؤلاء لا يختلفون عن تلك الأم الساذجة التي تقول عند ما يعثر طفلها : « وقعت على أختك أحسن منك » تمدح الأخت وتسترضيها حتى لا تصيب طفلها بأذى . . . وهذه القرينة أو هذه الأخت التي أفزعنتي في نومي ، وهذه الملائكة التي تحرس النباتات عند ذلك الفلاح المسن ، هي ضباب العقل الذي كان يجب أن يقشعه العلم . وقد اتشع أو كاد في أمريكا وأوربا . ولكنه لا يزال يخيم علينا ؛ لأن الثقافة العلمية لا تزال بعيدة عنا لم تتنفس هواءها الصافي .

وهذه الثقافة العلمية هي ما أفتأ أرجو أن أجعلها أسلوبا في الحياة الشخصية والاجتماعية . ولكني لم أخطئ قط ذلك الخطأ المألوف بأن أجعل العلم غاية إذ هو وسيلة فقط . أما الغاية فيعنيها الأدب والفن والفلسفة . أي إن غاية العلم هي الدين الذي نكسبه من الأدب والتاريخ والفن والفلسفة . أي كيف نعيش في مجتمعنا أصلح العيش وأروحه وأقصده وأشرفه .

وقد وضعت كتابي « نظرية التطور وأصل الإنسان » ولي مأرب

هو مكافئة الغيبيات الشائعة . ونشرته كله مقالات في « البلاغ » قبل طبعه كتاباً ، كي أصل إلى أكبر عدد من القراء . ومن الذكريات السعيدة أني وقفت ذات يوم إلى دكان صغير لا تزيد مساحته على ثلاثة أمتار أشتري لابني بعض الحلوى ، فعرفني البائع وأخبرني أنه قرأ كتابي هذا وفهمه .

ولو أني وجدت التشجيع لأرصدت حياتي لآخراج كتب شعبية مثل « نظرية التطور » و « العقل الباطن » ونحوهما . وكثيراً ما كنت أتحسر حين كنت أرى مؤلفات العقليين في لندن . فان كتاب « أصل الأنواع » الذي زلزل به داروين الثقافة الأوروبية يباع بأقل من خمسة وعشرين ملياً .

وحوالى ١٩٣٠ وجدت أنا والأستاذ فؤاد صروف الفرصة سانحة لإيجاد حركة علمية شعبية في مصر . ففقدنا العزم على تأليف « المجمع المصري للثقافة العلمية » . وكانت الغاية منه أن يضم جميع المهتمين بالثقافة العلمية ونشرها بين الجمهور . ونجحنا في المشروع نجاحاً لم نكن ننتظره ، مما دل على أن المجمع أدى حاجة عضوية فسيولوجية في مجتمعنا . وعقدنا الاجتماع السنوي الأول له وألقيت فيه محاضرة سيكولوجية عن طبيعة التفكير في ضوء الأحلام في قاعة الجمعية الجغرافية . ولكنني في ذلك الوقت كنت أمارس نشاطاً سياسياً مركزاً في مكافئة إسماعيل صدقي باشا حين ألغى الدستور واستبدل به غيره ، واتفق مع المستعمرين والمستبدين على إعادة الحكم التركي الشركسي الذي حاول عرابي أن يحطمه . وأدى نشاطي هذا في السياسة إلى طردى من المجمع .

وكان من حظنا السىء أننا اخترنا معظم الأعضاء من الموظفين .
ولذلك حين اختير حسين سرى (باشا) رئيساً لاجتماعه الثانى أرسل
إلى خطاباً يفصلنى من المجمع « مع الشكر » . وكان وقتئذ وكيلاً
لاحدى الوزارات ، فوافق جميع الأعضاء « الموظفين » ولم يشذ غير
واحد ، غير موظف ، هو الأستاذ إسماعيل مظهر . وجاء فى عقب
طردي الصديق زكى أبو شادى يعتذر إلى بأنه لم يجرؤ على مخالفة
« وكيل وزارة » ، ولذلك أعطى صوته ضدى ووافق على طردى ،
على أنه يعرف أنه ليس من حق المجمع أن يفصلنى لنشاطى السياسى .
واتجه المجمع بعد ذلك وجهة إخصائية غير شعبية ، ولذلك لم ينتفع به
الجمهور كثيراً .

وعندما أقارن بين الثقافة العلمية والثقافة الأدبية أجد أن القيمة
العظمى للأولى أنها تحريرية ؛ لأن التفكير العلمى يسير على نهج
ارتقائى : هذا سىء فيجب أن نبحث عن الحسن ، وهذا أحسن ولكن
يجب أن ننشد أحسن منه بالاكشاف والاختراع ، والتفكير الارتقائى
هو بطبيعته تفكير علمى . وهو لم ينشأ فى أوروبا إلا بعد أن اتجه
الأوروبيون وجهة علمية فى القرن السابع عشر . أما قبل ذلك فلم يكن
هناك من يقول بأن الشعوب يجب أن ترتقى وتتغير . وقد يرد هنا
على بأنه كان هناك طوبويون يتخيلون حالاً سعيدة للبشر غير حالم
الحاضرة . ولكن الفكرة الارتقائية لم تنبت قط فى هذه التربة
الطوبوية . وإنما نبتت من البذور العلمية .

والثقافة الأدبية ، إذا لم تجد الحافز من العلوم ، تركز . وقد

كان هذا شأنها فى العصور الوسطى : وسط زراعى راكد يعيش فى ثقافة أدبية راكدة محافظة . أما الآن فالعالم المتمدن يعيش فى وسط صناعى متحرك ، يعيش فى ثقافة علمية متحركة متغيرة . ومن هنا قيمة التوجيه العلمى فى الثقافة العربية الحاضرة . بل يجب أن يرتفع هذا التوجيه إلى مقام الدعاية .

ذكريات الحرب الكبرى الأولى

كانت الحرب الكبرى في ١٩١٤ متوقعة ، وكان أساسها المباراة العظيمة بين الانجليز والألمان . فانهما كانا على تقدم صناعي عظيم يحتاج إلى المستعمرات والمواد الخام والأسواق . وكان الانجليز حاصلين على كل هذا ، ولم يكن الألمان حاصلين على شيء يؤبه به . فكانت الصناعات الانجليزية تمتاز بالمواد الخام الرخيصة التي تحصل عليها من الهند وجاوة ومصر وغيرها ، فتستطيع بيع مصنوعاتنا بأثمان منخفضة . ثم في الوقت نفسه كانت تجد التفضيل في الأسواق في هذه الأقطار وغيرها . وإذا لم يكن هذا التفضيل بالامتياز الجمركي الصريح ، الذي يجعل مصنوعاتنا تدخل هذه الأقطار بسهولة ، فانه يكون بالأعيب أخرى تؤدي إلى التفضيل ، ويقوم بها موظفو المستعمرات لخدمة طبقة الصناعيين والتجارين في بريطانيا .

ولم يطق الألمان هذه الحال ، أي أن يثرى الانجليز بأوضاع اقتصادية عالمية غير عادلة ، ويبقوا هم في تخلف اقتصادي . وشيء من هذه الحال كان أيضاً بارزاً في مقدمات الحرب الكبرى الثانية التي دعت اليابان فيها إلى « الرخاء المشترك » .

وكانت الشرارة الأولى للحرب قتل أحد الأمراء من أسرة

الامبراطور فرائز جوزيف ، وكان إمبراطوراً هرمياً على إمبراطورية هرمة ركيكة . ولم تمض إلا أيام حتى كان العالم كله مشتتاً ، وأخذ الجمهور في مصر على دهشة .

وكنت أصدر مجلة « المستقبل » في القاهرة . فدعيت إلى تعطيلها في إدارة المطبوعات . ثم شرع الانجليز في اعتقال من يتوجسون في اتجاهاته . ولبثت بعض الشهور وأنا أعمل مع مي في جريدتها ، أي جريدة والدها « المحروسة » . ولكني سئمت الرقابة التي لم تكن تسمح بنشر خبر صحيح إلا بعد أن تريفه حتى تخرج الهزيمة التي كانت تقع بالحلفاء كأنها انتصار رائع لهم .

ورحلت إلى الريف ، وزأيت كيف كان يسلط الانجليز علينا الموظفين المصريين من مأمورين ومدبرين وحكامدارين وشرطة لخطف محمولاتنا . وكانت الجبال والحميز بل الرجال يخطفون أيضاً كما لو كانوا في قرية زنجية على خط الاستواء قد كبسها النحاسون لخطف سكانها ويبيعهم في سوق الرقيق . وكان المنظر يهين النفس كما يفتت القلب . فكان الرجل يربط بالحبل الغليظ من وسطه ، وخلفه أمثاله ، ويسيرون على هذه الحال صفاً إلى أن يبلغوا « المركز » فيحبسون في غرفة المتهمين ثم يرحلون إلى فلسطين . وكنت أنجح أحياناً بالرشوة في استخلاص بعض هؤلاء المساكين . وذات مرة وأنا بالمنزل سمعت صراخاً ودخلت على نسوة في فزع ونحيب . وعرفت أن ثلاثة ممن يزرعون أرضنا ألقى القبض عليهم وهم يحرثون في الحقل . فخرجت ووجدتهم مربوطين بالحبال الغليظة بحراسة أحد الشرطة . أما سائر

الشرطة فقد تركوهم كي يغزوا قرية أخرى . واستطعت بمساومات مع الشرطة أن أحصل على الافراج عنهم . ولكني لم أكن أشجع كل مرة . ففي ذات يوم قصدت إلى المأسور في الزقازيق أطلب منه إطلاق اثنين من الفلاحين . فتأملني ثم قال : أنا عايز أرحلك أنت لفلسطين . فتركته إذ لم تكن الظروف وقتئذ تأذن بالتحدي .

وفي تلك السنوات السود أترى كثير من العمدة ثراء فاحشاً ؛ فقد فرضوا ضرائب على جميع الشباب من سن العشرين إلى الخمسين كل على مقدار ما يملك . فهذا يؤدي خمسة جنيهات ، وذلك عشرة جنيهات ، حتى يعقبيهم من الاعتقال ويعثمهم إلى فلسطين . وعرفت عمدة كان يملك ستة أفدنة فقط جمع نحو خمسة آلاف جنيه بهذه الطرق . وكان الفلاحون يبيعون كي يجعوا هذه الغرامة ويؤدوها .

وقد استمتعت بعد ذلك بالشهامة عند ما رأيت هذا العمدة وقد قبض عليه الانجليز بعيداً عن قريته وأجبروه على النزول في ترعة يبحث عن أحد قضبان الخط الحديدي لشركة الدلتا . فقد فوجئ وهو على حمار قاصداً إلى قرية مجاورة فأنزله وخرّبوه وأجبروه على العمل في ترميم الخط الحديدي الذي كان الفلاحون قد نزعوه في ١٩١٩ . وعرفت بعد ذلك أنه تورط في معاكسات ومشاجرات بينه وبين الأهلين فضاع كل ما جمعه . فقد تعقبوه بالشكايات جملة سنوات وتمسكوا عليه بمخالفات خطيرة جعلته ينفق في الرشوة وأجور المحامين كل ما كان قد جمعه من هؤلاء الفلاحين المساكين .

وكان معظم النقل في الحرب الكبرى الأولى على الخيول

الاستراتيجية . وكانت ضخمة يعلف الحصان منها بضعف ما يعلف به حصان من خيولنا . ولذلك كان التبن والشعير يخطفان من الريف . وقد قام عمالنا المصريون ، وهم من الفلاحين ، بخدمة الحملة الانجليزية في فلسطين . وكانوا يعدون بعشرات الألوف مات أكثرهم وعمى بعضهم . ومع ذلك عندما انتهت الحرب واشتعلت الثورة في مصر في سنة ١٩١٩ وقف السفير البريطاني في واشنطن ينتقص من قيمة خدمتنا في الحرب كي يحول دون العطف الأمريكي على قضية استقلالنا ، فقال إن جميع من قتلوا في الحرب من المصريين لا يزيدون على ثلاثة أشخاص . ثلاثة فقط .

وكثير من الفلاحين يتركون الأرض إلى المدن لما يلاقون من قسوة المالكين الذين يعصرونهم بالايحارات والمحاسبات . ولكن الريف لا يزال معموراً بل مزدحماً بالفلاحين على الرغم من جميع مايلقى هؤلاء فيه من مصاعب . وظنى أن بعض السبب لذلك أن في الأرض فتنة تسحر الفلاح وتربطه بها مهما قل كسبه منها . فانه يستيقظ قبل الشروق ، ويخرج إلى حقله ترافقه بقرته وحماره وعنزته أو نعجته . وهو يحس برفقة هذه الحيوانات ويجد في هذه الرفقة لذة تسمو على الاعتبار المادية . وهو يتشمم الأرض عقب حرثها حين تنفج التربة الهواء بروائحها التي توحى الرخاء والبركة . بل هو يبكر أحياناً كي يتحقق من النمو الجديد في الذرة أو القمح . وفي الشتاء حين يكسو الندى البرسيم تبدو الدنيا في بهاء لا يعدل الانسان به أي جمال آخر .

وقد وجدت هذه الفتنة في السنوات التي قضيتها في الريف مدة الحرب . وكنت كثيراً ما أتأمل الفلاحين وهم يكدون من الفجر إلى الغروب ، ثم يعودون مرحين يتغنون بأثوابيل خلف البهائم إلى بيوتهم . وهذا الحب للأرض وللنبات وللحيوان يلصق الفلاح بالريف ويجعله يرضى بالمعيشة الضئيلة من حيث الطعام واللباس والمسكن . بل هو يرضى بقسوة الأيجارات والمحاسبات ، بل إن الفلاحة أيضاً تجتهد من الاهتمامات بتربية الدجاج والبط والحمام ما يجعلها مفتونة بهذه الطيور فتغنى لها كما لو كانت تؤدي هواية لذيفة . وكثيراً ما رأيت إحدى الفلاحات تخاطب البقرة التي عزفت لسبب ما عن الطعام بقولها : « يا حبيبتى ، يا أختى » ، ثم تمسحها بيديها كما لو كانت طفلاً تدلله .

ثم يجب ألا ننسى القمر في الريف ؛ فإنه يسكب سحره على كل شئ ، وأبناء المدن الذين يرون القمر من خلال المباني لا يعرفون فتنة هذا الكوكب في الريف .

وغيرى يعد الريف منفى ، ولكنى أعتقد أن أحسن سنى حياتى هى تلك التى قضيتها في الريف . فقد أتاح لى الدراسة الجدية كما أتاح لى الاستمتاع بالطبيعة . ولم يكن يمر على يوم دون أن أستيقظ فى الساعة الرابعة أو الخامسة من الصباح وأسير فى الحقل وهى مبللة بالندى فى هدوء الطبيعة الرخيم أنتظر بزوغ الشمس فأحييها وأتأملها كأنى فى صلاة . وهناك آلاف من الناس لم يعرفوا قط هذه الصلاة ولم يحسوا هذا الاحساس الدينى فى الاتصال بالطبيعة فى خلوة الحقول

التي تنمو كل نهار بحياة جديدة . والسائر في الحقول في هذه الساعات الأولى من النهار تغمره نشوة حقيقية حتى ليجد خفة في نفسه لاختلاف من تلك التي يحدثها الكحول ، ولكن دون تخدير للوجدان .

والريف يوم التجزؤ والانفصال . هذا نبات ، وهذا حيوان ، وهذا مسكن ، وهذا حقل ، بل هذا إنسان وهذا بهيم . ولكن المتأمل يجد الترابط والتكافل ، كأن كل هؤلاء وحدة حية .

وقد كان داروين يقول على سبيل الفكاهة إنه يستطيع أن يقدر عدد العوانس في قرية (في إنجلترا) بملاحظة حقول البرسيم المحيطة . فإذا كان البرسيم مزدهراً ناجحاً فإنه يدل على أن العوانس كثيرة في القرية . ذلك لأنهن يربين القلط . والقطط تأكل الفئران . والفئران تأكل النحل . والنحل هو الذي ينقل إلى البرسيم لقاحه من زهرة إلى زهرة . . . فإذا قلت العوانس قلت القلط وزادت الفئران ، وقل النحل ثم قل ازدهار البرسيم .

ونحن نرى هنا بالطبع فكاهة . ولكن لها مغزاها ، وهو أن النبات والحيوان يعيشان في تضامن سيمبوزي أي إن كلا منهما يخدم الآخر . حياة هذا تتوقف على حياة ذلك . وقد كنت أبتهج بالتأمل في الريف لهذه الروابط بين النبات والحيوان . وكثيراً ما كنت آسف وأنصح بشأن البومة . فان الفلاحين قد ورثوا عقائد غيبية عنها إذ يقتلونها لأنهم يتشاءمون منها ، مع أنها تأكل الفئران التي تقتات بذراهم وخبزهم . ثم إن تكاثر الفئران يؤدي إلى تكاثر الشعابين التي تقتات بها . بل

إن للدئاب والشعالب في ريفنا قيمتها السميبيوزية في حياتنا الريفية أيضاً لأنها تنظف القنوات من الرم .

وقد كنت ، وما زلت إلى الآن ، أجد لذة واهتماماً في أن أتابع فراشة بل أجرى وراءها كالصبي حتى أمسكها وأناملها وأبحث عن أعضائها ، ثم أطلقها . وسلوكي هذا كثيراً ما كان يبعث الابتسامات بين الفلاحين الذين يعتقدون أن مثل هذا العبث لا يتفق والوقار . ومازلت إلى الآن متعلقاً بالريف أخطف إليه الزيارات بل ما زلت أحلم بأن أقضى السنة الأخيرة من عمري في الريف .

وريفنا الذي صنعه الطبيعة ، ريف الحقول والزهر والشجر والطيور والفراش ، هذا الريف يتلألأ بالجمال ويبعث الحياة تنبض في عروقنا حين نشرب من هوائه ونشم منه خضرة البرسيم أو الذرة التي تغمر نفوسنا . ولكن الريف الذي صنعه المجتمع المصري ، ريف المساكن الكالحة المبنية من الطين الجفف ، ريف الايجارات والمحاسبات والحربان للفلاحين ، هذا الريف لا يوحى إلينا الصلاة بل يوحى الغضب واللعنة وكراهة الحياة في مصر . فإن المالك يعامل أحياناً الفلاحين بروح تجارى لا يبالي هل هو يمجوع أو يمرض بسبب الايجارات العالية التي يفرضها عليه .

وأذكر أن أحد الفلاحين في عزبة غير بعيدة قدم إلى ذات صباح في ١٩١٥ وعرض على أن ينتقل إلى عزبتنا ، فقبلت . وقبيل الغروب حضر هو وزوجته التي كانت تحمل ابنتها على صدرها ، وكان هو يحمل جرة بها « مخلل » . وكانت هذه الجرة كل ما يملك من متاع في الدنيا .

فقد حاسبه صاحب الأرض وأخرجه خالصاً لا عليه ولا له . وفاحت رائحة كريهة من الحجرة . فكشف عنها أحد الحاضرين وصب منها على الأرض ، وما زال يصب حتى فرغت . وكان هذا «المخلل» الذى ذكره هذا المسكين لا يتجاوز هذا السائل الكريه يبلل به هو وزوجته خبز الدرة ثم يبلعانه . وكان الهزال واضحاً فى الثلاثة . وكان أوضح فى الطفلة التى كانت تتعلق بصدر أمها كأنها خرقة بالية معلقة فى ترهل . وقد ماتت هذه الطفلة بعد نحو أسبوعين . وقص على على^١ ، وهذا اسمه ، مأساته . فقد دخل تلك العزبة قبل ست سنوات ومعه بقرة وحمار ، وكان لزوجته صندوق ولحاف وحصير ومخدة . ولكن المالك كان «مجاسيه» كل عام ، فيخرج مديناً . وياع بقرته وحماره فى تسديد الدين . ثم باعت زوجته كل أمتعة البيت كي تشتري الدرة .

و ذات مساء أقبلت على العزبة فوجدت عليا مبطوحاً على بطنه وهو يصرخ صرخات عالية . وفزعته عندما رأته على هذه الحال . وظننت أنه قد تسمم أو أن وباء الكوليرا قد نقل إلى مصر مع بعض الجنود الهنود . ولكن المسكين سكت خجلاً عندما رأتى . وذهبت به فى اليوم التالى إلى الزقازيق لأحد الأطباء . فقال إنه مريض بالبلاجرا وهو مرض ينشأ من النقص الغذائى ، فذكرت الحجرة التى جاء بها وصببنا منها المخلل على الأرض . . .

وتفاقمت حاله ، وظهرت عليه أمارات البلاهة . وتركته زوجته وتزوجت غيره . ثم حدث حريق فى بهنباى بعد ذلك بستين ، وكان

هو في أحد أزقتها . فخانته ذكاؤه الذى تقهقر من البلاجر فعجز عن التخلص من النار ومات بالحريق .

وفى الريف المصرى الجميل ، آلاف من هذه المآسى التى تعود إلى الروح التجارى فى محاسبة الفلاحين وزيادة الايجارات حتى يموتوا فى بقاء لقللة الطعام . وأغلب المسئولين عن هذه القسوة هم من المالكين الذين يعيشون فى المدن ويستغلون ، غيائياً ، أرضهم . فلا يستطيع وكلاؤهم التسامح ، ولا نقول الرحمة ، مع المأزومين ، والفقراء ، بل أحياناً يبرهن هؤلاء الوكلاء على إخلاصهم واجتهادهم للمالكين بزيادة الايجارات على هؤلاء الساكنين .

وكنا نقرأ الأخبار كما يحب الانجليز أن نفهمها . ولذلك كانت الرقابة صارمة شاملة . فقد اشتركت فى بعض المجلات الأمريكية كى أصل عن طريقها إلى الأخبار الصحيحة . فكانت إما تمنع من الوصول إلى وإما تقص أوراقها التى تحمل أخباراً غير ملائمة للانجليز . ولكن حتى بين المحررين المصريين من كان يستطيع أن يروى الخبر بحيث يجوز ظاهره على الرقيب ويدرك قارئه ما بين سطوره ، مثل :

« جاء فى التلغراف أن هزيمة الألمان عند فردناش كانت فادحة ؛ إذ تقدموا بعد جهد كبير عشرة كيلومترات . ولكن ارتد عليهم الجنود الانجليز والفرنسيون فانتزعوا منهم طاحوناً . وقد أحدث هذا المنظر فرحاً عاماً فى قيادة الحلفاء . »

وكان الرقيب ينخدع بهذه اللهجة وينسى المعانى الواضحة .

وكان إعجاب الجمهور بألمانيا يفوق الوصف . ويعض هذا كان يعود بالطبع إلى الشماتة بالانجليز المحتلين لوطننا . وكنا نهجس أحياناً بأمل الاستقلال إذا انهزمت بريطانيا أو على الأقل لم تنتصر . وكان هذا الأمل قوياً في بداية الحرب وبقى إلى أن دخلت أمريكا في صف الحلفاء . ولم تكن الطائرات عنصراً خطيراً في الحرب الكبرى الأولى . ولم نزرنا فيها غير طائرتين : الأولى ألقت قنبلة بالقرب من البنك الأهلي . والثانية ألقت قنبلة في حي الفجالة ، وكان التلف صغيراً . وأيضاً أرسلت ألمانيا بلوناً عبر جونا ، ذهاباً وإياباً ، من أوروبا إلى المستعمرة الألمانية في أفريقيا الشرقية . ولم يلق أية معارضة من الانجليز . وكان على ارتفاع بعيد حتى لم يسمع أحد بأزيز موطراته . وقد كانت براعة الألمان في القتال عظيمة ، ولكن إخفاقهم في السياسة كان عظيماً أيضاً ؛ إذ لم يستطيعوا أن يتوقعوا إنضمام الأمريكيين إلى أعدائهم . ولذلك صحت كلمة لويد جورج رئيس الوزارة الانجليزية عند ما قال : « الألمان يكسبون المعارك الآن . ولكننا نحن سنكسب الحرب . »

وكان تشرشل بطل الحرب الكبرى الثانية بطلاً أيضاً في الحرب الكبرى الأولى . فقد كان يتهم الألمان بأنهم يصنعون الصابون من جثث القتلى أى يستخرجون الشحم من هذه الجثث ويصنعون منه الصابون . وقال أيضاً إن الألمان يبعثون جنودهم إلى المدن لتلقيح النسوة بلا زواج . . . وكانت هذه التهم بالطبع غير صحيحة . ومما قام به تشرشل في تلك الحرب أنه زيف ملايين النقود الورقية وبعث

بها عن طريق سويسرا إلى ألمانيا حيث أفسد قيمة النقد الألماني .
وتشرشل أيضاً هو المسئول عن الحصار الذي ضربه الانجليز على ألمانيا
أكثر من ستة أشهر بعد إعلان الهدنة . فلم يكن يدخل ألمانيا شئ من
الأغذية التي يحتاج إليها السكان ، وكانوا قد بلغوا حالا بشعة من
القحط . وقد عم الكساح أطناهم لهذا الحصار .

وارتفعت الأسعار والأثمان إلى أربعة أضعاف بل خمسة أضعاف
ما كانت عليه قبل الحرب . ولكن الرخاء كان عاماً ، لأن الانجليز
بعد أن كانوا قد حددوا أثمان القطن في سنتين الأوليين من الحرب
تركوها حتى وصلت إلى ٤ و ٤ جنيهاً للقنطار . وكان أردب القمح
يصل إلى ٧ أو ٨ جنيهات . وبقيت إيطاليا مدة طويلة وهي محايدة ،
فكانت تموننا بكثير من المصنوعات . ولذلك لم يزد قطن الثمن البذلة
على ٨ أو ٩ جنيهات . وأحدثت أثمان القطن المرتفعة هوساً عاماً في
الريف حتى بلغ ثمن الفدان خمسمائة جنيهه وإيجاره ٤ أو ٥ جنيهات .
ويدهى أنه في مثل بلادنا حيث منع الانجليز تأسيس المصانع يجب
أن ترتفع أثمان الأرض كلما زاد النقد المتداول ؛ إذ ليس هناك شئ
آخر لاستغلال النقد الفائض . وأعرف اثنين شقيقتين في الريف كانا
يتجران بالقطن في ١٩١٩ . وقد عمهما الهوس بشأن الزيادة المستمرة
في أثمانه ، فصارا يجمعان منه ويكترزان حتى أصبحت ثروتهما كليهما
قطناً لا يملكان شيئاً غيره . وكان يعرض عليهما الثمن العالى فيرفضان
إنتظاراً لارتفاع الثمن إلى خمسين أو مائة جنيهه . وهما في هذه
الآمال والأحلام وإذا بالثمن يهوى إلى أقل من أربعة جنيهات . فجن

أحدهما ومات الآخر . وكثر الانتحار بين المضارين على أثمان القطن في بورصة الاسكندرية . وفي أثناء هذه الحمى كانت الثروات الضخمة تتكون في أيام أو أسابيع ؛ فقد كان هناك تجار يشترون البيض أو الزبد أو يتجرون في البهائم . فلما رأوا أن القطن يصعد إلى السماء أقبلوا عليه . فلم يكن يدور العام على أحدهم ، فيما بين ١٩١٨ ، و ١٩١٩ ، حتى كان يملك عشرين أو ثلاثين ألف جنيه مع أن كل ما كان يملك في بداية تجارته لم يكن يزيد على مئتي جنيه . وكان بعض هؤلاء يتناسى قديمه ويزعم أنه أصيل عريق في الثراء . وبعض آخر كان يتبجح بعصاميته وأنه جمع ثروته بذكائه ، أو كما كان يقول بذراعه . وكلاهما كان كاذباً ؛ لأن كل ما في الأمر أن الحظ رفعهم كما خفض غيرهم .

وكانت الحرب تسير في سلحفة بطيئة خالية من الاقتحامات ، حتى كاد الناس يعدونها شيئاً مألوفاً ليس هناك ما يدعو إلى أن يتغير . فقد حفرت الخنادق ، من الجانبين ، في الاقليم الشمالي من فرنسا وجهزت بالأثاث والمصابيح الكهربائية ، ونظمت بينها المواصلات وحصنت بالأسمنت . وعم الجبهة الغربية ركود حتى صارت عبارة « كل شيء هادئ في الميدان الغربي » من العبارات الرمزية تقوؤها عند ما لا نجد خبراً جديداً . وهنا الاختلاف بين الحرب الأولى والحرب الثانية في ١٩٣٩ . فان الغارات الجوية التي وصلت إلى مدننا جعلت هذه الثانية متحركة نشيطة بالمقارنة إلى سكون الأولى في الخنادق . وحاول الألمان أن يحركوا الجبهة الغربية بالهجوم الكبير على فردان .

ولكنهم لم ينجحوا إلا في قتل عشرات الألوف من شباب الألمان والفرنسيين . والواقع أنه لم يكن في أخبار الحرب الأولى ، بعد الهجوم البرقي الألماني الأول ، مما بقي أثره سوى ثلاثة أشياء هي دخول أمريكا في الحرب ، ثم انفصال روسيا بنظامها الجديد . وأخيراً شروط ولسن التي أحسنا بها كأننا نفتح عصراً جديداً للسلام والعدل . وكان أهم ما في هذه الشروط حق تقرير المصير للشعوب التي يستعبدتها الاستعمار . وكانت عصبية الأمم إحدى الثمرات لجهاد ولسن للسلام العام .

وقد ظهر ولسن بمذهبه الجديد كما لو كان نبياً . فان العالم الذي كان ينمن من الامبراطورية البريطانية استروح نسجا منعشاً من هذه المبادئ الجديدة التي تقول بالمساواة والحرية وتقرير المصير . وعلقت هذه المبادئ بأذهاننا ، وصرنا نلهج بها ونفكر فيما نستطيع أن ننتفع به منها . وكان الساسة الانجليز يتململون من هذه المبادئ ولكنهم لم يستطيعوا منعها وإنكارها . وقد عادوا إلى مثل هذه الحال في الحرب الكبرى الثانية عندما دعا الرئيس روزفلت إلى ميثاق الأطلنطي والحرية الأربع . فقد قبلوا مبادئ ولسن ثم مبادئ روزفلت بالقول مع نية نقضها بالفعل .

وكان ولسن يسير في أوروبا ويتنقل من عاصمة إلى أخرى والجاهير تحشد له وتتلقاه في خشوع ديني . حتى كان بعضهم يجنؤ على الركب على أرصفة المحطات . وكان الكاتب الفرنسي رومان رولان في سويسرا وقد غادر فرنسا احتجاجاً على الحرب .

وقد كتب له خطاباً مفتوحاً قال فيه :

« أنت وحدك ، أيها الرئيس ، بين جميع أولئك الذين يحملون الواجب الرهيب لقيادة الأمم ، أنت وحدك تستمتع بسلطة روحية عالمية . لأنك توحى الثقة العامة .

« أجب نداء هذه الآمال الحارة . وتناول هذه الأيدي التي بسطت إليك فاجعلها تصافح بعضها بعضاً . . . لأن الأمم إذا وجدت أنها خذلت في هذه الوساطة فانها سنتفوق وتهيم في فوضى ثم لا بد أن تتحطم في الشطط . وعندئذ تنغمس الشعوب في الدماء وتتكفى الأحزاب القديمة إلى رجعية دموية . . . أيها الوارث لجورج واشنطن وإبراهام لنكولن هلم إلى الراية وهي ليست راية حزب أو راية أمة وإنما هي راية العالم كله . وادع نواب الشعوب إلى برلمان البشرية . وأرأس أنت هذا البرلمان بالسلطة الكاملة التي هي حقك لمالك من وجدان روجي سام ، ولما لأمريكا من مستقبل عظيم . تكلم . تكلم إلى الجميع . لأن العالم متعطش إلى صوت يعلو ويغمر تخوم الأمم وطبقاتها . كن الحكم للأمم الحرة ، حتى يعرفك المستقبل بأنك كنت المصالح . »

وليس شك في أن مبادئه ولسن الأربعة عشر كانت من أكبر العوامل لشورتنا في ١٩١٩ . وكان ولسن يحاول تغيير المعالم ، وكان يؤمن برسالته في جد وشرف . ولكن الرجل في شرفه وسداجته لم يقدر عتو اللؤم والخسة في الامبراطوريين : كليمنصو رئيس وزارة

فرنسا ، ولويد جورج رئيس وزارة بريطانيا . فقد سايره هذان الاثنان وأوهماه بالموافقة التامة على مبادئه كي يلقى بكل القوة الأمريكية في كفة الحلفاء ضد ألمانيا ، حتى إذا تم الانتصار بفضل هذه القوة للانجليز والفرنسيين تنكر هذان الاثنان له . وكان من الفكاهات التي يتنادر بها الفرنسيون في حمق ورعونة قول كليمنصو وقت المفاوضات : « إننى فى مأزق ، فعن يمينى نابليون وعن يسارى المسيح . » وهو يعنى بنابليون لويد جورج فى زعمه أنه بطل ، وبالمسيح ولسن فى زعمه أنه مصلح للعالم . ونحن الآن فى ١٩٤٧ عند ما نذكر هذه المفاوضات فى ١٩١٩ ندرك أن ولسن لم يكن فقط الرجل البار بالبشر بل كان أيضاً الرجل البصير . أما هذان الاثنان فكانا أحققين قد طربا للانتصار ورضيا بالنظر القصير . ولو أن مبادئ ولسن عمت العالم لما وقعت الحرب الكبرى الثانية .

وعلى كل حال ربح العالم من ولسن « عصبة الأمم » . وصحيح أن الامبراطورين من الانجليز والفرنسيين أفسدوها وأحالوها إلى هيئة ميتة عندما أيقنوا أنها تعارض المذهب الامبراطورى . ولكن هذه العصبة نبهت الأذهان ، وبقيت ماثلة أمام العالم نحو عشرين سنة وهى تشهد ، حتى بضعفها وفشلها ، على ضرورة إقامة منظمة عالمية تشرف على مصالح البشر . وقد كانت هى الباعث بعد ذلك لايجاد « منظمة الأمم المتحدة » و « مجلس الأمن » .

والحق أن هاتين الحربين قد أنجبتا فى الميدان الديمقراطى الغربى ببطلين عالميين فقط ، كلاهما أمريكى هما ولسن وروزفلت . وكلاهما

دعا دعوة عالمية فعبر عن أسمى الأمانى وأنضر الآمال فى السلام والعدل والشرف بين البشر .

وفى العالم الآن ثقافة عالمية بشرية جديدة تختمر . وعن قريب ستتلور . ثم سوف تتجوهر مبادئ أو ديانة عامة تؤمن بها جميعاً ونقول بها إن هذا الكوكب هو وطننا ، هو قريننا التى يجب أن نجوب شوارعها ونعرف أزقتها ، فى القطب الشمالى أو جبال هملايا فى الصيف ، وفى صحارى أفريقيا أو آسيا فى الشتاء . وطن عالمى جديد كبير يلغى هذا العالم اجزأ أو هذه الأوطان القديمة .

وكثير من الفضل فى هذا الاتجاه يعزى إلى ولسن وروزفلت .

ثورة ١٩١٩

في ١٨٨٢ حكم علينا الانجليز ، بمعاونة المستبدين المصريين ، بالموت السياسي . وبقينا في هذا الموت إلى ١٩١٩ حين بُعثنا وشرعنا نعود إلى التاريخ . وعدنا إليه بالثورة والدم والتدمير .

وكانت جميع طبقات الأمة في ثورة . فان الفلاحين بعد أربع سنوات من خطف محصولاتهم ورجالهم كانوا حاقدين على الانجليز . وكانت الطبقة المتوسطة من الموظفين حاقدة أيضاً على الانجليز الذين منعوا الرياسة في الوظائف عن المصري وقصروها على الانجليزى . وعادوا بنا بذلك إلى أيام توفيق حين كانت الرياسة للاتراك والشركس دون المصريين .

طبقات الأمة الفقيرة والطبقة المتوسطة أيضاً كانت في تملل . ولذلك حين تولت الطبقة المتوسطة قيادة الثورة انقاد الفلاحون والعمال إليهم . ولكن يجب ألا ننسى أن الوجدان الوطنى لم يمت قط منذ ١٨٨٢ . ولكنه كان خامداً . وقد بعث فيه مصطفى كامل الحياة . ولكن هذا الزعيم جاء قبل أوانه ثم مات في شبابه في ١٩٠٧ . ثم كانت هناك فترة اختلاط فكرى هو تراث التاريخ : مصر أحد أقطار الدولة العثمانية ؟ أو مصر يجب أن تدعو إلى الجامعة الاسلامية ؟

وكان هذا الاختلاط الفكري يفتت الوطنية المصرية . فلما كانت الحرب الكبرى الأولى رأينا الانجليز يتصرفون بحظوظنا كما لو كانوا آلهة فوق السحاب يعلنون على العالم « حماية » مصر . ثم يخلعون الخديوى . ثم يرتقى عرش مصر بدلاً منه السلطان حسين . ثم يمنعوننا من الاجتماع أو الكتابة ويراقبون جرائدنا حتى لا يكتب حرف إلا بأذنهم ، ولكن بعد ذلك يصيح بنا ولسن : هبوا إن لكم حق تقرير المصير .

وكان أكثر الأمة وجداناً بأن سنة ١٩١٩ يجب أن تكون سنة فاصلة في تاريخنا أولئك الذين عاشوا في الثورة العراقية واشتركوا فيها . وكان سعد زغلول في مقدمة هؤلاء . فان لوحة التاريخ المصرى من ١٨٨٠ إلى ١٩١٩ كانت واضحة الخطوط والصور في ذهنه .

فما هو أن أعلنت المدينة حتى قصد هو ، وعلى شعراوى باشا وعبد العزيز فهمى باشا ، وكلاهما رأى الثورة العراقية وعاش في سنى الخزى الوطنى التى أعقبها أو فى العصر الجليدى للوطنية المصرية ، قصدوا إلى دار المندوب السامى البريطانى وطلبوا فى إلحاح الأذن لهم بالسفر إلى لندن كي يطلبوا استقلال مصر .

ولكن المندوب السامى كان يفكر فى تيار آخر هو استعمار مصر . ولذلك لم يسغ هذا الطلب . ورفضه . وشرع سعد يبعث فى الأمة وجداناً بالظروف الجديدة التى تجعل الاستقلال طلباً أساسياً لا تقبل دونه شيئاً آخر . وسرت فى البلاد موجة من السخط على الانجليز . واعتقل الانجليز سعد ورفاقه ونفوهم إلى مالطة فى مارس من ١٩١٩ .

وزاد السخط و كثرت الاضرابات من الطلبة والموظفين وقطعت السكك الحديدية وأسلاك التلغراف والتلفون . وعندئذ أذن الانجليز بسفر الوفد أى سعد ورفاقه إلى باريس كما أرسلوا لجنة انجليزية برئاسة الاستعماري القارح ملتر لتحطيم الحركة الوطنية باغراء عناصر أخرى ، غير أعضاء الوفد ، حتى يقبلوا الحكم ويضربوا الأمة بالحديد والنار كي تقبل الاستعمار البريطاني وتخضع له .

ووصلت لجنة ملتر إلى مصر في ديسمبر من ١٩١٩ . وكان سعد ورفاقه أى الوفد المصري ، في باريس . فكان إرسال هذه اللجنة بمثابة التلصص على الحركة الوطنية أو الدخول إليها من الباب الخلفي للاتفاق مع العناصر التي ليست مع سعد . ولكن الشعب قاطع هذه اللجنة . بل إن محمد سعيد باشا رئيس الوزراء استقال احتجاجاً على ارسال هذه اللجنة مع وجود الوفد المصري في باريس .

واستطاعت لجنة ملتر وهي في مصر أن تقنع عدلى باشا بالمفاوضة مع الانجليز . وكان سعد والوفد ، وهما في باريس ، يطالبان باستقلال مصر باعتبار هذا الاستقلال جزءاً من مفاوضات الصلح العام في ١٩١٩ . وسافر عدلى إلى سعد وأقنعه بضرورة السفر إلى لندن في مايو من ١٩٢٠ للمفاوضة . وهنا تغير موقفنا . فقد كان سعد والوفد يطالبان الاستقلال باعتباره من القضايا التي تتجاوز حق الانجليز أو حق استثمارهم في بحثه . وأن الدول المجتمعة في باريس ، أى الولايات المتحدة وفرنسا وسائر الدول الصغرى ، لها حق البحث لهذا الموضوع إلى جنب بريطانيا . ولكن عدلى نقل هذه القضية من

هذا الموقف الرحب إلى موقف حرج هو المفاوضة مع الانجليز فقط . وتقهقرت القضية المصرية خطوات إلى الوراء بهذا الموقف الجديد . وسافر الوفد المصرى إلى لندن . فطلبنا نحن الاستقلال وطلب الانجليز الاستعمار . وهذا هو ما كان ينتظر . وكان الانجليز يرمون إلى تضعف الروح الوطنى بمرور الأشهر حين يجد المصريون ركوداً وعملاً فتموت الحركة الوطنية .

وعاد سعد والوفد المصرى إلى مصر . وشرع سعد يبعث الحرارة والنشاط فى الأمة بالخطب والمنشورات . وكان عدلى قد فشل فى مفاوضاته مع الانجليز . وقد وصف سعد هذه المفاوضات بأن جورج الخامس يفاوض جورج الخامس ، وكثرت الاضطرابات . فعمد الانجليز إلى العنف والعسف فألقوا القبض على سعد ورفاقه ونفوههم فى ١٩٢١ إلى سيشيل . واتبع الانجليز سياستهم وهى الاغراء . فأعلنوا « استقلال » مصر فى ٢٨ فبراير من ١٩٢٢ بشروط أربعة هى حق الانجليز فى :

- ١ - حماية المواصلات الامبراطورية فى مصر .
- ٢ - الدفاع عن مصر ضد أى اعتداء أجنبى .
- ٣ - حماية الأجانب والأقليات .
- ٤ - بقاء السودان على ما كان عليه .

وفى ١٩ أبريل من ١٩٢٣ اختارت الحكومة ثلاثين من الأشخاص البارزين فوضعوا الدستور المصرى . وكان سعد ورفاقه قد أعيدوا من المنفى وتولى هو أولى الوزارات الدستورية فى ١٩٢٤ .

وفي سنى الثورة هذه ، فى الوقت الذى كان يعمل فيه سعد ورفاقه ، ويهدم فيه خصومه ما يحاول أن يبنيه ، فى هذا الوقت كان الشعب يختمر ويبنى روحاً جديداً . فقد حفظت مبادئه ولسن وكان الطلبة والموظفون والتجار يتناقشون فيها ويجدون فيها إيماء لكأخفة الانجليز وتحقيق الاستقلال . وكانت المظاهرات من الطلبة والنسوة بل كانت الغزوات من الريفيين على السكك الحديدية وأسلاك التلغراف . كل هذا ، على ما وقع فيه من شطط ، كان يبعث النشاط فى الأمة . وكان خروج النسوة فى المظاهرات ليس ثورة على الانجليز وحدهم بل كان ثورة أيضاً على ألف سنة من ظلام الحجاب . فقد كن يخرجن مقنعات بالبراقع البيض فى المظاهرات الأولى . ولكن لم تمش أشهر حتى كن قد خلعن البراقع . وتألقت منهن لجان فى الوفد . ومن القصائد التى نظمها حافظ ابراهيم قصيدة فى وصف المظاهرات الأولى للسيدات المصريات فى ١٩١٩ . وكان الانجليز لا يأفون حتى من ضربهن كما كانوا يفعلون بمظاهرات الطلبة . قال حافظ :

خرج الغولن يتهيج	ن ورحت أرقب جمعهنه
فاذا بهن تخذن من	سود الشياب شعارهنه
فطلعن مثل كواكب	يسطعن فى وسط الدجنه
وأخذن يجترن الطريد	ق ودار «سعد» قصدهنه
يمشين فى كنف الوقا	ر وقد أبن شعورهنه
وإذا يجيش مقبل	والخيل مطلقة الأعنة

وإذا الجنود سيوفها
 وإذا المدافع والبنا
 والخيـل والفرسان قد
 والورد والريحان في
 فتطاحن الجيشان سا
 فتضعضع النسوان والنسوان
 ثم انهزمن مشتنا
 قليهنأ الجيش الفخو
 فكأنما الألمان قد
 وأتوا بهندنبرج مخ
 فلذلك خافوا بأسهـن
 قد صوبت لنحورهنه
 دق والصورم والأسنه
 ضربت نطاقاً حولهنه
 ذاك النهار سلاحهنه
 عات تشيب لها الأجنه
 وان ليس لهن مئته
 ت الشمل نحو قصورهنه
 ر بنصره وبكسرهنه
 لبسوا البراقع بينهنه
 تفيأ بمصر يقودهنه
 ن وأشفقوا من كيدهنه

وكننا في تلك الأيام لا نستطيع السفر إلا باذن من موظف انجليزي ولو كان الانتقال لا يتجاوز ما بين القاهرة وبنها . وأذكر أني حين أردت الحصول على هذا الاذن دخلت على الموظف الانجليزي فجابهني بقوله : استكلال ؟ بلهجة التهكم .

وكان الأقباط يداً واحدة مع المسلمين ولم تنجح دسائس التفرقة . حتى كان الشبان المسلمون يخطبون من منابر الكنائس والشبان الأقباط يخطبون من منابر المساجد ، وقد عرفت بعد ذلك أنه كان في الثورة العرابية في ١٨٨٢ مثل هذا الاتفاق أيضاً إذ كان يرافق عبد الله نديم خطيب الثورة قسيس ينهض بعده ويخطب في الدعوة

إلى الاتفاق بين العنصرين وحق الأمة في الحكم التلياني التام . وكان بديهاً أن يقتل بعض الانجليز من الأبرياء في مثل هذا الاختلاط . لأن الانجليزى ، أيا كانت شخصيته ، كان رمزاً للاستعمار . ولكن الانجليز كانوا وحوشاً يهاجمون القرى ويصبون البنزين عليها ويحرقونها . وكانوا ، عقب تحطيم الترام ونزع قضبانه في القاهرة ، يقبضون على الأفندية ويطرحونهم على الأرض ثم يجلدونهم . وبعد الجلد يجبرونهم على العمل في ترميم القضبان المنزوعة . وحدث أن قطع الخط الحديدى للدلتا فيما بين الزقازيق وميت غمر . فقصده الجنود الانجليز إلى مكان القطع واحتشد الفلاحون المساكين نساء ورجالا وأطفالا ، في سداجة ، في ذلك المكان . والأغلب أنهم لم يشتركوا في قطع هذا الخط . ولكن الانجليز عندما اقتربوا منهم صوبوا عليهم البنادق وقتلوا منهم عدداً كبيراً .

وكل هذا التقتيل في المصريين نسيه الانجليز وذكروا فقط العدد القليل من قتلاهم . فأنشأوا المحاكم العسكرية لمحاكمة المصريين الذين اتهموا بقتلهم ، وكانت هذه المحاكم تحكم بالاعدام . وما زلت أذكر نادراً مضحكة وقعت لى في تلك الأيام . فقد ركبت حماراً من الزقازيق أقصد إلى العزبة . وبيننا أنا في الطريق خرج إلى أحد الفلاحين من حقل قريب وأخبرنى أن الانجليز يرمون الخط الحديدى على مسافة فهمت أنها تبلغ نحو كيلومتر . واقترح على أن أختار طريقاً أخرى لأنهم ، إذا اجتزت بهم ، سيلقون القبض على ويجبروننى على العمل معهم في الخط الحديدى . وبيننا هو يتحدثنى خرج

على صبي وعرض على أن أشتري منه جرو ذئب . فنفتحته بقرش وأخذت الجرو ، وسرت في بطاء أفكر في طريق أخرى أتجنب بها الانجليزية . ولكن الفلاح الذي أوهمني أن بيني وبينهم نحو كيلومتر كان مخطئاً أو هو لم يحسن التعبير عن المسافة . لأنى وأنا لا أزال في التفكير عن طريق أخرى خرج على انجليزية من خلف جميزة غليظة وهجم على وجرني في عنف إلى الأرض وطلب منى العمل مع سائر من قبض عليهم . وكان الجرو لا يزال يدي . فقلت له : هل لك أن تأخذ هذا الذئب وتخلي عني ؟ فلم يصدق أنه ذئب . ولكنه بعد أن لوح بيده أمامه وكثر له الجرو عن أنيابه سلم بأنه ذئب وقبل الصفقة . بل زاد عليها ان حمل الجرو وأنا على الحمار وحرسنى من زملائه حتى اجتزت مكان الترميمات وسرت في طريقى وأنا أتعجب من هذه المصادفة الحسنة وفضل هذا الجرو على .

وتبرز في ذهنى ثلاثة أشياء من ثورة ١٩١٩ :

أولها الاكبار العظيم للموقف الوطنى الذى اتخذه الأقباط ورفضهم أية مساومة مع الانجليزية بشأن حماية الأقليات . فان شباب المسلمين وكهولهم كانوا لا يزالون يذكرون موقف الحزب الوطنى وما كان يدعو إليه من الجامعة الاسلامية ونفور الأقباط من هذه الدعوة . ولذلك كانوا يتشككون في موقفهم في ١٩١٩ . ولكن الأقباط كانوا على الدوام في المقدمة . بل كان منهم كاهن هو القسيس سرجيوس الذى كان لا يبالي أن يقول ويكرر القول بأنه إذا كان استقلال المصريين

يحتاج إلى التضحية بمليون قبطنى فلا بأس من هذه التضحية . وعندما كانت لجنة الدستور تبحث قانون الانتخاب طلب توفيق دوس باشا أن تكفل حقوق الأقباط فى الانتخابات بالتعيين ، أى إذا لم ينتخب منهم العدد الذى يمثلهم فان الحكومة تعين هذه عدداً من الأقباط حتى لا يكون هناك نقص فى التمثيل . فهبنا ، نحن الشبان فى ذلك الوقت ، نزيه هذا الرأى ونقول بالاكتفاء بالانتخاب .

والشئ الثانى الذى يبرز فى ذاكرتى من هذه الثورة هو وثبة المرأة المصرية من الأنثوية والبيت إلى الانسانية والمجتمع . فقد سزق الحجاب وشرعنا جميعاً نعد المرأة المصرية إنساناً له حقوق الانسان بعد أن كنا نتكلم عنها باعتبارها ربة البيت أو الزوجة أو غير ذلك من الصفات التى كنا نصف بها « المخدرات » . وقد زالت هذه الكلمة الآن من لغتنا .

أما الشئ الثالث فهو النهضة الاقتصادية التى أثمرت بجهود طلعت حرب وغيره ، بنك مصر وسائر توابعه من الشركات الأخرى . وبهذا البنك مسحت عن جباهنا الوصمة التى كان يعيرنا بها المستشار المالى برونيات بقوله إنه ليس بين المصريين من يعرف أعمال البورصة .

هذا فى شئوننا الداخلية . أما فى شئوننا الخارجية فان ثورة ١٩١٩ علمتنا كيف ننظر إلى الدولة باعتبارنا أمة مستقلة لانجربى فى ذيل بريطانيا . ولكن استطاع الانجليز بعد ذلك أن يحطموا استقلالنا ويزيفوا دستورنا على يد زيور واسماعيل صدق وأمثالهما .

ولكننا نحن رجال الذهن المتصلين بالعقل العام في أوروبا وأمريكا كنا نتطلع إلى آفاق أخرى . ومن الحسن أن يعرف القارى الشاب بعض اختباراتنا ومشاهداتنا في أعقاب الحرب الكبرى الأولى ويقارنها بما رأى هو وشاهد في أعقاب الحرب الكبرى الثانية .

ففي ١٩١٩ كانت مبادئ ولسن مذهباً جديداً يشبه الدين المدنى الجديد للبشر على كافة الأرض . وكانت حماستنا لهذه المبادئ أحر من الحماسة التي تلقى بها العالم مبادئ روزفلت في ميثاق الأطلنطي والحريات الأربع . وظنى أن من أكبر الأسباب لحمود الحماسة هنا هو ما لقيه العالم من التزييف والتعويق لمبادئ ولسن في ١٩١٩ . وقد حدثت ثورتان في الحرب الكبرى الأولى . الأولى في ١٩١٧ في روسيا حين تسلم الشيوعيون الحكم وألغوا الاستلاك الشخصى للعقارات . وهاج الامبراطوريون في فرنسا وبريطانيا ويولونيا وإيطاليا وأنفذوا الجيوش إلى روسيا لقتل هؤلاء الشيوعيين . بل إنهم استخدموا الجيش الألماني المتهور لهذه الغاية أيضاً .

ومما لا تزال نذكره أن أتلى وييفن وهما من أعضاء الوزارة البريطانية الحاضرة (١٩٤٧) كانا يحرضان العمال على عصيان الحكومة في شحن الدخائر والأسلحة إلى روسيا . ونجحا في إيجاد إضراب في المواني الانجليزية . وفشل تشرشل في تهيئة حملته على روسيا لهذا الاضراب . وأحدثت الثورة الروسية دهشة عامة . وكان الامبراطوريون ينشرون الدعاية ضدها بألوان مختلفة ، مثال ذلك أن الروس قد ألغوا الديانة والزواج . وإن هذا هو عاقبة الالغاء للاستلاك الشخصى .

ولكن أهم من الثورة الروسية في نظر الجمهور المصري تلك الثورة التركية التي قام بها مصطفى كمال حين ألغى عرش السلاطين كما قطع علاقة تركيا بالشرق . ذلك أننا منذ ١٨٨٣ كنا نتطلع إلى تركيا باعتبارها « دولة الخلافة » وكنا نأنس إلى خيال لم يتحقق قط هو أنها يجب أن تحمينا وأن ندخل في حظيرتها ونكون معها سلطنة عثمانية كبرى . فلما جاء مصطفى كمال يهدم الأسس ويوجه الأتراك نحو الغرب بدلا من الشرق وبلغى الخط العربي ويستبدل به الخط اللاتيني ويفصل الدين من الدولة وينفض العرب والعربية عن تركيا الجديدة ، لما أحدث مصطفى كمال هذه الأحداث تنبه التقليديون في مصر إلى احتمالات سياسية أخرى وانخازوا إلى الاستقلال المصري باعتبار أنه كل شئ في أهدافنا السياسية . وفرق عظيم بين هذه العقلية الجديدة وبين العقلية القديمة التي كان يتسم بها الشيخ على يوسف في « المؤيد » حين دعا حوالي ١٩٠٧ إلى أن ترسل مصر سبعوثها أي نوابها إلى مجلس المبعوثان في الأستانة . بل كانت هذه عقلية مصطفى كامل أيضاً . أي أنهما كانا يفسران الاستقلال المصري بأنه الانضواء إلى الراية العثمانية .

وبالطبع كان الاختلاف كبيراً بين الجمهور المصري بشأن ثورة لنين وثورة مصطفى كمال . ولكن الشعور العام إزاء هاتين الثورتين أن العالم القديم يحطم الأغلال وينطلق في حرية جديدة . ولا عبء بأنه في انطلاقه هذا يتعثر ويكبو ، لأنه سوف ينهض ويستتر وقد بعثت فينا هاتان الثورتان تفاقولا عظيما كما بعثتا تشاؤماً عظيما

أيضاً عند المستعمرين الانجليز . ومن هذا التفاؤل أنى أنا وبعض الاخوان ألفنا حزباً اشتراكياً فى ١٩٢٠ حاربتنا الحكومة بشأنه حتى قتلته .

أما حال ألمانيا فكانت شنيعة ، فانه عقب الهدنة منع الانجليز وصول الأقوات إليها أحد عشر شهراً حتى قيل إن جميع الأطفال هناك أصيبوا بالكساح . ثم هبت ثورة سبارتكوس لتحقيق الشيوعية فى يناير من ١٩١٩ . ولكن فشلها كان عاجلاً وخاصة بعد قتل الزعيمين كارل ليبنخت وروزا لكسمبرج . ثم جاء بعد ذلك انهيار المارك الألماني . وقد خسر فيه آلاف من المغامرين المضارين فى مصر وغيرها حين أنزله الألمان إلى الصفر وأخرجوا نقداً جديداً . فكنا نرى فى مصر كيساً من الأوراق يحمله أحد هؤلاء المغامرين ويقول إنه كلفه ألفاً أو خمسمئة جنيهه وهو الآن لا يساوى ملياً .

وقد جاءت هذه الأحداث عقب الحرب الكبرى الأولى فى تواتر فكانت مجالاً للتأمل والتفكير والحديث : مبادئ ولسن ، الثورة الروسية ، الثورة المصرية ، الثورة الألمانية ، ثورة مصطفى كمال . ولكن كل هذه الأحداث لم تكن شيئاً فى جنب القنبلة الذرية فى أغسطس من سنة ١٩٤٥ . لأن هذه القنبلة تلقى من الآن ضوءاً أوظلا على مستقبل البشر بعد ألف بل آلاف السنين .

زوجة وأطفال

لم أكن طوال عزويتي أفكر في الزواج . ولكن كانت أمي تلح عليّ كما هو الشأن في جميع الأمهات . وكنت من وقت لآخر أستمع لندائها وأزور هذا البيت أو ذلك ، حتى إذا أوشكت أن أجد الفرصة وإن كل شيء مهيباً لاتمام الزواج ، كنت أفزع وأفر بالسفر أو أتمحل الأعدار الكاذبة . وماتت أمي في ١٩١٦ . وكنت في الثامنة أو التاسعة والعشرين فلم أعد أجد الحافز إلى التفكير في الزواج . وبقيت على ذلك إلى ١٩٢٣ .

وليس شك أنه كان للصدمة التي لقيتها أيام حبي لتلك الفتاة الأيرلندية ، وأنا في إنجلترا ، أثر في كاستي لكراهتي أو تجنبي للزواج . فلم يكن يقترح عليّ أحد الزواج بعد هذه الصدمة إلا وأتهد في حسرة وأسف . ثم أصد في جمود وعزوف ، ولكن في ١٩٢٣ زرت مع صديق لي بيتاً لبعض أصدقائه ، فوجدت هناك فتاة قد أئبغ شبابه . وكانت لا تزال بالمدرسة وقد قعدت إلى مكتبها وهي مشغولة بالكراسة والكتاب والقلم . وتحدثت إليها قليلاً عن مشاغلها المدرسية . ونهضت وودعت وفي نفسى هواجس . وفي اليوم التالي وفي نفس الميعاد حملت صديقي على معاودة الزيارة . وأدرك هو مأربي واستجاب لرغبتى في سرور .

وبقيت معها في هذه الزيارة الثانية أكثر من ساعتين . ثم تجرأت بعد ذلك على أن أزورها وحدي وتجبراً والداها على أن يتركنا معاً . وبقيت خطبتنا نحو خمسة أشهر لم أقطع عن زيارتها يوماً واحداً . وأيام الخطبة تعد من أسعد الأيام لأن الخطيبين يحسان أنهما في مؤامرة سرية يرتكبان فيها المخالفات للعرف والقواعد الاجتماعية . وفي الخطبة نحوم ولا نرد . ونحسو ولا نعيب . فيزيدنا هذا شوقاً من يوم إلى يوم . وقد تعلمنا طرقاتاً في التخلص من أحد الوالدين أو أحد الأخوة وكنا نجد لذة عظيمة في ممارسة هذه الطرق وخاصة حين كان أحدنا يلقى خبراً يؤدي إلى جلاء هذا القاعد الذي لا يريد أن يفهم أننا نرجو خلوة . وعقب الزواج وجدت صعوبتين أولاهما أني أحترف الأدب والصحافة وأتعلق بالقراءة وهوايتي هي الثقافة . والزوجة تعد الانفاق على الكتب إسرافاً . ثم هي أيضاً لا تطيق رؤية زوجها وهو غارق في كتابه طوال الوقت أو معظمه في البيت . وخاصة إذا كانت هي لم تتعود إدمان القراءة . والصعوبة الثانية هي التفاوت العظيم بين مستويينا الثقافيين . فان الانجليز كانوا قد حرموا التعليم الثانوي ، ولم يكن في القطر المصري كله مدرسة ثانوية للبنات تديرها وزارة المعارف إلى سنة ١٩٢٥ ، وكانت زوجتي قد تعلمت في مدرسة فرنسية من تلك المدارس التي تديرها الراهبات ويتجه فيها معظم العناية إلى التعليم الديني . ولذلك وجدت أنه للتغلب على هاتين الصعوبتين أن أشرع في تعليمها من جديد . فصرت أشركها فيما أكتب وأناقشها في جميع الموضوعات الثقافية التي أهتم بها . وبدهي أن كل زوجة تهتم

بحرفة زوجها . ولما كانت حرقتي هي الصحافة والأدب والعلم فانها اضطرت إلى تتبع نشاطي حتى ارتفعت على مستواها السابق كثيراً . وبهذا صح الوافق بيننا بل أكثر من ذلك إذ هي قد أصبحت صديقتي كما هي زوجتي . وظنى أن خير طريق إلى الصداقة الضرورية بين الزوجين في مصر أن يرفع الزوج زوجته إلى مستواه الثقافي . إذ هو حين يقصر في ذلك يجد أن التفاهم معدوم أو ملتبس . فلا يكون الحديث بينها إلا في الشئون التافهة ويعودان وكل منهما يعيش في عالم منفصل من العالم الذي يعيش فيه الآخر . والصداقة التامة تحتاج إلى التكافؤ الثقافي بينها أو ما يقاربها .

ومن عجب أنى ، مع الدكتور كامل لبيب ، ألفت كتاباً عن ضبط التناسل أنصح فيه بمنع الحمل إلا عن وجدان ودراية بما يتفق ومصلحة الوالدين والأطفال . ولكنى مع ذلك أجد عندى ثمانية من الأولاد حتى يصح أن أواجه بالبيت القائل في إحدى شطرتيه :
هلا لنفسك كان ذا التعليم ؟

ولكن هناك ظروفاً جعلت المخالفة للكتاب الذى ألفته قهرية . فان الأطفال الأربعة الأولين كانوا أنثى . فكان الشوق إلى ولد ذكر حتى أنجينا به . أما من زادوا فكان سبب وجودهم نقصاً صيدلياً في منع الحمل . وللرأى العام في إثارة الذكور على الاناث قوة تجعل أم البنات تحس كأنها موصومة وتشتاق صوتاً لكرامتها إلى أن تلد ذكراً . وهذه « غريزة » اجتماعية عامة . وقد عاش أولادنا جميعاً ولم يمرض أحد . وأنا أعزو هذا إلى أننا تعودنا من سنين أن نشرب اللبن نيئاً لا يوضع

على النار بتاتاً ، ولم يحدث قط أن احتجنا إلى أن نغير هذه العادة . وقد وجدت من نحو عام مقالا لأحد الانجليز يدعو فيه إلى تناول اللبن نيتاً ويقول بأن غليه على النار يفقده كل ميزاته تقريباً .

والأولاد في البيت ، حين يرفرفون ويغردون ، يملأون الجو حياة بل يزيدون الحياة حيوية . وليس شيء أجمل وألذ من رؤية الذكاء ينبجس في الطفل وهو في سنه الأولى حين يسأل ويستطلع . والأطفال أحياناً عذاب جهنمي عقب الغداء أو وقت القراءة أو الكتابة . ولكنه عذاب حلو سرعان ما ننسى آلامه . فان الابتسامه التي تشرق على وجه الطفل تضيء الجو وتقشع كل ما تكاثف فيه من غيوم . والآسفة الصغيرة التي اشترت فستاناً جديداً تسير به في خيلاء وطرب كأنها في عيد تملأنا سروراً وبهجة . ومنذ أن شببت عن الطفولة ، كانت تمر بي الأعياد فلا أعرفها إلا من الجرائد أو الأصدقاء إلى أن امتلأ البيت بالأولاد فعادت الأعياد مهرجانات . فيكون منها صدام قبل ميعادها بشهر ، ونحن في مساومات بشأن البذلة الجديدة والحذاء الجديد والفستان الجديد ، حتى إذا كان يوم العيد زهى البيت بالأحمر والأخضر وامتلات أرضه بقشور النقل وضج هواؤه بالصواريخ وتجاويت جدرانها بصيحات الحماسة والسرور .

ولكن الأولاد مع كل هذه المسرات يحملون الآباء على النكوص بدلا من الأقدام وعلى البخل بدلا من السخاء . وقد يقال إنهم يزيدون مسؤوليات الآباء ويجعلونهم اجتماعيين بعيدين عن الشذوذ أو الانحراف الأخلاقي أو الاجتماعي . وهذا القول صحيح ولكنه يحمل في طياته

أيضاً معنى الجبن والخوف من الاقتحام . لأن الأب يفكر كثيراً ويقلق كثيراً بشأن المستقبل ، مستقبل أولاده ، وليس مستقبله . وهذا التفكير أو القلق يحمله من حيوان حر جرى ينطلق في مفاوز الحياة ويقتحم غاباتها إلى حيوان مدجن كأنه دجاجة لا ينشد غير السلامة . ولذلك من الشاق ، كل المشقة ، أن ينشد الحجد ، الذي يحتاج إلى أن ترقى إليه السموات ، رجل متزوج له أولاد .

وحين نحترف الأدب نحتاج إلى شجاعة قد تحملنا على ألا نبالي بالرأي العام وعلى أن نحدد التقاليد ونخرج على السنن . لأن الأديب الحق يجب أنه يحتاج في بعض الأوقات إلى أن يغير القيم والأوزان الاجتماعية والأخلاقية وأن يجهر بما يجبره عن الجهر به . ولكنه حين تحدثه نفسه بذلك ، يجد نداء العائلة أي الزوجة والأولاد صارخاً في وجدانه : قف . ألا تتذكر ابنتك هذه التي ستزوج بعد عام أو عامين ؟ فينكص في جبن وذلة . وصوت الزوجة هنا هو صوت الضمير الاجتماعي الكامن . والزوجة في البيت تمثل المجتمع بعاداته وعرفه وشعائره فإذا ثار الزوج وحاول أن ينفصل ويطير ويخلق غير آبه للمجتمع جرته هي إلى الأرض .

ولهذا السبب أثر كثيرون من المفكرين والأدباء العزوية على الزواج . بل أحياناً وقفوا فيما يشبه منتصف الطريق بين العزوية والزواج . كما فعل هافلوك أليس . فانه تزوج . ولكن ، بالاتفاق مع زوجته ، عاش كل منهما مستقلاً في منزله الخاص . كما أنهما امتنعا عن التماسل . وقد قرأت سيرتهما كما كتبها كل منهما وكما كتبها ثالث

التصل بهما فوجدت أنهما نجحا في تحقيق الحرية التي ابغياها . وعاش كل منهما في استقلال فكري وفني وفلسفي . وهذا الانفصال بينهما في العيش زاد رباط الحب والصدقة قوة بينهما . حتى لقد روى عنهما أن شخصا لا يعرفهما رأهما في التظار معاً . فظن أنهما خطيبان . وذلك لما رأى من سلوكهما الغرامى ووفرة الكلمات والایماء التي كانت تدل على شوق مفرط وحب عميق . مع أنهما كانا قد مضت على زواجهما السنين . ولكن يجب أن أقول إنى أحسست عقب قراءة سيرتهما أن الزوج استمتع بالاستقلال والعزلة . ولكن الزوجة تألمت منها كثيراً حتى أنها وقعت أو أوشكت أن تقع فى هاوية الشذوذ الجندى سرّة وفى هاوية الانتحار مرة أخرى . ولكن قد يعترض هنا بأن المركز الاجتماعى للمرأة فى الحضارة القائمة لا يتيح لها الاستمتاع باستقلالها . لأنه أى هذا الاستقلال كثيراً ما يكون غريباً لها بدلا من أن يكون غنياً . إذ هى محرومة من كثير من الفرص التي تكسب الرجل كرامته الاقتصادية والاجتماعية . وأنا أسلم بكثير من هذه الحجة . ولكنى أكتب فى حدود الحضارة القائمة .

وشخصية الأديب الصميم هى ، سيكولوجياً ، شخصية سيكوبائية ، أى أنه والمجرم سواء . ولكن الفرق بينهما أن المجرم ينحرف إلى أسفل المجتمع . والأديب ينحرف إلى أعلى . كلاهما متقلقل متأفف نازع إلى الشذوذ لا يرضى بأوزان المجتمع وقيمه . وكلاهما مكروه من الرجل العادى . وكما أن العائلة من العوامل الكبرى التي تحول دون الاجرام كذلك هى أيضاً من العوامل الكبرى التي تحول دون الأدب

أو تعوق رسالته . أو بكلمة أخرى ، تعمل العائلة للاعتدال وتحول دون الشطط ، الاجرامى والعبرى معاً .

وكل ارتباط هو ، فى معنى ما ، تقيد . فان الارتباط ، بالمذهب أو بالحزب السياسى ، يقيد الأديب ويحد من حريته . ومن هنا دعوة ألدوس هوكسلى الأديب الانجليزى وأندريه جيد الأديب الفرنسى إلى « الانفصال » أى يجب أن يتفصل الأديب من الأحزاب والمذاهب ويستقل فى فنه وتفكيره . والحق أن لهذا القول وجهاً بل وجوهاً من الصواب . وخاصة فى عصرنا هذا حيث ترى الأحزاب تستخدم الأديب لتأدية أغراضها بل أحياناً أغراضها السافلة . ولكن عصرنا هذا أيضاً يتسم بصراع روحى بين الحق والباطل . والأديب الذى تنفذ بصيرته إلى ضمير هذا الصراع ويقف على البيئات والمعارف إنما يكفر بحرفته وفنه إذا هو تكص عن الدفاع عن الحق . وإذن ليس هناك مجال فى عصرنا لهذا الاستقلال المزعوم . فللاديب المخلص حزب كما أن له عائلة وهو يرضى بشئ من القيود يتقيد بها فنه كي يبقى متصلاً بالمجتمع يدرس ، عن اختبار ، مشكلاته ويجعلها أساس الفن ومحور الحرفة .

وقيود العائلة مع ذلك لها ما يقابلها من الميزات بما تهى للاديب من نظام فى المعيشة لا يحصل على مثله الأعزب الذى يتعود عادات التسكع . ثم إذا كانت مسئولية الأبطال تؤخر أو تنقص من الشجاعة والحرية فانها أيضاً تزيد الأحساس الاجتماعى وتصل بين الأديب وبين المجتمع بروابط قوية تجعله على قدرة لخدمته .

والانسان يتربى بعائلته ويزداد بها فهما للطبيعة البشرية . فالأولاد يربون الآباء كما يربي الآباء الأولاد . لأننا ونحن نربي أولادنا نبصر بالطبيعة البشرية في سذاجتها واستطلاعها وتمردها . وكل بيت هو لذلك معهد للتجارب البشرية . وهذا المعهد يخرج العبيد ، كما يخرج الأحرار ، والمجرمين والعبقريين .

ولكني إذا كنت قد وجدت من العائلة قيوداً من الحرير فاني وجدت من الحكومة المصرية ، بايعاز الانجليز وتسلطهم ، أغللاً من الحديد . فهي التي منعتني خمسة عشر عاماً من أن أكتب حرفاً إلا بعد أن يقرأه رقيب حتى ولو كان في اللغة أو التاريخ أو السيكولوجية . وهي التي حرمتني ، الا في فترات من حياتي ، من احتراف الصحافة التي أهواها .

شخصية عرفتها

حوالى ١٩١٥ كنت بالاسكندرية مع « الصحفى العجوز » توفيق حبيب . وبينما نحن ننتزه على الكورنيش إذ قابلنا أحد الشبان وسلم فى ألفة على المرحوم توفيق . وتعارفنا . فاذا به طيب قد عاد من باريس وشرع يعمل ولكن فى غير نشاط ولذلك فهو فى قلة من الكسب . وقص على توفيق قصته . فقال إنه من أسرة عريقة فى الصعيد وأنه ورث ثروة كانت تغل له نحو خمسين جنيهاً فى الشهر . ولكنه بددها فى باريس لأنه آثر أن يعيش اذخاً فى مدينة النور والحبال . وعاد من باريس وهو لا يملك غير مهنته التى مضى عليه وهو يمارسها بالاسكندرية نحو ثلاث سنوات .

وفى اليوم التالى تقابلنا ووجدنا فسحة من الوقت تحدثنا فيها فوجدت فيه اطلاعاً واسعاً وخاصة فى البيولوجية ، والتطور ، والنظريات الاجتماعية . كما وجدت فيه حرية فكرية لم أكن فى تلك السنين أجدها لها مكاناً فى مصر ، ولذلك ائتمس كل منا بالآخر . فصرنا نعين المواعيد صباحاً ومساءً نلتقى ومنتزه وتحدث .

واتصلت معرفتى به بعد ذلك . فكنت أكتب إليه من القاهرة . وكان إذا زار العاصمة قضى كل وقته معي . وكان يعجبني منه ، خاصة ،

صراحة تكاد تكون طفلية إلى ولاء للبشرية يتجاوز الوطنية ، وإلى حب وتقدير للحرية والثقافة الحرة . وكان يكتب . كما أكتب أنا أيضاً ، في الجرائد والمجلات باسمه أو باسم مستعار عن شؤون علمية أو إنسانية .

فلما كانت السنين الأخيرة للحرب الكبرى الأولى انقطعت عني أخباره ، فظننت أن مرجع ذلك إلى وفاة عمله ، ولم أبال كثيراً ، وقلت في نفسي إذا ذهبت إلى الاسكندرية فاني لا بد واجده .

وذاذات يوم مشنوم من سنة ١٩٢٠ كنت في الترام بالقاهرة . فرأيت شخصاً زرباً رث الملابس شعث الشعر يواجهني في آخر العربة ويسلم علي . فلم أurd السلام لأنني ظننت أنه لا بد قد قصد غيري . فتلفت حولى كي أجد أحداً آخر يرد عليه السلام فلم أجد . فعدت أحديق فيه ، وعاد هو يسلم علي . وفي لحظة شعرت كأن قلبي قد استحبال إلى كرة ثقيلة وأنه يسقط في جوفى . فقد فزعت وارتعت ، أجل هو صديقى الطيب . صديقى الحميم الذى أحببته وأحببني ، صديقى الذى كنت أقعد معه وأنظر إلى عينيه فأكاد أعرف كل ما فى ثنايا عقله من أفكار وأوهام وآمال . ونهضت إليه . وتكلمت وسألت وأنا فى لهفة عما حدث له . وعرفت شر ما يعرف .

ونزلنا من الترام وقعدنا فى قهوة قريبة . وقص على قصته بل بأساتته وهى أنه وقع ضحية للكوكئين . . . وأنه قد مضى عليه أعوام وهو يتناول هذا السم وأنه لم يعد يطيق تركه . وما أعجب ما تغيرنا الملابس ! فان هذا الطيب الحبيب لم يتغير شئاً فى وجهه

إذا استثنيت شحوباً وهزالاً . فملاحظه الحلوة ونعومة صوته وبريق عينيه بل إيماءة يده ، كل هذا كان كما عرفت من منذ خمس سنوات .

ولكن ما قيمة كل هذا إلى جانب اللحية التي لم تحلق منذ عشرة أيام؟ وما قيمته إلى جانب القميص الأبيض الذي فقد بياضه وحمل من العرق والتراب ما يدل على أنه بقي على جسمه أكثر من شهرين؟ وما قيمته إلى جانب الصدر الذي بان عنه القميص فبرزت عظامه ، وإلى جنب البنطلون الذي تمزق من خلفه الأعلى . . .

كنت إزاء شخصية هذا الصديق وأنا أحس أن الكوكبيين قد فصل بيننا . كأننا من كوكبين مختلفين . فقد مضت عليه مدة طويلة انقطع فيها عن عمله وعن قراءة الصحف وعن الاختلاط بعائلته التي قاطعته . ومع أنى كنت أعرف أن المدسّن لهذا السم يحتاج إلى معالجة طويلة فإن أسفى عليه حملنى على أن أطلب منه أن يكف ويقلع . ولكن إجابته لهذا الطلب ردت إلى وجداني وجعلتني أدرك أنني إزاء مريض له منطق آخر . ولم نعد نتحدث عن العلم أو السياسة أو الأدب . لأن كل همهم معنى كان الحصول على ريال يشتري به جرماً أخرى . وأخرجت له كل ما في جيبى وأنا واثق أنه سينفقه في هذا الشر .

وبهذه المقابلة « تجددت » صداقتي له . ولكنها كانت صداقة من نوع آخر . إذ كان همه الوحيد أن يحصل منى على الريال وكنت حين ألقاه أسلمه المبلغ وأنا أتوق ألا يراني أحد لأن رثائته كانت في ازدياد حتى لقيته ذات مرة بلا حذاء . . .

وفي إحدى المرات لقيته وكان لا يكاد يستر جسمه إلا بجرق مهلهلة .
فقدته إلى بيتي . وهناك سلمته بذلة كاملة ومعها الملابس الداخلية .
ومع أني أقصر منه فإن البذلة كانت على كل حال حسنة لائقة .

وقابلته بعد ذلك . ولشد ما كانت دهشتي إذ وجدته لا يزال في
الخرق المهلهلة القديمة . وعرفت أنه باع بذلتي . . .

وساءت الحال حتى صرت أتجنبه ولكني لم أفقد العطف والأسف
عليه . وذات مرة كنت جالسا في قهوة مع بعض المعارف ، ورأيت
وهو يدخل من الباب فأدرت وجهي كي لا يراني . ولكنه لمحني ، ومبر
علينا وسلم على فتعامت خجلا ممن كانوا معي . وخرج هو وظننت أن
كل شيء قد انتهى وأنه فهم أني لم ألاحظه وهو يمر بمائدتنا .

ولكن لما انتهت قعدتنا وخرجت سرت قليلا ولم أبعده . فوجدت
صوتا خلفي يلعن ويسب . . . فالتفت ورأيت فوجدت صديقي الطيب
الذي أخذ يعتب علي بكلمات الهاوية التي تردى فيها لأنني تعامت في
القهوة وهو يسلم علي . فأوضحت له موقفى . وسلمته الريال الذي
أعاد إليه الصفاء .

واشتغلت بعد ذلك في تحرير مجلة «الهلل» . وكان يزورنى من وقت
لآخر . وفي ذات مرة جاءنى وهو في اتران لم أعهده فيه . وكان ذلك
بعد غيبة استغرقت سنوات كدت أنساه فيها . فلما سألت عرفت أنه
قد شفى من الكوكسين .

وكان شفاؤه بمصادفة عجيبة بل بمأساة . ذلك أنه أحس ذات
يوم ألما موجعا في بطنه يرافقه قه . فلما قصد إلى الطيب أخبره أنه

في حاجة عاجلة إلى عملية لإخراج الزائدة الدودية التي التهمت . ولم
تمض عليه ساعة حتى كان قد أجريت له العملية في نجاح وهو غارق
في غيبوبة الكلوروفورم . والمعروف أننا لا نحس ألمين معاً . بل نحس
الألم الشديد الذي يشيننا الألم الخفيف . ولذلك أنساه تعب العملية
وتخدير الكلوروفورم ألم الحرمان من الكوكئين . ونهض من فراش
المرض بعد ١٥ يوماً وهو يرى من الاثنين : إلتهاب الأمعاء من
الزائدة الدودية والتهاب المخ من الحرمان من الكوكئين .

وفرحت بهذا الانقلاب . وأن كان الاتزان الجديد لم يثبت . فقد
كان يتغرز من وقت لآخر ولا يكاد يطيق الجلوس على الكرسي أكثر
من دقائق . ولكن صحته عادت إليه فعاد الدم يجري في وجنتيه .
وهنا انقلح في ذهني خاطر . قلت له يا دكتور ألا ترغب في
خمسة جنيهات كاملة . فأشرق وجهه وسأل في لهفة : « كيف ذلك؟ »
قلت : « أكتب لنا مقالا في « الهلال » عن الهاوية كيف تردت
فيها وكيف نجوت منها وابدأ الآن إذا شئت . وهالك جنياً » .

فوقف في احترام أو حماسة يتسلم الجنيه الذي مضى عليه بضع
سنوات لم يلامس مثله كفه . وسلمته الورق والقلم . وشرع يكتب .
ولكن أنا وهو كنا واهمين . فان اتزانه الذي لحتته فيه لم يكن
يكفي للكتابة . لأنه ما كاد يكتب خمسة سطور حتى مزق الورقة .
ثم مزق أخرى وأخرى . وأخيراً تركني على وعد أن يعود ويكتب
ما طلبته منه . وقضى نحو ثلاثة أشهر وهو يكتب هذا المقال الذي
لم يزد على خمس أو ست صفحات .

ونشرنا المقال في «الهلال». وكان مأساة. وقرأته السيدة الكريمة مدام فهمي ويصا. فاشترت نحو خمسمائة نسخة وزعتها على أعضاء البرلمان. وكان من أثر هذا المقال أن سن قانون جديد لمعاقبة المتجرين والمتعاطين للكوكيين.

وانتعشت رويداً صداقتنا القديمة بانتعاش صحته النفسية والجسمية فصرنا نتواعد وتقعدها معاً على القهوة أو في ناد. وعاد يحترف صناعته ويجد فيها شيئاً من الكسب الذي يكفي للوقار في الملابس والمطعم. وهو لا يزال حياً إلى الآن أقعد إليه فأجد النور القديم في عينيه كما أجد أثر العاصفة التي مرت به ولكن مع الانسانية والتفكير المنظم. وقد بلغ الخامسة والستين. وظنى أنه سيعيش كثيراً وسيذكر هذا الكابوس الذي جثم على عقله وأظلمه نحو خمس أو ست سنوات. ولكن ما أضع هذه السنوات...

والآن بعد نحو ربع قرن من هذا الحادث المؤلم أعود بذاكراتي إلى تلك الأيام وأتعجب وأسأل: كيف كان الكوكيين يباع في كل مكان ويشتره الجمهور بالقرش والحنيه ولا يجد أي إنسان صعوبة في الحصول عليه ثم مع ذلك كان بوليس القاهرة يعجز عن ضبط المتجرين به؟

أذكر أني كنت قاعداً مع بعض الاخوان ذات مساء في قهوة بباب الحديد. وشرع أحدهم يتشم هذا المسحوق الأبيض. فدفعني الاستطلاع إلى أن أخذ قليلاً منه وأستشقه. فأحسست انتعاشاً

أو يوفوريا . ولم أحس أى تخدر . ولما آويت إلى الفراش لم أحس أى ميل إلى النوم . فشرعت أقرأ ولا أدري متى نمت . ولكنى استيقظت فى الصباح فى الساعة العاشرة فعرفت أن الكوكبين قد أرقى ، أى نبهى ، إلى الساعة الثالثة أو الرابعة من الصباح . وتأخرى فى الاستيقاظ هو وحده الذى أذكرنى أنى تناولت قليلا من ذلك السم فى المساء السابق .

كفاحي الثقافي واختباراتي الصحفية

الثقافة إما أن تكون راكمة وإما مكافحة . وهي تركد حين تعالج موضوعات لا تثير المناقشة . وقد يرجع هذا إلى أن المجتمع نفسه مستقر يعيش في بيئة زراعية مثلاً ، أو أن حق الحكم منفصل منه إذ يتولى شئونه مستعمرون مثلاً . وقد بقينا نحن على هذه الحال نحو أربعين سنة فيما بين ١٨٨٢ و ١٩٢٢ كان مجتمعنا فيها منفصلاً من الإدارة الحكومية إلى أن تقررت لنا حقوق بالدستور . وكان المثولون من الإنجليز الذين لا تجدى المناقشة الصحفية معهم عن موضوع تعليمي أو صحي أو اقتصادي . وأذكر أن المرحوم عوض واصف حين أنشأ مجلة « المحيط » في ١٩٠٣ قال في العدد الأول إن مجلته ستعالج الشؤون السياسية والحكومية . فردت عليه « المقتطف » بأنه ليست هناك جدوى ؛ لأن المثولين لهذه الشؤون إنجليز لا يقرأون العربية .

ولكن مجتمعنا أثار المناقشة وجعل الثقافة الدينية ، عن طريق محمد عبده ، ثم الثقافة الاجتماعية ، عن طريق قاسم أمين ، موضوعاً للمناقشة الحية . وكانت حالنا في تلك السنين أشبه بحال روسيا أيام القيصر ؛ فقد كان المفكرون الروس ممنوعين من نقد السياسة ، فاتجهوا إلى الأدب . وكان علينا في مصر حظر

عام بشأن السياسة وانتقاد الحكومة ، فاتجه النقد نحو المجتمع .
 وفي أيامى الأولى ، فى بداية وجدانى الأدبى ، وجدت مجالات
 « المتتطف » و « الهلال » و « الجامعة » ، من الحركات الذهنية ،
 بل أكسبتنى هذه المجالات توجيهاً تجديدياً فى العلم والأدب . وكنت
 قائماً بهذه الثقافة . ولولا حادثة دنشواى لما التفت إلى السياسة أدرس
 أصولها وأعنى بتفاصيلها فى السنين العشر الأولى من هذا القرن .
 وكانت نظرية التطور التى فهمت مغزاها من « المتتطف » البذرة
 الخصبية فى ثقافتى . فقد أكسبتنى معرفة وأسلوباً ، وعينت لى أصدقائى
 وخصوصى من المؤلفين والمفكرين . وغرست فى مزاج الكفاح لأنها
 تصدت للعقائد والتقاليد . وقد تشعب الكفاح من هذه البؤرة إلى
 موضوعات أخرى ؛ ولذلك لم أسعد قط بالبرج العاجى . كما أن مغزاها
 الخطير فى التفكير العلمى والاجتماعى جعلنى دائم الشك كبير الاستطلاع
 والمساءلة . وتغيرت الأوزان والقيم عندى ، وأخذت بقم وأوزان جديدة
 ترى على لجأحتها فى « مقدمة السبرمان » التى ألفتها وسنى نحو ١٩٠٩ سنة .
 ففى هذه الرسالة أجدنى أقول بالاشتراكية واليوغينية والتطور
 وتنظيم الدولة والمجتمع لايجاد السبرمان أى الانسان الأعلى الذى
 نكون نحن منه بمكان الغوريلا أو الشمبىزى منا . وقد كان التفكير
 عندى فى هذه الشؤون أقرب الأشياء إلى ما يمكن وصفه بأنه « غيبيات »
 علمية ، أخذت مكان الغيبيات الدينية وقتئذ . وفى السنة التى ألفت
 فيها هذه الرسالة (١٩٠٩) نشرت مقالا فى « المتتطف » بعنوان
 « نيتشه وابن الانسان » وفى « الهلال » مقالا عن الاشتراكية التى

أسميتها وقتئذ « الاجتماعية » ؛ وهذا الاسم الثاني أقرب إلى الكلمة الأوروبية من كلمتنا الشائعة الآن « الاشتراكية » . وألقت رسالة في هذه الموضوعات بعثت بها إلى مطبعة المقتطف كي تطبع . فقدمها إلى المطبعة مع نحو ثمانى صفحات مجموعة ، وكنت في لندن ، واعتذرت عن التوقف عن الطبع لأن القانون في مصر يعاقب على نشر هذه الآراء ، ونزلت عن أجر الطبع للصفحات الثمان .

وقد كان هربرت سبنسر يقول إنه يستطيع أن يعرف المستوى الذهني لأي إنسان بعد مدة قصيرة من التحدث معه . وهو يعنى بهذا أن لكل منا كلمات أو عبارات محورية تتكرر أو يلتفت إليها الذهن كثيراً وهي تدل على اهتمامات المتكلم أى تدل على ثقافته مادة واتجاهاً . وحين أرجع إلى نفسى أبحث عن الكلمات التى تتكرر في مؤلفاتى ومقالاتى أجد أن أكثرها تكراراً : التطور ، العالمية ، حرية المرأة ، العلوم ، الحضارة الصناعية ، الرجعية ، المستقبل أى إنها كلمات تدعو إلى تغييرنا .

وأجد أن تفكيرى في السياسة والثقافة كان على الدوام يسارياً ، وفى الأغلب ارتيادياً . ومما يلاحظ أن جميع الكتاب فى مصر بدأوا حياتهم الأدبية مذهبيين ارتياديين ، ثم انتهى كثير منهم إلى ملاذ التقليد يدعون إلى الفعل الماضى بدلا من اقتحام المستقبل . كما أنى أجد أن لى استغراضاً ديمقراطياً فى جميع ما أكتب يحملنى على مكافئة الظلمات التى لا تزال حية فى الشرق العربى : فى الاجتماع والاقتصاد والعقائد . ولذلك لم يتغير موقفى من حيث إنى كاتب مذهبي يسارى

أكافح الرجعيين الذين يجدون الحكمة خلفنا لا أمامنا ، كما أكافح أيضاً الاقطاعيين الذين يعارضون الاتجاهات الديمقراطية في الأمم العربية . وليس شك أن لوضعي الاقتصادي الاجتماعي من حيث أني من الأقلية المسيحية أثراً في إتجاهي الثقافي اليساري . فان اليهود وهم أقلية في أوروبا كانوا ولا يزالون يحملون علم الثقافة اليسارية في السياسة والاجتماع والاقتصاد .

وقد كانت حياتي الصحفية في مصر ثقافية إلى أبعد حد . فقد أخرجت « المستقبل » في ١٩١٤ وجعلته للكفاح الفكري ، ولم ألتفت فيه إلى السياسة ، وأخرجت منه ١٦ عدداً . وكان شبلي شميل من محرريه ومؤيديه . ثم اشتغلت بالهلل ثم بالبلاغ . وفي هذه الجريدة الأخيرة اشتبكت بالسياسة . ولكن همي الأول وإهتمامي الأكبر كانا بالصفحة الأدبية . وهناك ثلاثة كتب هي « نظرية التطور وأصل الانسان » و « مصر أصل الحضارة » و « التجديد في الأدب الانجليزي الحديث » نشرتها كلها فصولاً متتابعة في « البلاغ » قبل أن تجمع في كتب . ووجدت من عبد القادر حمزة ليس الصدر الرحب فقط بل التشجيع أيضاً على أن أمضي في هذه البحوث .

أما «الهلل» فقد حررته من ١٩٢٣ إلى ١٩٢٩ وكان من شروط عملي فيه أن أولف كل عام لقرائه كتاباً جديداً يقوم مقام العطلة حين كان ينقطع شهرين . وكان بعض هذه الكتب للتسلية مثل « أشهر قصص الحب التاريخية » وكنت أؤديها على سبيل الواجب الحرفي . ولم تكن تكلفني مجهوداً . ولكن كان بعضها الآخر يملئني على البحث

والدراسة ؛ فكنت أولف وأنا أتعلم ، مثل « حرية الفكر وتاريخ أبطالها » و « العقل الباطن » . والحقى أن هذه المؤلفات التى ألفتها وأنا بالهلال ثم بالبلاغ كان كل منها بمثابة المدرسة التى علمتني وأمدتني بالغذاء الذهنى سنوات . بل حتى المقالات التى كنت أنشرها فى « الهلال » و « البلاغ » وجدت من الناشرين اهتماماً ، فطبع بعض منها مع تنوع موضوعاتها باسم « مختارات سلامة موسى » و « اليوم والغد » و « فى الحياة والأدب » .

وقد سعدت بهذه المؤلفات على قلة بل تفاهة ما كسبت منها مالياً . وذلك أنى كسبت تزييتي ، كما كسبت هذا التغيير الذى وجدته فيمن قرأوها ، وهو تغير كان أحياناً يصل إلى التطور بل الانقلاب . وفيما بين ١٩٢٣ و ١٩٣٠ أثير غبار فى القاهرة بشأن التجديد فى الأدب ، وكان كل أديب يفهم من معنى هذا التجديد غير ما يفهمه الآخرون ، كل تبعاً لمزاجه واتجاهه وثقافته . وأستطيع أن أعين الاتجاهات التجديدية لتلك المناقشات الحامية كما أذكرها الآن فيما يلى :

١ - أن يكون لنا أدب مصرى عصرى لا يرتكن إلى الأدب العربى القديم .

٢ - أن يكون لنا أسلوب عصرى فى التعبير لا يمت إلى الجاحظ أو غيره ، مع مداعبة مستحبة للغة العامية... وهى مداعبة لم تثمر .

٣ - أن نأخذ بالأوزان والقيم الأوربية فى النقد الأدبى دون وزان الناقدين القدماء وقيمهم كالجرجانى أو ابن الأثير أو ابن رشيق .

٤ - أن نجعل الأدب يتصل بالاجتمع ويعالج شؤونه ويندغم في مشكلاته .

٥ - أن نوجد القصة والدرامة المصريتين .

٦ - أن نجعل الأدب إنسانى الغاية عالمى المشكلات .

والمؤلف بالمقارنة إلى الصحفى يعد ناسكا . فان المؤلف يتزوى في غرفته باحثاً منقياً ، ولكن الصحفى يخرج ويختلط بالاجتمع . ومع أن أكثر مجهودى في الصحافة كان ثقافياً في بحث العلوم والآداب فاني قد مسست السياسة أيضاً ، وأحياناً اقتحمت عبارها حتى عصفت بي في كثير من الأوقات . ولكن أعظم مايعزىني أن ما عصف بي كان أيضاً يعصف بالأمة ، وأنى في كفاحى الصحفى كنت أ كافع للديمقراطية التي حاول المستبدون أن يجرموننا منها .

وأول اختبارى للصحافة كان في « اللواء » في ١٩٠٩ . فقد قضيت فيه نحو أربعة أشهر مع فرح أنطون . وكان يرأسنا رجل مهذب مستنير يدعى عثمان صبرى وكان صهر مصطفى كامل ، وكان قد تولى الرياسة بعد المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش الذى كان قد أغضب الأقباط بكلمات نائية . وكنا نكتب في المطالبة بالجلء ، ولا مفاوضة إلا بعد الجلء . وهذه عبارة كان يستنكرها بعض الساسة في مصر؛ أما الآن فلا تستنكر . وقد عمل بها الهنود حين أصروا مدة الحرب الكبرى الثانية على شعار « اتركوا الهند » . وقد بقى فرح طوال عملى معه باللواء وهو يظن أنى مسلم ، لاشتباه اسمى ، ولأنه لم يكن

فى كل ما أكتب ما يدل على وجهة طائفية خاصة . أما عثمان صبرى فكان يعرف أنى قبلى ، وكان كثيراً ما يذكر مقالات الشيخ عبد العزيز جاويش بالاستنكار أمامى ويتفادى من نشر أى مقال يومئذ الشقاق بين المسلمين والأقباط . وقد كسبت من « اللواء » مرانة صحفية حسنة ، وكنت أكتب الخبر والمقال فى السياسة الداخلية والسياسة الخارجية . ولم يكن للخبر فى تلك الأيام قيمة كبيرة . وكانت الجرائد « مقالية » أكثر مما كانت خبرية . وذلك لأن الكفاح من أجل الاستقلال كان يستغرق كل اهتمامها تقريباً ، فكان جميع كتاب الجريدة تقريباً محررين .

وفى العقد الأول من هذا القرن كان طراز « اللواء » جريدة الحزب الوطنى يغلب على الصحافة . لأنه كان الجريدة الناجحة وكان أسلوبه خطاياً إذ كان مصطفى كامل يعتقد بحق أن الصحافة يجب أن تكون فى خدمة الوطنية وأن تثير حماسة الجمهور وتنبه وجدانه الوطنى . ولذلك لم تكن العناية بالأخبار الخارجية كبيرة بل لم تكن هناك أقل عناية بها . إذ كانت تختصر أو تقتضب فى نصف أو ربع عمود من التلغرافات . أما سائر الجريدة فكان معظمه يرصد للمقالات التى تندد بالانجليز المحتلين أو تثير الجمهور . وكان لذلك أول شرط للكاتب الصحفى أن يكتب فى أسلوب فصيح بعبارات صارخة . وبقيت هذه الحال تقليدياً فى الصحافة إلى حوالى ١٩٣٠ حين شرعت جرائد « الخبر » بدلا من جرائد « المقالة » فى الظهور . وما زلنا إلى الآن (١٩٤٧) نجد من بقوا من الصحافة القديمة كبيرى العناية باللغة

قليل العناية بالمعارف العامة عن المشكلات العالمية أو العلمية أو الاجتماعية . بل نجد بين بعض القراء إساعة لهذه الكتابة الأسلوبية . وكانت الجرائد في ذلك الوقت « شخصية » فكنا نقرأ الجريدة لا لأنها حافلة بالأخبار أو الصور بل لأن فلاناً يكتب فيها مقالا . بل كانت المحاصمات أيضاً شخصية . فكان « المؤيد » يشنع على مصطفى كامل لأن الخديو صفعه كفاً . وكان « اللواء » يشنع على الشيخ علي يوسف صاحب « المؤيد » لأنه لم يكن كفتناً لزواج كريمة السادات السيدة صفية . بل كان « المقطم » يدخل في هذه المحاصمات ويتكلم أيضاً عن زوجة الشيخ علي يوسف .

وظهرت أولى المجلات الفكاهية حوالى ١٩٠٠ وكانت مادتها الأساسية تهزئة الامام العظيم محمد عبده . وكان يشاع أن الخديوى عباس باشا كان يحرضها على إتخاذ هذا الموقف لأنه كان يكره الروح العصرى الذى كان يدعو إليه الامام فى الأزهر . وظنى أنى أنا أول من أخرج مجلة أسبوعية جدية هى « المستقبل » فى ١٩١٤ .

ولما تركت « اللواء » وعدت إلى أوروبا بقيت الصحافة خيالاً ساحراً فى ذهنى . ورجعت إلى مصر واستطعت فى ١٩١٤ أن أحقق هذا الخيال بأن أصدرت مجلة « المستقبل » الأسبوعية . ولكن لم أصل إلى العدد السادس عشر حتى كانت الحرب الكبرى الأولى قد شبت، وارتفع سعر الورق نحو عشرة أضعاف سعره السابق . وكان لا بد أن أعطلها . ولكن التعطيل جاءنى بطريق آخر . فى ذات يوم وأنا أفكر فى مشكلة الورق طلبتني إدارة المطبوعات . فقصدت إليها غير

عابى بما يحدث . وكانت الأشاعات كثيرة بشأن تعطيل المجلات والجرائد . وهناك قعدت أمام أحد الموظفين السوريين الذي حياى وطلب لى القهوة ، وجعل يلاطفنى بكلمات عذبة . ويسألنى عن المجلة وهل هى رائجة أم أنى أخسر فيها . ثم بعث فى طلب رجل انجليزى . وجاء هذا وقعد قبالتى يستمع دون أن يتكلم . ثم شرح لى هذا الموظف حرج الموقف وضرورة وقف (أى تعطيل) بعض المجلات . ومع أنى لم أكن أبالى التعطيل ، كما قلت ، فانى وجدت فتنة سيكولوجية فى متابعة البحث والمناقشة وخاصة أمام هذا الانجليزى . فأبديت أنى قادر على إصدار « المستقبل » مهما كانت الصعوبات . فتلاحظ الاثنان وأنا مقتنون بالموقف . وأصررت على أنى سأصدرها إلى آخر الحرب ، وأنى سأدعو فيها إلى الاشتراكية . وعاد الموظف السورى يخاطبى فى ملاطفة مسرفة ويقول لى أستاذ وعاقل . . . الخ . وأصررت أنا على العناد . وأخيراً صرح ، فى غير ملاطفة ، بأن إدارة المطبوعات تستطيع التعطيل . وأن المناوئين للحكم فى الظروف الحاضرة الشاذة يمكن نفيهم أو اعتقالهم . وكان هذا ما أردت أن أسمع ، فنهضت وقلت لى سأعطل المجلة ، وخرجت .

وليس عندى مجموعة من مجلة « المستقبل » . ولكن بعض القراء سألوا يقتنونها مجلدة تحوى الأعداد الستة عشر التى صدرت . ومقالاتها تدل على تفكيرى وقتئذ ويعبر هذا التفكير عن اتجاهى الذهنى العصرى . فان فيها مقالات عن نيئشه . وبها مقال كه فحور إلحادى عنوانه « الله » . وهذا غير قصائد ومقالات لشبلى شمبل وكان يدعو إلى نظرية التطور

وإلى المذهب المادى . وأجد بها بحثاً عن « الضمد » عند العرب أى زواج المرأة لجملة رجال . والخلاصة كان المستقبل يدعو دعوة عصرية بل مستقبلية فحة خاصة . وكنت أبيع منه نحو ستائة نسخة فى الأسبوع . وهذا غير المشتركين المتحمسين . وظنى أنه كان يمكن أن ينجح ويؤدى رسالة الهدم والبناء التى كنا نحتاج إليها لولا ظروف الحرب فى ١٩١٤ . ولم تظهر بعد « المستقبل » مجلات من طرازه التحريرى . ولما عمدت إلى إخراج « المجلة الجديدة » فى أواخر ١٩٢٩ كنت قد تأثرت بالفن الصحفى كما أن الظروف المصرية كانت قد دجنتى تدجيناً سيئاً فحبت النار وبأخت الحماسة وأخذ الاعتدال مكان الغلو .

وأرسلت إلى مـى عقب التعطيل خطاباً تطلب منى أن أحرر « المحروسة » وكانت جريدة يومية قليلة الانتشار يصدرها والدها ، فقبلت ، وبقيت أحررها جملة أشهر سئمت بعدها الكتابة مع المراقبة الصارمة التى كانت تفرضها إدارة المطبوعات على الصحف . ولم يكن يخفف من هذا السأم سوى زيارات مـى ومؤانستها لنا من وقت لآخر ؛ فقد كانت حلاوتها تبرز بظرف ورقة .

وبقيت طوال الحرب الكبرى الأولى وأنا معطل . وقد قضيت معظم سنى هذه الحرب فى الريف فى عزبتنا بالقرب من الزقازيق . . وكانت تلك الأيام بمثابة الحضانة . فقد أكيبت على القراءة الجدية فى الآداب والعلوم واستوعبت منها كثيراً . وكنت من وقت لآخر أقصد إلى مأمور المركز فى الزقازيق كى أرجوه فى الإفراج عن أحد الذين قبض عليهم من الفلاحين . وكانت الحكومة تنفذ شرطتها

إلى الأسواق الريفية العامة فتقبض على من تستطيع من هؤلاء
المساكين وتربطهم بالحبال الغليظة كما لو كانوا أسرى حرب . ثم
يبيعهم الانجليز إلى فلسطين وكانوا يموتون بالملات والألوف . ولم أكن
أنجح في تخليصهم إلا بالرشوة .

وسممت الركود الريفي ، فاشتغلت بالتعليم فترة . ثم هبت الثورة
في ١٩١٩ ورأيت أن أقصد إلى القاهرة حتى أكون على صلة بالحوادث
وحتى أجد منفذاً جديداً إلى الصحافة . وتحقق لي ذلك ؛ فاني بعد أن
اشتغلت بالتعليم في مدرسة التوفيق قليلا اشتركت في تحرير «الهلال»
واشتركت أيضاً في تحرير «البلاغ» .

وانغمست في السياسة مع المرحوم عبد القادر حمزة . وكنت أزور
معه سعداً . وكان عبد القادر حمزة من الكتاب الأفذاذ إذا نشب
في موضوع لم يترك الجدل فيه حتى يستقصيه ويخرج منه مستصراً .
وكان تزيهاً في حكمه حتى حين كان يختلف . فانه بعد أن ترك الوفد
في ١٩٣١ بقي على صداقته السابقة مع كثير من الوفديين .

وأصدرت «المجلة الجديدة» في أواخر ١٩٢٩ . وأصدرت
«المصري» في السنة التالية . وكانت الأولى شهرية والثاني أسبوعياً .
وكانت الدعوة في كليهما تحريرية في الثقافة والسياسة . وعصفت بنا
في ١٩٣٠ عاصفة سياسية في وزارة إسماعيل صدقي باشا ، فألغى الدستور
واستبدل به آخر بعيد عن الديمقراطية . وألغيت مجلتي . وكان قد
شرط في قانون النشر الجديد أن من يطلب امتيازاً لجريدة أو مجلة
جديدة يجب أن يؤدي تأميناً قدره ١٥٠ جنياً . فأديت التأمين نقداً .

ولكنه رفض . وبعد ثلاث سنوات أى فى ١٩٣٤ جاءت وزارة عبد الفتاح يحيى باشا ، فاستطعت أن أعيد إصدار « المجلة الجديدة » بضمان عامل فى المطبعة عندى . . . وهذه هى حالتنا فى مصر : فى وزارة ما يرفض التأمين النقدى ، وفى وزارة أخرى يقبل ضمان العامل الذى لا يملك شيئاً .

وفى بداية الحرب الكبرى الثانية أنشئت وزارة الشؤون الاجتماعية ، فاستدعنى كى أحرر مجلتها . وقبلت لأنى وجدت أن الفرصة تتيح لى الارشاد العصرى والتوجيه الاجتماعى . وبقيت أكتب فى هذه المجلة نحو سنتين . وكانت مقالاتى يوقع عليها باسمائى أو تنشر بلا إمضاء . فاذا راقت المشرفين على المجلة وضع لها إمضاء غيرى حتى ولو لم تكن له علاقة بالوزارة . وقد كان هذا العمل مثاراً للسخرية أحياناً وللأسف أحياناً .

وكنت أتناول عشرين جنيهاً راتباً شهرياً على التحرير دون أى اشتراط على القدر الذى أكتب أو على مواظبة الحضور . فكان يرمى الشهر دون أن أحضر للوزارة ، وكنت أكتب أى قدر شئت من الصفحات . ولكن الوزارة ضمت على هذه الحرية مع صغر الراتب . نالغته وعينت أربعين قرشاً للصفحة الواحدة . ورأيت آخر الشهر بعد هذا النظام أن كل ما حصلت عليه هو جنيهان فقط ، فتركت التحرير . وكنت طوال عملى بالوزارة أصدر « المجلة الجديدة » أيضاً . وبقيت على ذلك إلى ١٩٤٢ حين سلمتها لبعض الاخوان الأصدقاء كى يقوموا بنشرها وكى أختص أنا فى التحرير السياسى . ولكنهم نزعوا نزعاً

ديمقراطية مسرفة لم ترض الاستعمار ، فألغيت في تلك السنة بأمر عسكري

وفي السنة التالية اشترت امتياز جريدة يومية . وقبلت إدارة المطبوعات نقل الامتياز الذي أثبت فيه أنها « يومية » وذكر فيه الضمان بأنه . . . م. جنيه أى ضمان جريدة يومية . وبعد أن قبل كل هذا وبعد أن استعددت لاصدار هذه الجريدة اليومية أقيمت وزارة الوفد . وفي اليوم التالي للاقالة في أكتوبر من ١٩٤٤ أبلغتني إدارة المطبوعات أن الجريدة شهرية وأنه لا يجوز لى أن أصدرها يومية . وعندما أقرن بين صحافة الجيل الماضى (من ١٩٠٠ إلى ١٩٢٠) وصحافة الجيل الحاضر ، أجد أننا قد تقدمنا وتأخرنا . أجل ! تقدمنا فى فن الطبع والاخراج تقدماً عظيماً جداً . فان جرائدنا ومجلاتنا تدل على رقى فنى يضارع أعلى المستويات الصحفية فى أوروبا . ولكننا من حيث التحرير تأخرنا ؛ إذ ليس عندنا الآن من المحررين من يضارعون مصطفى كامل أو على يوسف أو لطفى السيد . وقد مات عبد القادر حمزة وهو آخر هذا الجيل المنقرض .

ولكن هناك مع ذلك علامة حسنة فى الصحافة الحديثة ، هى عنايتها الكبيرة بالأخبار الخارجية . فان هذه العناية ، التى كان مبعثها الحريين الأخيرتين ، تنير القراء وتربهم على النظر العالمى وبجث سياستنا من الزاوية السياسية العالمية الكبرى . وهذا حسن . ولكن انسياق الجرائد وراء الاعلانات قد حد من حريتها واهتماماتها . فان جرائدنا مثلاً تعنى بالميدان السياسى ، الذى يغفل لها الاعلانات ، أكثر

مما تعنى بالزراعة المصرية التي يعمل فيها الملايين ولكن لا تلتفت منهم الصحف بالاعلانات .

وقد دلتني اختباراتي في السياسة والثقافة على أن بضع مقالات في السياسة أحياناً تعود بمثل الربح المالى الذى يعود من تأليف كتاب كامل قد احتاج إلى دراسة الستين . ولذلك فان التأليف في مصر تضحية كبيرة لا يرضاها إلا المهوسون بالثقافة . ولذلك أيضاً أصبح كثير من الأدباء الذين افتسحوا حياتهم بالتأليف صحفيين .

وذات مساء في ١٢ يوليه من هذا العام ١٩٤٦ كنت نائماً على الأسفلت في غرفة مظلمة في سجن الأزيكية مع نحو أربعين من المتهمين بالسرقة والضرب والفسق والقتل واحتياز الخدرات وغير ذلك . وكانت همتي أنى أفكر وأكتب عن الاشتراكية أو الشيوعية . وكانت خشونة الأسفلت تمنعني من النوم وتؤلني فأرقت . وأخذت ذاكرتي تعرض فلم حياتي الماضية ، فذكرت الحرية التي كنت أتمتع بها في ١٩١٤ حين كنت أكتب مقالات في « المستقبل » لو أن بعضها نشر هذه الأيام لقاد إلى السجن . وذكرت العناء الذى لقيته في الدراسة والتأليف ، وعدادت نحو عشرين كتاباً ألفتها لأبناء وطني أخلصت فيها النية وبذلت الجهود كي أنير وأعلم ، وكى أسمو بالشباب إلى مثليات القرن العشرين وأخرجهم من ظلمات القرون الماضية . ثم تأملت حالى على الأسفلت الحشن ، وكيف أنى لم أجمع مالا ولم أحصل حتى على الكرامة التي يستحقها من يخدم ويخلص في الخدمة . وكان إلى جنبي نصف رغيف هو عشائى الذى قررت له الحكومة المصرية

جزاء هذا العمر الذى قضيته فى خدمة مصر . وأخذت أفكر وأجتهد التفكير وعقلي يتضور من الألم ، إلى أن أصبح الصباح ودخل علينا رجل بقمزة بها خبز ، فناولنى رغيفاً للفطور وضعته فوق نصف الرغيف الذى تناولته فى المساء السابق . وهكذا يفعل بنا الاستعمار والاستبداد المتحالفان .

كفاحى السياسى

كنت طوال إقامتى فى أوروبا أدرس السياسة من الجرائد اليومية الانجليزية والفرنسية وأستمع إلى المحاضرات الحزبية التى يلقيها الدعاة والبارزون من الأحزاب . ولكن التفانى إلى السياسة كان بمثابة النشاط الموجب على السطح . أما فى الأعماق فكانت التيارات التى تحفزنى وتوجهنى اجتماعية ثقافية . فقد كنت مثابراً على الملاحظة المباشرة للمجتمع الأوروبى أقابل بينه وبين المجتمع المصرى فى مركز المرأة ونظام العائلة بل نظام البيت وأحوال العمال فى المدينة والريف والحرية أو بالأحرى الحريات العامة فى البيت والمجتمع والصحافة والخطابة . ومن ذلك الوقت إلى الآن (أى من ١٩٠٧ إلى ١٩٤٧) وأنا أكافح فى جبهات متعددة سياسية واجتماعية واقتصادية . وأحياناً تتداخل هذه الجبهات أو تمتزج حتى تصير جبهة واحدة . كما حدث مثلاً فى ١٩٣٠ حين كنت أقف إلى صف الوفد فى مكافحة الطغیان الذى حاول اسماعيل صدقى باشا أن يعممه بعد أن ألغى دستور ١٩٢٣ كما سبق أن ألغى الانجليز دستور عرابى فى ١٨٨٢ . ولكن حتى فى هذه المعمعة السياسية التى هبت فيها الأمة تقاوت المستبدین والمستعمرین معاً كنت أيضاً أكافح كفاحاً آخر من أجل الاستقلال الاقتصادى . فألفت جمعية

« المصرى للمصرى » لايياد وجدان وطنى اقتصادى . وكانت الأحزاب السياسية فى أوروبا قد شرعت حوالى ١٩١٠ تتجه اتجاهاً اشتراكياً . وكان هذا الاتجاه على أقواه فى ألمانيا وفرنسا وعلى أضعفه فى بريطانيا . بل الحق انه لم يكن فى ١٩٠٩ فى مجلس العموم الانجليزى غير اشتراكى واحد (من نحو ٢٠٠ عضو) يدعى فكتور جرايسون وكان يجمع بين حماسة الشباب وحماسة المذهب . وقد حاول ذات مرة أن يقصر المجلس على المناقشة فى شأن العاطلين . فقرر المجلس إخراجه وكان يلقى الخطب فى الاجتماعات الشعبية ويفخر بأن المجلس طرده . والغريب أن هذا الشاب اختفى فجأة ولم يعرف إلى الآن كيف كانت نهايته .

ولكن كان بمجلس العموم فى ذلك الوقت حزب العمال وحزب آخر يسمى « العمال المستقلين » يتزعمه كبير هاردى . ولكن هؤلاء العمال جميعاً لم يكونوا اشتراكيين مذهبيين ولم تكن الدعوة بينهم إلى الاشتراكية بل كانت دعوة متواضعة قانعة بزيادة الأجور للعمال وترقية أحوالهم المعيشية . وقد زرت كبير هاردى فى غرفته المتواضعة فى لندن فى ١٩٠٩ . وكان اسكوتلندياً فى وجهه ساحة وطيبة قد أرخى لحيته . وكان يصر على اتخاذ قبعة العمال المحصوفة من القش . وكانت سكرتيرته آسة مثقفة جاءت بعد ذلك إلى مصر وتولت رئاسة التحرير لجريدة « الاجبشيان جازيت » . وكان السبب لزيارتى لكبير هاردى أنى قرأت له كتيباً عن الهند شرح فيه ما رآه فيها من المظالم البريطانية للهنود . ورأيت فى هذا الكتيب ما يثير وما يبعث على التفكير

فيما يفعله الانجليز في مصر . ولما قابلته قال لي إنه اشتراكي وأن الاشتراكية سوف تعم أوروبا ، ثم تنتقل إلى سائر القارات . وأن الاستعمار البريطاني يجب أن يزول من مصر والهند وأن واجبنا الوطني الأول في مصر هو إخراج الانجليز ثم إيجاد الإصلاحات الاجتماعية في المجتمع المصري .

وكانت الخطوط السياسية التي نراها الآن في السياسة العالمية في ١٩٤٧ واضحة في أوروبا في ١٩١٤ . ولكن الخطوط اليمينية كانت وقتئذ أبرز من الخطوط اليسارية . أي أن أصوات الاستبداد والاحتكار والحرب والاستعمار كانت عالية تنطق بها دولة القياصرة في روسيا ودولة السلاطين في تركيا ، ثم دولتا الوسط في أوروبا . وأخيراً الامبراطورية البريطانية وفرنسا . أما في ١٩٤٧ فان هذه الدول جميعها ، باستثناء بريطانيا ، قد زالت وأخذت الجمهوريات مكانها . كما أن الأكثرية السياسية للأحزاب قد أصبحت يسارية للاشتراكيين والشيوعيين في جميع أوروبا المتعدنة . وقولنا « المتعدنة » يستغنى بالطبع أسبانيا وبرتغال حيث الفاشية لا تزال حية . وهذا اتجاه واضح لا يخطئه إلا المغفلون أو المتغافلون .

وقد أصبحت من تلك السنين أتوسم الأحزاب وأرود المستقبل في ضوء هذه الاتجاهات الاشتراكية العالمية . ولذلك لم تفاجئني الأحداث الكبرى مثل حرب ١٩١٤ التي بعثتها المباراة الاقتصادية بين ألمانيا وبريطانيا ، أو مثل حرب ١٩٣٩ التي بعثتها الصراع بين أحزاب اليمين من المحافظين وبين أحزاب اليسار من الاشتراكيين والشيوعيين .

وإن كانت هذه الحرب قد فقدت منذ بدايتها تقريباً روحها المذهبية واستحالت إلى النزاع الاقتصادى القديم بين بريطانيا وألمانيا كما دخلت فيها مركبات اقتصادية أخرى .

ولمعدت من أوروبا وضعت رسالة صغيرة عن الاشتراكية كما وضعت قبل ذلك رسالة أخرى عن « السبرمان » أى إنسان المستقبل . وكذلك خلصت كتاب جرانت الين عن « نشوء فكرة الله » . وترجمت نحو ١٢ صفحة من قصة « الجريمة والعقاب » لستوفسكى . وكل هذا النشاط قمت به فيما بين ١٩٠٩ و ١٩١٤ . وهو يدل على أن أفكارى العامة الحاضرة كانت تتبلور فى ذهنى : السياسة الاشتراكية والأدب الروسى والفلسفة الداروينية مع الثور من الغيبيات .

وفى ١٩٢٠ عقب الثورة هبت ريح الحرية فى الجوى المصرى المكظوم فألفت أنا والمرحوم الدكتور العنانى والأستاذ محمد عبدالله عنان والأستاذ حسنى العرابى ، الحزب الاشتراكى . وأرخصى لنا المستعمرون الحبل كى يعرفوا مدى نشاطنا والاستجابة التى نلقاها من الشعب . والحق أنها كانت استجابة حسنة . ويبدو أننا كنا نسير فى اعتدال وبتقى المصادمات . وترجمت فى ذلك الوقت « نداء إلى الشباب » لكوربتكين وهو الأمير الروسى الذى ترك إمارته أيام القيصر نقولا وانقلب كاتباً ومؤلفاً وداعية للاشتراكية . ولكن حدث فجأة أن أهدنا الأستاذ حسنى العرابى وجد فينا بطئاً لم يطق له صبراً . فقصده إلى الاسكندرية وأعلن « الحزب الاباحى » . وكلمة « إباحى » كان يقصد منها ما يفهمه الجمهور الآن من كلمة شيوعى . وانشق عنا

وانضم إليه كثير من الشبان الذين سرقوا دفاتر الحزب وقضوا عليه .
وماتت حركتنا وقضت الحكومة على حسنى العرابى بحبسه ثم تشريده
فى أوربا . فقد سافر إلى ألمانيا وما هو أن بلغها حتى صدر قرار من مجلس
الوزراء بجرمانه من الرعوية المصرية كى يمنع من العودة إلى مصر .
وكثيراً ما اشتقت أنا إلى السفر إلى أوروبا ولكن خوفاً من أن
يلحقنى مثل هذا القرار كان يحملنى على الدوام على النكوص .
وليس على هذا الكوكب أمة تحرم أبناءها من رعويتهم إذا كرهت
منهم مذاهبهم السياسية غير مصر . وهذا الحرمان من الرعوية
يشبهه ، فى صيغة عصرية ، الحرمان من الكنيسة أيام القرون المظلمة .
ولكنه الاستعمار البريطانى يحالف الاستبداد المصرى على مطاردة كل
من كان يتوهمان فيه خطراً على مركزهما الممتاز فى مصر .

والاشتراكى المصرى يجد نفسه فى صف واحد مع الوفد . لأن
الوفدية هى فى صميمها الدعوة إلى الاستقلال . ولا يمكن اشتراكياً
أن يفكر فى أى برنامج اشتراكى ما لم يكن الاستقلال محققاً ناجزاً .
ومن هنا الكراهة البريطانية لجميع الحركات الاشتراكية فى العالم
وليس فى مصر وحدها .

والاشتراكية والاستعمار ضدان لا مصالحة بينهما ، فالأولى تعاون
ومساواة وعدل والثانى استغلال وامتياز واحتكار وخطف . ولذلك
أيضاً نجد أن جميع الاشتراكيين فى مصر هم قبل كل شئ وطنيون
غالون فى وطنيتهم لا يطلبون الاستقلال لمصر وحدها بل للهند والجزائر
والعراق وسراکش وغيرها .

وتحدث أحيانا مصادفات مشئومة . فقد كنت فى ١٩٢٥ أو حوالى ذلك أكتب للبلاغ . وكان زيور باشا قد قام بأولى المحاولات لرد الأمة إلى عصر توفيق أى إلى حكم أتوقراطى بلا دستور أو بدستور صورى . فكتبت مقالا قلت فيه إن زيور يشبه أبا الهدى فى حكومة عبد الحميد . وكان اسم أبى الهدى يركم الجوب بالسائس والاستبداد . وكتب الأستاذ عبد القادر حمزة (باشا) ، دون أن يعرف مقالى ، مقالا آخر قال فيه إن مصر تحكم كما لو كانت تركيا أيام عبد الحميد . وقضت المصادفة بأن يخرج المقالان معاً كأن هناك مغزى مقصوداً . وقصدنا إلى بيت الأمة حيث قابلنا سعد باشا الذى أئذرنا بخطورة المقالين وبأن النيابة العامة سوف تقوم بالتحقيق معنا فى شأنهما . وكان سعد باشا فى سنه الأخيرة حتى لقد لاحظت أن ساقه كانت ترتعش ولكنه كان يقظ الذهن ذكثاتورى اللهجة .

وقد سبق أن قلت إن كفاحى السياسى كان يمتزج فى أحيان كثيرة بكناحى الاجتماعى أو الاقتصادى . ولذلك ألفت فى ١٩٣٠ جمعية المصرى للمصرى كى أبعث الوجدان الاقتصادى للأمة . وكنا نجد فى تلك السنة ، حين ثار إسماعيل صدقى باشا على الدستور وألغاه ، أن دعوتنا للمصرى للمصرى تتفق ومقاطعة البضائع الإنجليزية . ووجدت هذه الحركة حماسة كبيرة بين الشبان . وكنا نحتم على أنفسنا اتخاذ جميع ملابسنا الخارجية والداخلية من الأقمشة المصرية باستثناء الطربوش . ولكن حتى هذا وجد من يصنعه من الصوف المصرى الأبيض . وقد أرسل إلى أحد المتحمسين مثالا منه هدية يطلب منى

اتخاذهُ بدلاً من الطربوش الأحمر الذي كان يرد إلينا من أوروبا. وقد كان الأستاذ أحمد حسين رئيس جماعة مصر الفتاة وكيلاً لجمعية المصري للمصري في كلية الحقوق حين كان طالباً بها . فلما كلفنا إسماعيل صدق باشا ، وقتل من مجلاتنا التي كانت تنشر دعوتنا أكثر من عشر مجلات ووقفنا مضطرين عن الحركة ، عمد أحمد حسين إلى إحيائها أو بعثها ولكن بصورة قد يستنكرها البعض . والحق أنه كان فيها كثير مما يستنكر مثل الهجوم على الخانات أو مداعبة الآراء الفاشية ومدح موسوليني أو هتلر ونحو ذلك .

ولا بد أن أذكر أنه كان لاستقلال الهند مكانة كبيرة في تفكيرى السياسى . وعندى أن مشكلة الهند بل مشكلة أى مستعمرة في العالم هى أيضاً مشكلة لمصر . لأن استقلالنا يقتضى سكافة الاستعمار أينما وجد . ولذلك ألثت كتابى عن «غاندى والحركة الهندية» . وأعجبنى من غاندى أنه كان ولا يزال يكافح فى جبهتين هما الانجليز المستعمرون والتقاليد الهندية التى فسدت وتقيحت فى جسم الأمة الهندية المريضة . كما أنه بعث نشاطاً اقتصادياً بتعميمه المغزل بين الريفيين . ولقد أرسلت إليه فى ١٩٣١ خطاباً أطلب منه المؤلفات الخاصة بحركة الغزل والنسيج التى يقوم بها بين الفلاحين الهنود وأيضاً بعض أدوات الغزل التى تستعمل فى الهند . فأرسلها كلها إلى . ولكننا بعد الدرس لموضوع الغزل لم نجد أننا قادرين على إيجاد مثل هذه الحركة فى مصر . ذلك أن المغزل اليدوى قليل الانتاج لا يغل للغازل عيشاً كافياً فى مصر . وإن كان يغل هذا العيش الكافى للفلاحين الهنود لأن مستواهم الاقتصادى

دون مستوى فلاحينا . ولكن وزارة التجارة والصناعة تحاول الآن فى ١٩٤٧ أن تجد مغزلاً ريفياً يستحق عناية فلاحينا ويشغل فراغهم فى بعض أشهر الشتاء .

وهذا النشاط الاقتصادى أو الوطنية الاقتصادية التى قمنا بها فى ١٩٣١ قد بعثت روحاً جديداً من اليقظة والاحساس الوطنى . حتى لأذكر أن ضابطاً من البوليس حضر لتفتيش مكتبى فى إحدى المهجات التى كانت تتوالى علينا لضبط مجلاتنا ومصادرنا . فلما شرع يقرأ الخطابات الواردة إلينا من أنحاء القطر بشأن الصناعة والتجارة المصرية تغير موقفه فصار يدعو لنا بالنجاح ويمزق بنفسه الأوراق الخطرة . وهنا يجب أن أذكر شخصية نبيلة قد فارقتنا للأسف منذ أربع سنوات هى المرحوم محمد عبد الصمد مدير مدارس رقى المعارف فى شبرا . فانه كان وكيل جمعية المصرى للمصرى حين كنت أنا رئيساً لها . وكنت قد كتبت مقالا أدعوه فيه إلى إنشاء متجر فى شارع فؤاد لا يبيع غير المصنوعات المصرية . وكانت البضائع المصرية لا تباع إلا فى الأزقة النائية فى السكة الجديدة فى أطراف شارع الموسيقى . ولما قرأ المرحوم طلعت حرب هذا المقال بعث إلىّ وأخذ يناقشنى فى هذا الموضوع . وخرجت من عنده قاصداً إلى المرحوم محمد عبد الصمد حيث اتفقنا على أن يعرض ألف جنيه يساهم بها فى هذا المشروع . ونشرت هذا العرض مع صورة الشيك فى الصفحة الأولى من إحدى المجلات التى كنت أنشرها . وكان هذا العرض بذرة المتجر القائم الآن باسم « شركة مصر لبيع المصنوعات المصرية » فى شارع فؤاد .

ويجب ألا أنسى هنا أثنى في كفاحي السياسي ألفت إلى موضوعين أحدهما هو بعث النهضة الوطنية عن سبيل الاكبار من شأن الفراغنة . وقد وجدت ما يزيدنى تأييداً لهذه الدعوة بما استفاض في أوربا عامة وبريطانيا خاصة من أن مصر هي التي بعثت الموجات الأولى من الحضارة القديمة إلى أنحاء العالم وأخرجت الانسان من العصر الحجري إلى عصر الزراعة . وكتابتى « مصر أصل الحضارة » يقوم على هذه المعانى ويشرحها . أما الموضوع الثانى فهو الاكبار من شأن عرابى . فقد نشأنا على أن هذا الوطنى العظيم كان خائناً لمصر وأنه هو السبب لاحتلال الانجليز لوطنا . والحقيقة أن من يقرأ تاريخ هذه الشخصية المصرية المقدسة يتعجب للحنسة التى بعثت خصومه على سبه والخط من شأنه . وليس فى تاريخ مصر منذ أكثر من ألف سنة من خدمها بروح الشرف والوطنية والنزاهة مثل عرابى . وقد كانت ترجمة كتاب بلنت « التاريخ السرى للاحتلال البريطانى لمصر » من الجهود السارة التى قمت بها لجريدة « البلاغ » . لأن المؤلف كان صديقاً لعرابى وكان واقفاً على أهدافه الوطنية السامية .

وكذلك لا أنسى أثنى فى سبيل الكفاح السياسى ألفت كتابين أحدهما « حرية الفكر وتاريخ أبطالها » فى ١٩٢٧ سردت فيه أطوار الكفاح التاريخى من أجل الحرية سواء عند الأمم العربية أم فى أوربا . ثم عدت فى ١٩٤٦ فأخرجت كتاباً بعنوان « حرية العقل فى مصر » طلبت فيه إلغاء قوانين المطبوعات التى تحد من حرية الكتابة والصحافة وإلغاء إدارة المطبوعات التى تطلب استخراج « رخصة » عندما يرغب

أحدنا فى إصدار مجلة أو جريدة . والغريب أنه فى نفس هذه السنة (١٩٤٦) عاد حكم إسماعيل صدقى باشا المشوم . فأصدر مشروع قانون لزيادة الحد من حرية الصحافة التى لا يطبقها هذا الرجل . وتقدم وزير سابقى هو الأستاذ فؤاد سراج الدين باشا لطلب امتياز أى رخصة لجريدة يومية فرفض طلبه . ومثل هذه الجراءة ليس لها نظير فى أية أمة متمدنة على هذا الكوكب . أعنى جراءة رجل مثل إسماعيل صدقى باشا على أن يفكر فى زيادة القيود للصحافة المصرية وعلى أن يمنع وزيراً سابقاً من أن يصدر صحيفة .

وكما فكرت فى كفاحنا السياسى أحسن ألماً للعقم الذى لازمه إلا القليل من الثمر الذى حاول المستبدون والمستعمرون إفساده . فقد أثمر هذا الكفاح دستوراً غيره المستبدون سره ثم عطلوه مرة ثم ألغوه واستبدلوا به آخر سره . ونجحوا فى أن جعلوا ديمقراطيتنا كاريكاتورية . ولكن مما يبعث السرور إلى نفسى أنى لم أتضعع ولم أترك المعسكر الوطنى لمكافحة المستبدين والمستعمرين كما فعل كثير ممن طمسوا النور الذى كان فى قلوبهم وأطنأوا وهج نثوسهم كى يصلوا إلى حياة أو مال فإغمازوا إلى الاستعمار الأجنبى أو الاستبداد الوطنى .

في خدمة الشباب

منذ أن تأسست جمعية الشبان المسيحية في القاهرة حوالي ١٩٢٢ ، وأنا عضو فيها ، ولكن عضويتي كانت شكلية إذ كنت قليل الزيارة لها . وبقيت على ذلك نحو ست أو سبع سنوات حين طلب مني سكرتيرها الأستاذ نجيب قلادة أن أقبل المناظرة مع الأستاذ توفيق دياب بشأن الأدب المكشوف والأدب المستور . وكنت أنا في موقف الدفاع عن الأدب المكشوف باعتبار أن الأدب يجب أن يكون حراً طليقاً لا يتقيد بأي قيد سوى ضمير الكاتب . وكان الأستاذ توفيق دياب يرى أنه يجب أن تكون هناك قيود وحدود اجتماعية لا يجوز للكاتب أن يتجاوزها .

وأحدثت هذه المناظرة اهتماماً بين الشبان ولغطاً غير منير في المجلات . وحوالي ١٩٢٩ زاد اتصالي بالجمعية وعرفت سكرتيرها الأمريكين والمصريين ، ثم حوالي ١٩٣٣ رغب إلى الأستاذ نجيب قلادة كي أكون مستشاراً للمكتبة . ومنذ تلك السنة إلى الآن وأنا أزور الجمعية نحو ثلاثة أو أربعة أيام كل أسبوع تقريباً .

ورأيت في اتصالي بالشبان فائدة كبيرة لي ولهم . فقد كانت مهمتي الأولى أن أوجههم إلى القراءة وأعين لهم الكتب التي يستطيعون

الانتفاع بها سواء أكانت عربية أم انجليزية أم فرنسية . وكنا نعقد اجتماعاً كل يوم اثنين نتحدث فيه حديثاً «عائلياً» وكنا تعود بعضنا يشرب الشاي أو يدخن على مقاعد مريحة . وكانت أحاديثنا تتناول بالطبع مشكلات الشباب سواء أكانت ثقافية أم جنسية أم عائلية . ولذلك كان الاتجاه الجنسي يزداد بروزاً في هذه الأحاديث . ومن هنا الفائدة التي وجدتها لنفسي من هذه الأحاديث . فان هؤلاء الشبان كانوا «المواد الخام» التي استطعت أن أدرس بها الطبيعة البشرية . ذلك أن هؤلاء الشبان كانت تتراوح أعمارهم بين الثامنة عشرة والخامسة والعشرين . ولذلك كانت المشكلة الجنسية بارزة عندهم جميعاً . وهذه المشكلة الأصلية تحرك مشكلات عائلية واقتصادية واجتماعية أخرى . وكثيراً ما وجدت أن أحد الشبان كان مثقلاً أو مرهقاً بالعاطفة الجنسية التي كان يتخلص منها بالعادة السرية . وكثيراً ما كنت أجد أن الخيبة في الامتحانات المدرسية تعود إلى الانغماس في هذه العادة التي يزيد خطرها فداحة أن الجنس لا يختلطان . فان اعتزال كل جنس للآخر يجعله على الاستسلام للخيال ثم يلتزم هذا الخيال حتى يعود وكأنه في «شيزوفرينيا» أي هذا الجنون الذي يتسم بالاستسلام التام للخيال والانفصال التام من الواقع ومن المجتمع . وكثيراً ما فكرت في هذا الموضوع المعقد أي كيف يرفه الشاب الأعزب المرهق بالعاطفة الجنسية عن نفسه في مجتمعنا المصري الانفصالي . وما زلت أذكر شاباً كان حوالي العشرين جاء إلى في ذل وصغار يلمح أحياناً ويصرح أحياناً بأنه لا يطيق حائته وأن يوشك على عمل خطير

إن لم يتخلص من العادة السرية . وكان قد أسعن فيها حتى صار يحلم أحلاماً جنونية وكان يبقى طوال النهار التالى وهو مكتئب بسببها لأن هذه الأحلام كانت تبدو له حقيقية ، وبكلمة أخرى شرع عقله يختلط . ورأيت أن أنصح له بالرقص مع إحدى الفتيات . ونفر هو من هذا الاقتراح كما كان ينتظر لأن المستسلم لهذه العادة يؤثر الانفراد والخيال ويكره الاختلاط والواقع . ولكنى بعد جهد استطعت أن أقنعه بأن يحاول هذه التجربة ، إذ لعلها تنجح . وكان له أصدقاء يرتصون فراقبهم ، وبعد المحاولات الأولى الفاشلة تم التعارف بينه وبين بضعة فتيات وحذق بعض الرقصات وصار يزور المراقص .

ورأيته بعد نحو شهرين فخلوت به وسألته عن حاله فأخبرنى ، وأنا فى دهشة عظيمة ، أنه منذ أن رقص كفى عن العادة السرية . وكان تعليله عجبياً . فقد قال إن فى الرقص من الشهامة والذوق والجمال ، وهى صفات تلازم الرقص ، ما يناقض الذلّة والصغار والحقارة التى فى العادة السرية . وتأملت الشاب وهو يصرح بهذه الكلمات فوجدت فى وجهه وإيماءته مصداق ما يقول ، فقد ذهب عن وجهه التردد والخوف وازدان بجرأة وشهامة .

وكان فى هذا الكلام نور لى . وبالطبع كانت الحالات تختلف . فهناك من كان يتجع فيه النصيح بالاهتمام بالكتب والثقافة . وهناك من كان يجد فى النجاح المدرسى ما يشغله عن هذه العادة . ولكن الرقص كان من أعظم الوسائل الشفائية وخاصة للحالات الخطيرة . وهذه المشكلات اضطرتنى إلى أن ألقى أحاديث عديدة للشبان

عن السيكلوجية . وكتابى الأخير فى هذا الموضوع « عقلى وعقلك » قد ناقشت فصوله قبل كتابتها معهم فى قاعة المكتبة . وكثير من مؤلفاتى قد ألفت فصولها أحاديث عائلية وطرحت للمناقشة مع الشبان ، مثل « البلاغة العصرية واللغة العربية » و « الشخصية الناجعة » و « التثقيف الذاتى أو كيف نربي أنفسنا » و « فن الحياة » وهذه الكتب على ما يبدو من أسماها تختلف فى الموضوعات ولكنها تتفق فى أن وجهتها جميعاً سيكلوجية .

وكثير من أفراد الجمهور يعتقد أن جمعية الشبان « المسيحية » خاصة بالمسيحيين مع أن الحقيقة أن بها نحو ٣٠٠ أو ٤٠٠ عضو مسلم وبها عدد كبير من اليهود . وقد حدث أن أحد الطلبة من الأزهر جاءنى فى ذات يوم وطالب إلى أن أدله على المكان الذى يستطيع أن يشتري منه الكتاب الذى ألفته أو طبعته الجمعية عن الاسلام . وكان يعتقد أن هذه الجمعية تبشيرية وأنها لا هدف لها سوى التبشير بالمسيحية . فلما أخبرته أنى لا أعرف هذا الكتاب وأن بالجمعية نحو ٤٠٠ عضو مسلم لا يعرفون أيضاً دهش وتركنى وهو لا يكاد يصدق . والتبشير هو أبعد الأهداف عن هذه الجمعية . وفى ١٩٣٧ ثم فى ١٩٣٨ كان للجمعية مصيف قرب العريش وكان المصطافون من الأعضاء المسلمين والمسيحيين واليهود . وكانت العادة أن نبدأ الفطور بصلاة قصيرة يتناوب فيها مسلم بقرآنه أو يهودى بتوراته أو مسيحي بإنجيله . ومما يمتاز به هذه الجمعية أنها دائبة فى التطور وهى تتكيف بالبيئة . ففى العالم نحو مليونى شاب وفتاة فى فروع هذه الجمعية . ولكن نظامها

في الهند غير نظامها في مصر أو في برازيل أو في الصين . وإليك بعض مراحل التطور في جمعية القاهرة :

١ - حوالي ١٩٢٦ أنشأت الجمعية قسما للصبيان الذي تترجع أعمارهم بين ١٠ و ١٦ سنة . ويرأس هذا القسم الأستاذ يعقوب فام الذي تعلم في جامعة ييل بالولايات المتحدة قيادة الصبيان وإرشادهم وتكوين شخصياتهم وتقويم أخلاقهم . ولا يزال هذا القسم يربي وينشئ الصبيان وهو منخرة للجمعية .

٢ - حوالي ١٩٣٣ أنشأت الجمعية نادي كوبري الليمون للصبيان المحرومين الذين يجتمعون من الأحياء الفقيرة ويعلمون كيف يقضون وقتهم في أعمال وألعاب تعاونية اجتماعية تبعدهم عن التسكع في الشوارع . وهذا النادي هو أولى الحركات الارتياضية لتعليم الصبيان الفقراء في مصر .

٣ - حوالي ١٩٣٩ شرعت الجمعية تمييز التحاق الفتيات كي يختلطن بالشبان . وقد سارت على حذر في هذا المشروع فكان الاختلاط يحدث أولا مع عائلة الفتاة حتى إذا ألفت الفتاة هذا الاختلاط صار لها أن تحضر وحدها . وقد أدى هذا الاختلاط بين الشبان والفتيات ، تحت أعين المشرفين اليقظة ، إلى مظهر جديد من الشخصية للفتيات وإلى لباقة ورشاقة في الحديث والايماة بين الشبان . فان من المناظر السارة أن نجد في الحديقة جماعة من الشبان والآنسات ، أكثرهم بل ربما جميعهم من الطلبة والطالبات ، يقعدون إلى المائدة يشربون

الشاي ويتحدثون في أنسة وصراحة لم تكن نحلم بمثلهما في شبابنا .
ويرأس هذا القسم الأستاذ حنا قام الذي تعلم أيضاً في الولايات المتحدة
ودرس هناك شئون « الواي » أي جمعية الشبان المسيحية .

وقد عاون قسم المكتبة في الجمعية على هذا الاختلاط بما أسماه
« يوم العائلة » حيث يعقد اجتماع مسائي يوماً في الشهر من عائلات
الأعضاء الذين يتناولون الشاي ويستمعون إلى حديث قصير من إحدى
السيدات أو الآنسات المشتغلات بالشئون الاجتماعية أو الثقافية . وفي
خلال الاجتماع تعزف الموسيقى أو تجرى ألعاب للتسلية ، والفضل في ذلك
للأستاذ غالى أمين الذى تعزى إليه أفضل كثيرة أخرى في تنظيم
المحاضرات والاجتماعات بالمكتبة . وهو الآن في امريكا .

وفي الحرب الكبرى الثانية نشط البوليس السياسى فى القاهرة
ومنعنى من إلقاء محاضرات فى الجمعية إلا بعد أن تعرض على وزارة
الداخلية التى توافق على إقامتها أو ترفضها . فكنت أكتب المحاضرة
أو كما نسميها فى الجمعية « الحديث » ، ثم أرسل هذا إلى المحافظة
فيمتى أحياناً عشرين يوماً قبل أن يرد إلى مع عبارات قد ضرب عليها
حتى لا أقولها . ثم يحضر عضو من البوليس معه نسخة من الحديث .
فأقرأ أنا الحديث أمام الأعضاء ويراجع هو على حتى لأخالف ما هو
مكتوب . وبعد نحو شهرين من هذه الحال رأيت أن الكف عن إلقاء
الأحاديث أسلم ، وكففت . وكتابتى « التثقيف الذاتى أو كيف نربى
أنفسنا » قد روجع معظمه فى وزارة الداخلية على هذا الأساس . فقد
كنت ألقيه أحاديث تقرأ وتراقب قبل الإلقاء . . .

وقد تأسست « جمعية الشبان المسلمين » على غرار جمعية الشبان المسيحية . ولكن العضوية قصرت فيها على المسلمين دون المسيحيين واليهود . وهذا عيب كبير لأن جمعيات الشبان المسيحية هي منظمات عالمية يراد بها الاخاء البشرى الذى يتجاوز الاختلافات المذهبية والدينية والعنصرية .

وأحب أن أذكر شيئاً عن سكرتيرى هذه الجمعية فى القاهرة . فقد مر ذكر الصديقين يعقوب فام مدير قسم الصبيان وحنان فام مدير قسم الطلبة . وكلاهما كما قلت قد تعلم فى الولايات المتحدة على نفقة الجمعية تعليماً إحصائياً للعمل الذى يقوم به . وقسم الصبيان هو دار الشفاء للصبيان الذين يبتسون بالبيت أو يفسدون بالشارع أو هو دار وقاية أكثر مما هو دار شفاء . وقسم الطلبة من التجديدات الرائعة فى الجمعية . والاتجاه نحو الاختلاط بين الجنسين فى هذا القسم قد أثمر خير الثمرات ولم يحدث قط ما يدعو إلى الأسف .

وهناك الأستاذ مراد عصفور مدير القسم الرياضى . وهو أيضاً قد أرسلته الجمعية إلى الولايات المتحدة كي يتعلم ويعود للقاهرة لإدارة الرياضة فى الجمعية ، وأخيراً هناك السكرتير العام وهو الأستاذ نجيب قلادة . وهو شخصية محببة قد اندمجت حياته فى حياة الجمعية حتى لأظن أنه يحلم بها فى نومه . وهو رجل متبصر يحسب للمستقبل كثيراً ولا يتهور .

أما الشخصيات الأمريكية التى عرفتها بالجمعية فكثيرة ، اقتصر منها على ذكر اثنتين فقط . الأولى شخصية السكرتير العام للجمعيات فى

الشرق الأوسط وكان يدعى ولبر سمث . وكان أعرج قد قطعت ساقه إلى الفخذ منذ الشباب لأن الدرن كان قد ضرب في عظامها . وكان مع عرجه يسوق الأتومبيل ويلعب التنس ويخطف درجات السلم . وكان نشاطه عجبياً حتى بعد الثانية والستين . يقرأ ويلعب ويختلط بالأعضاء . وكثيراً ما كنت أتعجب لوفرة ثقافته مع وفرة اهتماماته بشئون الجمعية . وإني أذكر أني ناقشته أكثر من ساعة عن فولتير وقيمتها في حركة التحرير والتنوير في أوروبا . وكان يفتنى الكتب وينفق عليها في سخاء . ولم تكن المناقشة معه محدودة أو مقيدة في أي موضوع . وهذا هو روح المناقشة في قاعة المكتبة على الدوام . وهذا هو بالطبع ما أدى إلى هواجس وزارة الداخلية وتدخلها للرقابة أيام الحرب . وهناك شخصية أخرى هي جيمس كواي . وهو أمريكي بقامته ووجهه وأخلاقه وميوله . فقد كان معنا حين كنا نصطاف بالعريش فكان ينزل البحر عريان كما ولدته أمه في حين كنا نحن نعجز عن التخلص من رواسب الحجاب فكنا لا ننزل البحر إلا بعد أن نتخذ الكسونات . ومما يدل القارىء على أسلوب المعاملة الذي يتبعه هذا الأمريكي مع خادمه أنه ، حين كان يمنح إجازته وهي سنة كاملة يقضيها في الولايات المتحدة إزاء كل أربع سنوات يقضيها في القاهرة ، كان خادمه يقضى هذه السنة بلا عمل ينتظر رجوعه . ومن الشعائر التي كان كواي يتبعها أيضاً مع خادمه هذا أنه كان يدعوهم وعائلته ، عائلة الخادم ، إلى مائدته وتقوم المسز كواي بتهيئة الطعام وتقديمه لهم باعتبارهم ضيوفاً . وفي هذه الجملة مغزى إختائى لا يستهان به .

وفي أثناء الحرب الكبرى الأخيرة تبرعت حكومة الولايات المتحدة بنحو ألف جنيه للمكتبة لشراء كتب أمريكية . وقد انتفعنا كثيراً بهذه الهبة .

وأخيراً أقول إنه إذا كانت الجمعية قد انتفعت بي باعتباري مرشداً ثقافياً فاني أنا أيضاً قد انتفعت بها بالوقوف على اتجاهات الشبان ومشاكلهم . وعندما أذكر بعض هذه المشاكل وإنه كان لي بعض الفضل في إزالتها يعمرنى سرور عظيم .

وقبل نحو أربعين سنة كنا لا نعرف غير القهوة مكاناً تقعد فيه ونشر من البيت إليه . وكانت بيوتنا خالية من وسائل الراحة ولا نقول الرفاهية . سيئة الطراز في البناء سيئة الجوار سيئة الأثاث . وقد تحسنت هذه الحال شيئاً بين الطبقة المتوسطة ولكنها ازدادت سوءاً بين الطبقات الفقيرة . ومثل جمعيات الشبان المسيحية وأيضاً نادي كوبري الليمون ملاذ يلجأ إليه الشاب أو الصبي ويتعود فيه المطالعة والمناقشة والحديث وألعاب التسلية النظيفة . بل يتعلم فيه الاختلاط المهذب مع الجنس الآخر . وهذا ما لم نكن نحلم به في شبابتنا . ولذلك نجد أن للشباب الذي قضى سنتين أو ثلاثاً في عضوية الجمعية سمات لا تحطأ . فهو لبق متحدث أنيس لا يعرف القعود على القهوة يدرس السياسة ويقتنى الكتب ولا يخجل ذلك الخجل المربك من الحديث إلى الجنس الآخر . وكل هذه العادات قد تعودها من الجمعية .

من الأفلام الماضية

نستطيع أن نجمع الضوء بالعدسة فتتلاقى أشعته المتفرقة في بؤرة هي أضواء نوراً واكثف أشعة . وليست هناك عدسة للزمن حتى تجتمع فيها ساعاته ودقائقه في ثانية أو ثوان . . . ولكن وجداننا يقوم أحياناً ، في المآزق والضائقات مقام العدسة ، بحيث نعيش في لحظة خاطفة سنين طويلة ، كما يحدث مثلاً عند ما نوشك على الغرق ويغشانا الماء ونتعلق بين الحياة والموت . ففي هذه الحال ينبسط أمامنا « فلم » من الذكريات التي مضت عليها السنين . . .

كنت مرة على جزيرة وايت حوالى سنة ١٩٠٨ ، في جنوب إنجلترا ، وكنت أسير على شاطئ صخري هاو يرتفع أكثر من مائة متر . . . وبينما أنا في سيرى أتأمل البحر إذا بقطع من الغم تتقدمها كباش قد برزت قرونها في وحشية مروعة تتجه نحوى في هرولة طارها عقلى فوثبت كي أتجنبها . ولكنى في وثبى رأيتنى على حرف الهاوية أكاد أسقط . وفي تلك اللحظة الحرجة رأيت فلماً من أفلام طفولتى يمر بذاكرتى في سرعة برقية . فهنا مآزق من مآزق الحياة قل إن خلا أحد من تجربته أو ما يشبهه : خطر داهم يجمع ذكرياتنا في بؤرة تسطع منيرة في وجداننا . . . ولذلك نذكرها طوال حياتنا . ولكن هناك تجارب أخرى يتكاثف

فيها الزمن ويتجمع في وجداننا . وهي أيضاً نتيجة المازق الحرج الذي لا يبلغ الموت ولكنه يدانيه في عمق الاحساس وتنبه الوجدان .
وليس من الضروري أن يكون هناك خطر متوقع ، ولكن لا بد أن يكون هناك ألم يحز كأنه الموت . كنت ذات مرة في باريس أجلس على قهوة ومعنى إخوان نتحدث عن السياسة . فتطور الحديث إلى نقاش حار . فاحتد أحد الشبان الفرنسيين عليّ لأنني خالفته وقال لي : « لا تناقش . . . ليس لك هذا الحق . الانجليز أسيادكم ! »

وتباهت . وتضاحت . . . ولكنني شعرت كأنني شربت سما ، وأن أبعائي تتمزق . ونهضت وقصدت إلى غرفتي ، وانبطحت على السرير وأنا أبكي . وبعد ذلك لم أكن أصطدم في أي مدينة في أوروبا بأى شخص أقل مصادمة إلا ويهتف بي صوت داخلي : « الانجليز أسيادكم ! » فأذل وأتمزق .

وفي الحرب الكبرى الأولى كان شباننا يؤخذون قسراً من القرى فيربطون بالخيال وينقلون إلى فلسطين . وكان الكثيرون منهم يموتون أو يعودون وهم حطامات بشرية ، قد فقدوا أنفع أعضائهم . وذات يوم كنت على محطة الزقازيق فاذا بي أرى شاباً لم يبلغ العشرين ، وإلى جانبه شيخ هرم كأنه أب أو عم لهذا الشاب . وكان الشيخ دائم الكلام في حرارة وعطف ، حتى كاد رأسه أن يمس وجهه لشباب ، فاقتربت منهما . ولكنني فزعت من هول ما رأيت . ومازلت

أفزع من هذه الذكرى . . . فقد كان الشاب فاقد البصر من غبار فلسطين وسينا ، وعاد أعمى لا يرى نور النهار . . . وكان الشيخ يواسيه بكلمات كاذبة ، والشاب ينصت في جمود وصمت كأنه لا يسمع .

وأحسست ، وبينى وبينهما أقل من مترين ، كأنى مجرم . وكأنى مسئول عن هذه الكارثة التى نزلت بهذا الشاب . وجف حلقى وودت أن أفول للشيخ شيئاً . ولكن جمود الشاب جمدنى . وبقينا ثلاثتنا على هذه الحال . إلى أن جاء القطار الذى حملهما إلى قريتهما . . . وقد مضى على هذه الحادثة نحو ٢٨ سنة . ولكنى عند ما أخلو لنفسى ، يعود « الفلم » فينبسط أمامى وأستعيد كل كلمة وأرى كل حركة من حركات الشيخ المواسى والشاب الأعمى . ثم تتمزق أمعائى عندما أذكر فى دخوله قريته واستقبال أمه أو أخته له واستقباله لهم .

وكنت حوالى سنة ١٩١٧ فى المنصورة . وسئمت من جلسة طالت على إحدى النهوات التى تشرف على النيل ، فهضمت عند الغروب وصرت أجول على غير هدى فى الشوارع والأزقة . فلأعتم المساء أخذت طريقي إلى التهوة . . .

فبينما أنا أسير الهوينأ إذا بى أسمع صوتاً خافتاً ظننت أنه يصدر من أحد المنازل ولكن الصوت كان مع ختوته قريباً . فتلفت حولى فرأيت شيئاً ضئيل الجسم حسبته كلباً أو قطاً . فاقتربت منه فسمعت صوتاً يقول فى خلط واضطراب : « ملوخية . . . ملوخية

باللحمة . . . عيش وملوخية . . . بدى أكل . . . أنا جعانة : عيش
وملوخية . . . »

ودنوت من هذه الأشلاء المكمومة الملفوفة في الخرق . فوجدتها
امرأة قد استحالت من الفاقة والبؤس إلى حطام لا يعقل . ووقفت إلى
جانبا أسمع أزين الجوع وبكاء المعدة . . . ثم قصدت من فوزى إلى
مطعم فاشتريت لها طلبتها وعدت مع صبي المطعم إليها ، وأخذنا نحن
الاثنين نعرض عليها ما أحضرناه من الملوخية واللحم وأكلت المسكينة
في ضعف وارتباك . . . ولكنها لم تأت على ريع الرغيف ، وظنى أنها
كانت في أيامها الأخيرة . . .

وكما جاءت العتمة عقب الغروب وضاعت نفسى لسبب ما عادت
هذه الذكرى تضى في نيلتى فأتهد أسفاً على ذلك الحطام البشرى
الذى ظننته أول الأمر كلباً أو قطاً .

وفي صرخة الموت عدوية تفتن النفس ، وفي الموت نفسه فتنة
كأنها صحوة الوجدان ، حتى لنحس أن يقظتنا إنما هي حلم نصحو
منه عند ما نقف إزاء من نحب وهو في النزع الأخير .

وقفت إلى جانبها، وهي أختى . وكانت في عذاب الذبحة الصدرية
تصرخ صرخات الموت . ولم أكن مغدوعاً أو واهماً في المصير المحتوم
الوشيك ! وعاد « الفلم » ينبسط أمامى مبتدئاً بما حدث منذ أكثر من
٥٠ سنة وأخذت صورته تتعاقب الواحدة بعد الأخرى في لحظات خاطفة ،
وفي نصوع ووضوح ، حتى كأني أسمع كلماتها وهي تشتري لى الحلوى ،

وتغسل لى وجهى أيام الطفولة . . . ثم أنتبه من هذه الذكريات إلى صرختها العذبة الأليمة . وكانت فى عذوبتها تجعلنى أنتفض كأتى فى لذة أليمة ، أو كأتى فى طرب حزين ثم جاءت النهاية وساد السكون . . .

وخرجت وإذا بى أنظر إلى السماء فلم أتوك سحابة إلا وأنا أتأملها كأنها شأن خطير يجب ألا أنسى شيئاً من تفاصيله . أو كأتى أقرأ حروفها الفضية وأطلع من ورائها على سر خطير . فلما انطبعت هذه السحب فى نفسى ، نظرت إلى الأرض . ولكنى عدت فى لطفة أنظر إلى هذه السحب كأن شيئاً يوشك أن يفلت منى . ثم ترون فجأة تلك الصرخات العذبة الأليمة نارتاح إليها وأسكن وأسكن . . .

وهذه الذكريات ، أو هذه « الأفلام » على إيلامها ، هى الحياة . هى كنز يجمع المر والحلو واللذة والألم . وحياة تخلو منها هى حياة تخلو من كنوزها . . . وحين أعود إلى اللحظات الحاطفة التى تجمع فيها الاحساس والوجدان ، أحس حناناً لذيذاً جارفاً ، يبدأ حرقه والتهاياً ثم يتميع خيالا ينساب هنا وهناك فى أفكار وخواطر شتى عن الموت ، وعن الدنيا ، وعن المصير ، وعن الحاضر والمستقبل ، بل وعن العلم والأدب والفلسفة والسياسة . . . فتتغير القيم والأوزان ، فأرفع من بعضها وأجس من بعضها الآخر . وعندئذ أحس أن هذه المازق ، وهذه الكوارث ، هى المجال الذى أتغير فيه وأتطور . وأن هذه الكوارث ، إنما هى حوافر تنبه الوجدان وتبذل الذهول بالاحساس الملتهب ،

والتفكير المركز . . . حتى أنى لا أحسد أولئك الذين حرموا من هذه الكوارث فتبدلوا وتجمدوا وعاشوا كما لو كانوا سمكا لا يجزنون ولا يلهبون . . . أجل ! لم يعرفوا طرب الحزن الذى يسمو فى لذته وتأثيره على طرب الفرح ، ولم يصدمووا بتلك الصدمات المنبهة التى توقفتهم فى الطريق حتى يتأملوا ما قطعوا منه فى الماضى وما سوف يقطعون فى المستقبل . أجل ! لم يجمعوا الزمن فى بؤرة إنسانية تتكاثف فيها الأشعة فيزداد ضوء الوجدان .

بعض الأدباء الذين عرفتهم

عرفت جرجي زيدان مؤسس «الهلal» قبل أن يموت بسنتين أو ثلاث ، بل عرفته منذ ١٩٠٩ حين كنت بائعاً ، وكنت قد ألفت رسالة «مقدمة السبرمان» وبعثت بها إلى مطبعة الهلال كي تطبع ، فأحالتها المطبعة إليه ليقرأها . وبعث هو إلى بخطاب مسهب يشرح لي فيه وجوه النقد التي يأخذها على الرسالة ، ويقترح حذف بعض الفصول والسطور مما عده مخالفاً للعقيدة العامة . وأذكر من خطابه هذا قوله : « إنه لا بأس بان ننتقد المسيحية ؛ لأن المسيحيين قد ألفوا نقد ديانتهم ، أما المسلمون فيجب أن نتوقأهم ؛ لأنهم لم يأنفوا النقد . » وقد خرجت هذه الرسالة مشوهة مبتورة لكثرة ما حذف منها .

ولما عدت إلى مصر زرتة واتصلت معرقتي به إلى وفاته ، وكنت بين مشيحيه إلى قبره . وكان جرجي زيدان عصابياً في ثقافته وثروته . وهو أول من أرصد حياته في عصرنا لدراسة التاريخ الاسلامي ، وأنف في ذلك قصصه الكثيرة كما ألف تاريخ التمدن الاسلامي . وهذه الكتب تعد من الطلائع لهذه الدراسات التي استفاضت في العشرين أو الثلاثين سنة الأخيرة . ولم يكن لجرجي زيدان أي اتجاه علمي . حتى لقد كتبت ذات مرة أعزو الحجاب عند العرب إلى أسباب بيولوجية هي

أن البنات في الأقطار الحارة يبلغن سن النضج الجنسي في الحادية عشرة أو حوالى ذلك أى قبل اكتمال سن النضج الذهنى . ولذلك لم تكن لمن من عقولهن رقابة على غريزتهن الجنسية أو ضبط لها ، وأن هذا هو السبب للحجاب بين العرب . فتعجب لهذا التعليل وقال لى إن « الأسلوب يعجبني » ، ولكن الحقائق تكذبه . وكانت هذه « الحقائق » عنده تاريخية . وأنا الآن أعرف أنى كنت مخطئاً فى هذا التعليل البيولوجى ؛ إذ ليس هناك أى فرق فى سن النضج الجنسى بين أبناء المناطق الحارة والمناطق الباردة ، والتعليل الصحيح للحجاب اجتماعى .

وكان جرجى زيدان انبساطياً بديناً بشوشاً كثير الأصدقاء . ومات عقب انتهائه من أحد مؤلفاته . فما هو أن أم الصفحة الأخيرة حتى وضع القلم وانسطح ، فانفجر شريان أحدث له « النقطة » . وفى اليوم التالى شيعناه إلى الجبانة ، وكان هناك عدد غير صغير من الأدباء الذين استعدوا لتأيينه . ووضع النعش وكشف عن الوجه ونهض أحد المؤمنين . ولكن ما إن شرع فى إلقاء كلماته حتى صاح شقيق للمتوفى يقول : إنه رأى شقيقه يرمى وإنه لا يزال حياً . وكانت المسألة لا تزيد على أن عاطفته قد تغلبت على عقله . ولكن كانت النتيجة أن المشيعين عادوا ولم يسمعوا تأييناً ، وترك حارس للجثة إلى الصباح . . .

ومؤلفات جرجى زيدان لا تزال حية وهى أقرب إلى التلخيص منها إلى الاسهاب ؛ لأنه عالج موضوعات لم يعالجها أحد من قبل . فكان يستوعب أكثر ما يستطيع فيضطر إلى الاقتضاب . ولما أنشئت

الجامعة المصرية كلف إلقاء محاضرات عن التاريخ الإسلامى . ثم عادت إدارة الجامعة ، فألغت هذا التكليف بدعوى أنه مسيحي . وقد تركت هذه الحادثة في نفسه مرارة ، فكان لا يفتأ يذكرها في حزن وألم . وكان فرح أنطون يصدر « الجامعة » ، وكان من وقت لآخر ينتقد « الهلال » . وكانت مجلة « الهلال » شرقية ومجلة « الجامعة » غربية . فلم يكن هناك نقطة للتعارف أو التصادق بين صاحبيهما . واتصلت صداقتي بفرح حين شاركته في تحرير « اللواء » لفترة قصيرة حوالى ١٩٠٩ . وكنا نقضى السهرة في إحدى القهوات المطلة على ميدان الأوبرا أو مايقاربها . وكان فرح « مفكراً حراً » بالمعنى الفرنسى لهذه العبارة . وكان يعرف نيتشه وروسو . وقد اندسج بعد ذلك في الحركة الوطنية المصرية . وكان حلبي الأصل ، ولذلك شق عليه اتخاذ اللهجة المصرية العامية . وكان انبساطياً مفراحاً يشرب الخمر ، بل كان يشرب الأبيسن ، وهو مشروب منع بيعه بعد ذلك لفتكه بالصحة . وقد ترك كل من جرجى زيدان ، وفرح أنطون ، أثره في النهضة المصرية . فان الأول فتح أبواب الدراسة لتاريخ الاسلام والعرب وآدابهم وعقائدهم وحضارتهم ، كما فتح الثاني أبواب الدراسة للنهضة الأوروبية . ومات الأول حوالى الخمسين ، ومات الثاني حوالى الأربعين . وفي تلك السنوات عرفت يعقوب صروف محرر « المقتطف » ، وكان قد جاوز الستين . وأذكر أنه لأول مقابلة لى شرع يسألنى عن أصلى هل أنا مصرى قح أم بى عرق أجنبى ؟ وكان قد قرأ رسالتى « مقدمة السبرمان » . وبعد حديث طال فى العلوم عاد فجزم بأنى أجنبى ،

وأن تفكيرى يدل على هذا ! وكانت نزعته العلمية قد طغت عليه ، فلم يكن يحسن التقدير للأدب أو الفلسفة ؛ ودار بينى وبينه نقاش ذات مرة عن هربرت سبنسر وشوبنهاور . فأبرزت أنا القيمة العظمى للفيلسوف الألماني الذي نظر النظرة الكونية الشاملة . أما هو فكان يرى أن سبنسر أعظم المفكرين في العالم ، وأن شوبنهاور لا قيمة له بتاناً إلا في « ملاحظات » أدبية أو مجازفات فلسفية . وكان « المقتطف » في أيامه من المجالات القوية التي وجهت القراء العرب الوجهة العلمية وأنارت بصيرتهم . ولم يكن جافاً في إيراد البحوث العلمية ، كما أنه كان من وقت لآخر يترجم إلى العربية مقالات جديدة من المجالات الأوربية .

وفي إدارة المقتطف وجدت أمين المعلوف ، وكان لغويا علمي الذهن . وقد وضع معجماً بعد ذلك للحيوان لا يزال أحسن ما يعتمد عليه في هذا الموضوع . واتصلت بينى وبين أمين المعلوف صداقة إلى وفاته . وكان يكثر من الشراب . وقبيل وفاته بعامين أو ثلاثة أصيب ببحّة كانت تجول الحديث معه شاقاً ، ولكنه احتفظ ببشاشته وذكائه . وقد عاش أمين المعلوف ملء حياته . فاشتغل في السودان ووصل إلى أقاصيه العليا حيث أفريقيا السوداء ، كما اشتغل في مصر والعراق . وهو ، مثل فرح أنطون ، لم يتزوج .

ويجب أن أذكر هنا أن جميع هؤلاء الأربعة كانوا سوريين ، أو ، كما نقول الآن بعد التجزئة التي أعقبت انهيار الدولة العثمانية ، لبنانيين . وكانوا جميعهم كارهين للحكم العثماني لا يطبقون ذكره . وإذا شرع

أحدهم في الحديث عنه لم يتالك من الغيظ. ولم يكن وجدانهم وطنياً ؛ لأن رؤيا الاستقلال للعرب لم تكن قد تجسمت . وكان اليأس أغلب عليهم . وحتى بعد انهيار الدولة العثمانية ، عقب الحرب الكبرى الأولى ، بقوا على شك من حقيقة الاستقلال المزعوم لهذه الدول العربية . وأظن أنهم كانوا على حق في هذا .

ومن الشخصيات النذرة التي عرفتها قبل الحرب الكبرى الأولى شخصية الأديبة الكبيرة م . وقد بقينا صديقين ، إلى يوم وفاتها عقب عودتها من مستشفى الأمراض العقلية في لبنان . ولم تكن م جميلة ولكنها كانت « حلوة » . وكانت تعرف الآداب الإنجليزية والفرنسية ، وتقرأ كثيراً وتقف على الاتجاهات العصرية في أوروبا وأمريكا والشرق . وكانت أيضاً متمدنة من حيث اكتمال وسائل التمدن في العيشة . وكان تمدنها وثقافتها يكسوان وجهها وتعبيرها ظناً ورقة . وقد استطاعت م أن تجعل احتراف الأدب عند الفتاة المصرية والسورية زينة أنثوية لا استرجالا كريهاً . وكانت ، في حياة أبويها تعقد بمنزها اجتماعات «صالونية» حيث يكون السياسي والأديب والوجيه بعض ضيوفها . وكانت تشترك في جميع المناقشات بل كانت أحياناً تديرها . وقد تنبه ذكاؤها كثيراً لاختلاطها بهؤلاء الضيوف . ولم يكن هناك موضوع تعجز عن الاشتراك في معالجته . وتفعل كل ذلك في رقة وجمال وتمدن . ومات أبوها فلم يتأثر « الصالون » ، ولكن عقب وفاة والدتها تزعمت م . ولم يكن ذلك ، في ظني ، لحزنها على والدتها التي ماتت بعد أن أسنت وبعد أن كان موتها

منتظراً . وإن كانت الفرقة بين الأم وابنتها قد تركت أثرها ، وخاصة عندما نعرف أن مى لم تتزوج ، وأن رفقتها لأُمها كانت تعزيها . وليس من السهل على فتاة أن تجد نفسها يوماً ما وهي منفردة مقطوعة في منزلها ، وخاصة في وسط ، مهما قلنا إنه متمدن ، لا يزال شرقياً .

على أنى أظن أن السبب للتزعزع النفسى الذى أصاب مى كان انتقالها الفسيولوجى من الشباب إلى الكهولة . وهذا الانتقال كثيراً ما يخل بالاتزان الفسيولوجى عند بعض النسوة ، وقد ماتت مى منذ أكثر من سنتين بعد سنوات قضتها في مستشفى الأمراض العقلية في لبنان . ولما عادت زرتها مع صديقى الأستاذ أسعد حسنى ، وفتحت هى لنا الباب . فرأيت شخصاً لا أعرفه ، رأيت سيدة بيضاء الشعر كأنها فى السبعين . فسدرت عيني . فغمزنى أسعد وهمس : الآنسة مى ! الآنسة مى ! فسلمت وتضاحكت . ولكنها هى أدركت كل شئ واستولى على اكتئاب وخجل وجمود وارتسمت فى ذهنى صورة لعذاب النفس الذى لقيته هذه المسكينه فى مرضها . ولكن سرعان ما زال عنى الاكتئاب والخجل والجمود ، إذ شملنى أسف . فان مى قعدت إلينا وشرعت تقص علينا ما قاسته فى المستشفى وكيف ألبسوها « الجاكتة » التى تمنع العريضة عند المجانين ، وكيف أضربت هى عن الطعام ، ثم ، وهننا الأسف والحزن ، كانت وهى تروى لنا ما وقع لها وكيف أن أدباء مصر نسوها وتركوها ولم يسألوا عنها ، كانت تضحك مرة وتبكي أخرى . وتكرر هذا منها كثيراً . وأدركت أنها لا تزال فى حاجة إلى المستشفى .

وزاد اعتقادي هذا عندما أصرت على أنه كان لها أقرباء ينوون خطفها من القاهرة ، وكانت تذكر أسماءهم وأنهم كانوا يتربصون بها في مكان تعينه ، وكانت هي مضطرة إلى المرور بهذا المكان .
 وخرجنا نحن الاثنين ونحن في أسف وغم لهذه الحال التي كانت عليها مي . ولكن أسفى أما كان مزودجاً ؛ فاني بقيت طوال المساء وأنا أفكر في جمودى وكيف أنى لم أتنبه عندما رأيته بالباب ناحيها تحية اشتياق وتقدير وأنها لا بد قد عرفت من جمودى أنها قد تغيرت ، وأن جمالها وحلاوتها وظرفها ورقتها قد زالت . وملا تى هذه الخواطر مرارة بل كراهة لنفسى .

فلما كان اليوم التالى قصدت إلى منزلها وأنا طوال الطريق أستعد للقاء أرجو أن أقتع به غمامة الأمس . وهو مع ذلك لقاء لفتاة مريضة مزعزة . فلما فتحت لى الباب عاقتها فى حنان صادق وحب مصطنع . وتراجعت هى وتأملت وجهى فى ابتسام وانسراح واضحين وهى تقول : « مرسى . مرسى يا أستاذ ! »

وشعرت أنى كفرت عن جمودى بالأمس . وقعدت معها وأنا أتحدث فى نشاط وسرح . ولكنها عادت إلى البكاء والضحك . فكانت دموعها تنهمر بالبكاء ثم بعد لحظات تتشجع بالضحك . وبعد أسابيع مانت . إذ لم تطق هذه الدنيا التى رافقتها أكثر من ثلاثين سنة وهى تتلا لأ فيها بالشباب والجمال ، ثم عادت فتركتها منفردة فى شيخوختها بلا جمال وبلا تلاؤ .

ومخلفات هى الأدبية كثيرة ، ولكنها كانت فى حديثها أبرع وأذى

مما كانت في جميع ما كتبت . وكنت أقول لها إن السبب لتفوق حديثها على مقالاتها ومؤلفاتها أنها شرقية تخاف في الكتابة أن تبوح بكل ما تفكر فيه ولكن هذا الخوف يزول عنها في الحديث . وقد صدمتني ذات مرة بملاحظة جعلتني أفكر ، هي قولها : « إن مبالغتك في التناؤل هي في صميمها وأصلها مبالغة في التشاؤم » . وأحياناً أظن أنها كانت صادقة ، كما أنها هي أيضاً كانت متفائلة ذلك التناؤل الذي يخفي التشاؤم ويضمه .

وقد يسائل القارى هنا : لم لم تتزوج مى مع جمالها وثقافتها ؟ فالجواب أنها كانت تعيش في وسط شرقي . ولو كانت مى قد نشأت في براين أو باريس أو لندن لوجدت الكثيرين ممن ينشدون الشرف والسعادة بالزواج منها ، والفخر والمجد بالتصاق تاريخهم بتاريخها . ولكن إخواننا اللبنانيين ، على الرغم من عصريتهم ، لا يزالون شرقيين ولم يستطيعوا أن يسيغوا زوجة تستقبل ضيوفها في صالون أدبي له حرية الصالونات الأوروبية في المناقشة والاختلاط . وبكلمة أخرى نقول : إن مى عاشت عمرها قبل ميعادها بخمسين سنة .

وقبل الحرب الكبرى الأولى عرفت عبد الرحمن البرقوقي صاحب مجلة « البيان » . وكانت هذه المجلة الشهرية تحاول أن تحيي الأسلوب العربي القديم على نحو ما فعلت جريدة « مصباح الشرق » للمويلحي أو كما تفعل الآن مجلة « الرسالة » . وكان البرقوقي تقيضى في أهدافه الأدبية ؛ فقد كان يجد لذة عجيبة في التعبير عن معنى ما بكلمة مائة . ويقول إننا يجب أن نحى هذه الكلمة . ولم يكن يبدى احتجاجي عليه

بأن الكلمة إنما أُميتت لأسباب قوية استدعت موتها، وأن إحياءها الآن خطأ ؛ لأن مركزها الاجتماعي قد انعدم . وكان صهره مصطفى صادق الرافعي أكثر إيماناً منه في خطة الإحياء للكلمات الماتة . وعرفت محمد السباعي وكان الكاتب الأول في مجلة « البيان » . أما الكاتب الثاني فكان عباس حافظ . وكلاهما كان يعني أكبر العناية بالأسلوب العربي القديم . ولم يكن بمجلة « البيان » لا كثير ولا قليل من الفن الصحفي ، ولذلك لم تعش طويلاً .

وكان عبد الرحمن البرقوقي من أطيب الناس . وكان غربي الذهن قضت المصادفات بأن يكون شرق التربية والثقافة . وكنا أحياناً نمشي في الأسكندرية فيأخذ في المقارنة بين الشوارع التي أقيمت إليها مساكن الأجانب وبين تلك الأخرى التي أقيمت إليها مساكن المصريين . ويستنتج من هذه المقارنة ما يحمله على القول بأن الشرق كله مفلس . وكان قد عرف الشيخ محمد عبده وأدرك المغزى في اتجاهاته وإصلاحاته . وإذا كان حقاً أن الخمر تكشف عن خبايا الصدور ، وتفكك الضوابط التي تحول دون الصراحة ، فاني أروى الحادث التالي الذي يدل على النفس الزكية التي كان يتسم بها البرقوقي . فقد كنا على قهوة في الأسكندرية حوالى ١٩١٤ . وقد قعدنا إلى الموائد الخارجية والنسيم يهب علينا كأنه البلم في رفته ورخامته ، وأمامنا أكواب من البيرة (أو غيرها) نشربها في اشتهاً ولذة . ثم طلبنا رطلين من الكباب ، فجاء بهما الخادم وبخار الكباب يتصاعد ورائحة الشواء تسكر . وما إن شرعنا نتنقل على هذا الطبق حتى طرأ علينا متسول .

وكان غاية في الرثاءة والجوع والعنن . فطلب إحساناً . فتأسله البرقوق ثم نظر إلى كأنه يستفهم . ثم دفع الطبق إلى طرف المائدة وقال للرجل : كل . فأكل الطبق كله برطليه من الكباب وهو واقف .

وكان البرقوق يسكن ، هو ومجلته ، بالقرب من باب الخلق ، وكانت « الجريدة » قريبة منه . وقد دعوته قبيل الحرب الكبرى الأولى أن تزور معاً لطفى السيد (باشا) رئيس تحريرها . ولم أكن أعرفه قبل ذلك إلا من مقالاته مع إعجابي العظيم بها . فلما دخلنا عليه وجدت غرفته كأنها غرفة وزير في سعتها وأثاثها . وتحدثنا عن نيتشه والتصوف . ولا أدري إلى الآن كيف جمع بينهما لطفى السيد . ولكني خرجت من هذه المقابلة الأولى وفي اعتقادي أن لطفى السيد أديب كما هو فيلسوف .

وحوالي تلك السنين ، أو قبل ذلك بقليل ، بزغ طه حسين ، وكان أزهرياً معماً ، يكره الأزهر ، ويعربد على صفحات « الجريدة » . والتحق بالجامعة المصرية ونال دكتورية الأدب . وكان النرح عاماً بين الشباب الجديد لهذا الأزهرى الناجح . وكنت أصدر مجلة « المستقبل » الأسبوعية في الدعوة إلى القرن العشرين وما بعده . فنشرت صورته وهو بالحجة والقنطان . وراج العدد بين القراء الذين رغبوا في اقتناء الصورة . وكان لنجاح طه حسين قيمة رمزية هي أن مصر العتيقة تستطيع أن تتجدد . وقد وجد طه حسين من لطفى السيد المراعاة بل أحياناً المحاباة ، حتى كانت مقالاته تتحيز المكان الأول في « الجريدة » على الدوام . والواقع أن انتقال طه حسين من الأزهر

إلى الجامعة المصرية ثم إلى السوربون، مع أنه ضريب، هو معجزة. ولكن ثم معجزة أخرى هي أنه اتخذ مكاناً أمامياً ثورياً مستقبلياً في الأدب. مع أن الانسان كان يتوقع، بعد اعتبار ماضيه، أن يتخذ مكاناً تقليدياً. حيث يراعى «قواعد النحو والصرف» في الأدب والاجتماع والسياسة. وقد يقال إن المعري قد أثر فيه وبعث في نفسه كراهة لقواعد «النحو والصرف» في أسلوب الحياة. ولكن يبقى عندئذ سؤال هو: لماذا اختار طه حسين المعري كي يكتب عنه ويسهب في الكشف عن عقله وقلبه؟ ولا عبرة بأن يقال إن الاشتراك في العاهة باعث مقنع للقوة الجذبية التي وجدها طه حسين في المعري. لأن هناك أدباء وشعراء كثيرين بهم هذه العاهة ولكنهم لم يجذبوه. وظنى أن عاهة العمى لم يكن لها إلا أثر في التفات الأديب المصري إلى أديب المعرة. وإنما الأثر الأكبر أهما يشتركان في الثورة، وخاصة الثورة على المشايخ. فقد رأى طه حسين في الأزهر ما بعث سخطه وحركه إلى الكفاح، ثم رأى عند المعري مثل هذا السخط ومثل هذا الكفاح. فارتبطت بين الأديبين أواصر الحب والفهم وتعارفاً وتفاهماً. وقد انتقلت عند طه حسين بعد ذلك، بؤرة المعركة من ميدان الأزهر إلى ميدان السياسة المصرية ولكن اتجاهاً الأول لم ينحرف.

وهناك من يزعم أن السياسة قد أفسدت أدباءنا وشغلتهم عن مهمتهم الأصلية. وهذه المهمة إنما هي عند هؤلاء الزاعمين أدب البرج العاجي الذي لا يتصل بالمشكلات العصرية. ولكنهم مخطئون. لأن الأديب في عصرنا يخون عصره إذا لم يكن سياسياً. وأعنى بالطبع

السياسة العليا العالمية والقطرية ولا أعنى أن يستأجر أحد الأحزاب كاتباً فيرصد قلمه للدفاع عنه ظالماً أو مظلوماً في مهاترات مزرية . ونحن نعيش في عصر انفجارى ينفل بالانقلابات الاجتماعية والأدبية والعلمية . وذلك الأديب الذاهل الذى يعيش في البرج العاجى إنما يتعد عن أهم الشئون البشرية حين يتعد عن السياسة . وكل أديب له وجدان بتطور العالم في عصرنا يحس أن واجبه الأول أن يكون هو نفسه عنصراً من عناصر هذا التطور . ولذلك يستحيل أدبه إلى أدب كنفاحى سياسى .

ولذلك لا يستحق أدباؤنا اللوم على أنهم أخضعوا أديهم للسياسة ، بل الحق أنهم يستحقون الثناء والحمد . وحين أنبل الصدود الذى نلاقيه أحياناً في بعض الأفراد أو عند الجميع عن شوقى ، على الرغم من شاعريته الرائعة ، أعتقد أن سرجه أن شوقى لم يمارس الأدب الكنفاحى . ولم يطابق بين فنه وبين أسانى الشعب ، إلا في فترات نادرة . وأن إعجاب الشعب بحافظ ابراهيم ، على الرغم من شاعريته التى لا تسمو إلى مستوى شوقى ، إنما يرجع إلى أنه طابق بين فنه وبين أمانينا السياسية . وحتى في المستقبل بعد مائة سنة مثلاً سوف يدرس حافظ ويستدل بشعره على عواطف الأمة المصرية واتجاهاتها ومستواها الفنى أكثر مما يدرس شوقى الذى عاش ، زمناً غير قصير من حياته ، في البرج العاجى .

ولم أعرف شوقى إلا في السنوات الأخيرة من حياته . وكان له مكتب بالقرب من دار الكاتب المصرى كنت أزوره فيه . وقد فهمت

مقداراً كبيراً من سيكولوجيته حين شرع ذات مرة يوضح لى في إسهاب لماذا ألف درامة « كايوبطرة ». فقد زعم أنه أراد أن يزكى هذه المرأة باعتبارها ملكة مصرية قد أسى إليها في سمعتها . ودهش أكبر الدهشة منى عندما ناقضته وقلت إنها لم تكن مصرية . وكان في ثقافته يصبو إلى كل قديم ، حتى إنه لم يدرك شيئاً من التيارات الكسعة التي اتسم بها الثلث الأول للقرن العشرين . وقد ولد شوقي في أواخر القرن التاسع عشر في مصر ، في بيئة الباشوات والبيكوات التي كانت تكره عرابي ، ولم يقطع الحبل السرى الذي كان يربطه بالقرن التاسع عشر إلى يوم وفاته .

أما حافظ إبراهيم فكان من الجواهر التي لا تزال تلمع وتسطع في ذكريات جميع الذين عرفوه . وكان يمتاز أو يتسم بوجه كالح متجههم يصدم بل يخيف لأول نظرة ، حتى إذا قضى معه الانسان نصف ساعة ودّا لو ينفض ليقبله ويعانقه . فقد كان أنيساً يتحدثك بنكات ، بالمعنى العربي القديم لهذه الكلمة . وكان وطنياً يطابق بين أمانيه وأماني الدهماء من الفلاحين والعمال والمتوسطين . وأذكر من نكاته أني سألته ذات مرة عن رأيه في أحد الشعراء ، فكانت إجابته العجيبة : « إن أشعاره يجب أن تنسى عن ظهر قلب » . وهو عندي ذكرى تترنم بها نفسي .

وليس هناك مفر من المقارنة بين شوقي وحافظ ومطران ؛ فان دراسة هؤلاء الثلاثة تدل على التيارات المتناسقة والمتناقضة في المجتمع المصرى في الخمسين من السنين الأخيرة . فاننا نحس أحياناً في قصائد

شوقى ومقطوعاته جو الترف المصرى الذى أوشك على الزوال : السجاجيد
 الايرانية وصينية القهوة الفاخرة يحملها عبد أسود ، والمقاعد الناعمة
 والحجاب ، حجاب المادة والروح . أما أشعار حانظ فصرحات المتألم ،
 وأحياناً مهاترات العاجز. ونحن نقرؤها فنصرخ معه أونها تتر فى ألم وعجز ؛
 لأنه منا ونحن منه ؛ شاعر مصرى بلدى يقرأ أخبار المظاهرات ويفرح
 بها ويؤلف القصائد عنها وكأنه يريد أن ينتظم فيها مع الطلبة . أما مطران
 فيشبهه أحياناً تلك الحدائق الأنيقة التى يجمع فيها أصحابها الأثرياء
 أصص النباتات الأجنبية التى تسأل عن أسائها ونعجب بروائها . ولكن
 ليس لها فى قلوبنا ذلك الحنين الذى نحسه حين نذكر حقولنا المألوفة
 بفلاحها وجداولها وأشجارها من الجميز والتوت .

ومن الشخصيات الذهبية التى تبرز فى وجدانى وأفتأ أذكرها كما
 عن حديث عن الأدب أو القلم أو الشرق أو الحضارة ، شخصية
 شبلى شميل . وكان رجلاً قصيراً متكئ الجسم كأنه مصارع ، عرفته
 فى ١٩١٢ وقينا على اتصال بل تحاب إلى وفاته فى أواخر الحرب
 الكبرى الأولى . وكان فى تلك السنوات يقارب السبعين ولكنه كان
 على صحة وشباب نادرين وكان روحه الكفاحى للغيبيات يسم ، وقد
 يقول غيرى ، يسم ، كل كتاباته . ذلك أنه كان يدعو إلى الحرية
 الفكرية فى كلمات جريئة وأحياناً فى وقاحة جريئة ، كما كان يدعو إلى
 نظرية « النشوء والارتقاء » أى التطور . وقد نقل إلى لغتنا كتاب
 بوخز فى هذا الموضوع . وكان يسخر من الغيبيات فى كلمات لا يجرؤ
 غيره على استعمالها . ولما أصدرت مجلة « المستقبل » فى ١٩١٤ ، أيدنى وكان

يكتب فيها بتوقيعه أو بلا توقيع ، وقد كتب فيها قصيدة فلسفية لم أفهم غايته منها ، وإلى الآن لا أفهمها .

وكان شبلى شميلي مفكراً أكثر مما كان عالماً . وكان يقنع القارى بعقله وليس بمعارفه . ولذلك عندما ما قرأ مخلفاته الآن نجد التفكير الرصين والأسلوب الرصين . وكان كثير من المعجيين به يستهوهم أسلوبه وكان هو يرد على ذلك بأن رصانة الأسلوب هي ثمرة الرصانة في التفكير . وهذا حق . ولكنى مع ذلك كنت عند زيارتي له في منزله أجد التوراة أمامه وأجد أثار التقليل فيها . وكنت حين أداعبه بأن مكافئته للغيبيات لا تتفق وهذا الغرام بالتوراة كان يجب بأنه يجب بلاغة التوراة وأن اهتمامه بها لغوى أثرى .

وكان من حيث المزاج والتفكير بل المعيشة أوروبياً متمدناً . وكان يحمل على عادات الشرق وتقاليده في لهجة شاغبية . وكان متديناً شديداً التدين بل متعصباً في تدينه بالديانة البشرية . وظهر هذا التدين عند إعلان الحرب الكبرى الأولى فإنه بقي أسابيع وهو هائج كما لو كان قد استولى عليه نيوروز . وظنى أنه لو كان في سن الشباب لتطوع لمحاربة ألمانيا لأنه عد هجوماً هجوماً على المبادئ البشرية .

وهذه الديانة البشرية التي ذكرتها كانت أيضاً ديانة جميل صدقى الزهاوى . ولكن الزهاوى كان يعمل في بغداد ، في السر والظلام . في حين كان شبلى شميلي يجاهر ويعلم ولا يبالي . وحوالى ١٩٢٥ زار الزهاوى القاهرة مع السيدة زوجته . وسارع إلى السؤال عنى . وقضينا أياماً ونحن نلتقى وننحدث في كل شأن . وكان رجلاً

صئبلا قد بلغ السبعين أو تجاوزها وكان يسير على ساقين ركيكتين تكادان تعجزان عن حمله . وكان أيضاً غربي الذهن على ذكاء خارق ولكن على معارف ناقصة في العلوم العصرية . وقبل أن يغادر القاهرة سلم إلى مخطوطة هي ديوان يجمع عدداً من قصائده التي لو طبع بعضها لأدى إلى السجن . لأنها طعن وفتح في كثير من العقائد التي اصطلح الناس على تقديسها . وهذا الديوان ، بعد أن بقي عندي سنوات ، طلبه مني زكي أبو شادي ولا يزال عنده إلى الآن . ولا أظن أن الظروف الحاضرة أو القادمة ، في القريب ، ستؤدق بطبعه .

وقد تركنا زكي أبو شادي كي يعيش في الولايات المتحدة لأنه يعتقد أن الرجعية الفكرية قد خيمت على مصر في هذه السنوات الأخيرة . وأن الأحرار ، لهذا السبب ، لا يستطيعون أن يتنفسوا في الجو الخانق الذي سعى الانجليز لاجياده في جميع أقطار الشرق العربي . ونحن نحسر كثيراً بغيابه عنا . فانه أديب عالم وقد أخرج مجلة وألف كتباً خدمت مصر وبسطت لنا آفاقاً للتفكير العصري . وهو يجيد الكتابة بالانجليزية كما يجيدها بالعربية . وله عندي مؤلف باللغة الانجليزية في الديانة البشرية جدير بأن يوضع في صف مع المؤلفات التي من نوعه في أية أمة أوربية متمدنة .

وحين أراجع العاكسات التي لقيها زكي أبو شادي والتي أدت أو أدى بعضها إلى تركه لمصر ، زيادة على موجة الرجعية التي اكتسحتها هذه السنوات الأخيرة ، أجد أنها تعود إلى أنه متمدن . وأنه في سلوكه فضلاً عن لغته ، لا يبالي أن يكون عصرياً . وهذه العصرية تنعى

على بعض الأشخاص المتمدنين . والناعون هم على الدوام شرفيسون تقليديون كارهون للحضارة العصرية . ولكنهم في كراهتهم لا يتشوفون إلى حضارة مستقبلية راقية أو أرقى مما نجد في حاضرنا ، بل يرجعون إلى تقاليد وعادات تنافي العصر الديمقراطي وتنكر مبادئه . ومن هنا فرار زكي إلى الولايات المتحدة وكراهته لجونا الحاضر . وهذا هو ما يجب أن نأسف عليه جميعاً وأن نتأمل في مغزاه كثيراً .

ومن الأحرار الذين عرفتهم محمود عزمي ، وهو الآن في كهولته « معتدل » . ولكنه كان في شبابه جريئاً واسع الآفاق بعيد الأمداء وكان يجرى في غلواء الشباب . دعوته ذات مرة في أواخر ١٩٣٠ إلى أن يكتب للمجلة الجديدة مقالا فشرط على أن يكتبه بالحروف اللاتينية . وكان هذا قبل أن يناضل عبد العزيز فهمي باشا لأجل الخط اللاتيني بنحو خمس عشرة سنة . ولم ينزل عن رأيه إلا بعد مناقشات متكررة . وكان يدعو إلى القبة ويعتمر بها في شوارع القاهرة . وقل أن نجد كاتباً مثل محمود عزمي في نصاعة تفكيره وصحة منطقته . وهو هنا يشبه كثيراً عبد القادر حمزة . ومن الملذات الذهنية أن يقرأ له الانسان مقالا يناقش فيه الموضوعات السياسية مناقشة موضوعية في تعقل بعيد عن الزخارف اللفظية أو الأوهام البلاغية .

وعندما أرجع بذاكرتي إلى كثيرين من الأدباء ، وبعضهم لا أحب أن أذكرهم ، وأتأمل الجهود العظيمة التي بذلوها والنزعات النبيلة التي نزعوا إليها في أول عهدهم بالكفاح الأدبي ،

ثم كيف انتكسوا منهزمين راضين بالماضي بدلا من أن يقتحموا المستقبل ، عند ما أتأملهم ، أجد أن العيب لم يكن فيهم وحدهم وإنما هو أيضاً في هذا القدر الذي حاطنا بظروف سياسية ، استعمارية أجنبية أو استبدادية داخلية ، تعاقبنا نحن الأدباء ، على التقدم والرقى وتكافئنا على التأخر والانحطاط . أجل ، هذا القدر القاسى الذى يهى قوات الظلام فى مصر وفى أقطار الشرق العربى كى تحميم على دعاة النور وتطمس نورهم ، وقد انطمس كثير من النور .

التدابير الانجليزية لفقرتنا وجهلنا ومرضنا

لم يكتب تاريخ الجناية التي جنبتها بريطانيا على مصر إلى الآن .
لم يكتب لا تفصيلاً ولا إجمالاً . وهو حين يكتب سوف يقف الجمهور
في مصر كما تقف شعوب العالم خارج مصر على جنایات تتجاوز حدود
الخيال . فقد هبت الأمة في ١٨٨٢ بقيادة عرابي تطلب من الخديوي
توفيق طلباً متواضعاً ، بالمقارنة إلى سائر الأمم ، هو الحكم البرلماني . وبعد
أن سلم الخديوي بهذا الطلب عاد فمأحك فيه وانتهى إلى القول بأن
مجلس النواب يستطيع أن يفعل ما يشاء إلا النظر في الميزانية . ومعنى
هذا أنه لا يستطيع شيئاً بتاتاً . لأن كل مشروع يحتاج إلى مال يدخل
في الميزانية وإذن يستطيع الغاؤه ويعود البرلمان كما لو كان جمعية يتمرن
أعضاؤها على الخطابة العقيمة الثرثرة . وإذا كان جائزاً لملك أو أمير
أن يطلب مثل هذا الطلب من أمته لكان يجب في ظروفنا في ١٨٨٢
ألا يجوز مثل هذا الطلب من الخديوي في مصر . لأننا في تلك السنين
كنا خارجين من سنوات الافلاس للحكومة المصرية ، وهو الافلاس
الذي كان يرجع سببه إلى تصرف الخديوي السابق اسماعيل . وما زلنا
نحن إلى ١٩٤٧ نؤدى أقساط هذا الدين الأبدي .

وكان الخديوي توفيق يصر على منع النواب من النظر في الميزانية

بتحريض المالبين أى الساسة ، لأن السياسة هى المال ، من الانجليز والفرنسيين . فان هؤلاء كانوا يوقنون بأن الدين المصرى ظلم فاحش واحتيال سافل . وكانوا يتوقعون من النواب المصريين عرقلة فى دفع الأقساط . فكان لذلك خوفهم من الحركة الوطنية المصرية وتأييدهم لاستبداد الخديوى توفيق فى اصطدامه بعرايى .

وشخصية عرايى هى شخصية مقدسة فى تاريخنا ، شخصية الفلاح الناهض الذى لم يطق رؤية أبناء الأتراك والشركس والأرمن يمتازون على أبناء المصريين فى الجيش والادارة . فنثار على هذا النظام . ثم رأى أن النواب فى ثورة أخرى لأجل الحكم البرلمانى الصحيح . فاندغمت الثورتان ضد الخديوى توفيق وضد طبقة الأتراك والشركس . ورأى الانجليز الخطر على ديونهم التى أوقعوا فيها اسماعيل كما رأوا الفرصة سانحة كى يحتلوا مصر . ثم يحيلوها بعد ذلك إلى مزرعة للقطن تغنيهم عن الواردات الأمريكية من القطن ويقفون أيضاً على قناة السويس وهى باب البحر المتوسط إلى آسيا . فكانت الحرب بين الانجليز المستعمرين ، أى الساسة التجاريين والصناعيين ، وبين الفلاحين المصريين .

وكان يعاون الانجليز فى هذه الحرب الغادرة عرب الصحراء والأتراك والشركس . ولم يكن يعاون الفلاحين أحد .

واتمته الحرب بهزيمة الفلاحين المصريين ودخلت مصر ، سياسياً ، فى العصر الجليدى ومعى اسمها من التاريخ وأوقف تطورها نحو خمسين سنة . وأعاد الانجليز إلى الخديوى سلطته الاستبدادية وألغوا

البرلمان . وأيضاً أعادوا حكم الأتراك والشركس والأرمن . كما نرى مثلاً أن رئاسة الوزراء لم تسلم إلى مصري من أبناء الفلاحين منذ ١٨٨٢ إلى ١٩٠٨ أى مدة ٢٦ سنة تولى فيها هذه الرئاسة أبناء الأرمن والشركس والأتراك وحدهم . وبقي الانجليز بعد ذلك على هذه القاعدة كما رأوا نهضة من الفلاحين . فانهم كانوا يعمدون فوراً إلى أحد أبناء الأتراك أو الشركس فيولونه رئاسة الوزراء كي يحطموا به نهضة الفلاحين أى الحركة الوطنية .

ثم شرع الانجليز في مهمتين سلبيتين إحداهما منع التعليم فأقفلوا المدارس . وثانيتهما منع الصناعة فلم يأذنوا باقامة مصنع . بل لقد أقمنا مصنعاً لنسيج القطن في بولاق حوالى ١٩٠٠ اشتغل وأنتج الأقمشة فتعقبوه بالمعاكسات حتى أفتلوه وعينوا مديره الأرنندى في وظيفة حكومية . ولا تزال أسسه قائمة . وقد حصلت من كامل صدقي باشا على أحد الأسهم التأسيسية لهذا المصنع الذى عمل الانجليز على إفلاسه . ثم حددوا التعليم وصرحوا بأن المقصود منه إيجاد موظفين فقط للحكومة . وكانت مدرسة الطب محدودة العدد حتى أن خريجيها في بعض السنين لم يكونوا يزيدون على ٦ أو ٧ أطباء في العام كله . وكان أطباء الجيش المصرى يجلبون من لبنان من خريجي الكلية الأمريكية في بيروت . وكانت حالنا مع ذلك أفضل من حال الهنود ، فان هؤلاء كانوا محرومين من مدرسة للطب إلى ١٩٢٠ فلم يكونوا يتعالجون وهم ٤٠٠ مليون ، من أمراضهم إلا على أيدي السجالين أو على أيدي الأطباء القليلين جداً الذين تعلموا في أمريكا أو أوروبا .

فتعقل هذا أيها القارىء ، تعقل وتدبر فى هذه القسوة وكيف كنا محرومين من الأطباء قبل ١٩١٩ إلا خمسة أو ستة تخرجهم مدرسة الطب كل سنة .

وكيف حرم الهنود حرماناً تاماً من مدرسة للطب إلى ١٩٢٠ .
 وإنى أذكر فيما بين ١٩٠٠ و ١٩١٥ أنى لم أزر طبيباً مصرياً .
 لا أنا ولا واحد من أعضاء عائلتى . ولم أكن أسمع بطبيب مصرى .
 إذ كان كل الأطباء الممارسين بالقطر المصرى أجانب من اليونانيين أو
 الايطاليين أو الانجليز أو الفرنسيين . بل أكثر من هذا . فى ١٩٢٧
 كان على ماهر باشا وزيراً للمعارف ، وسنحت له فرصة فى إحالة الجامعة
 الشعبية إلى جامعة حكومية وكانت هذه الفرصة هى غياب المندوب
 السامى البريطانى جورج لويد . وجمع المختصين وصرح لهم « بأننا
 يجب أن نبادر وأن نؤسس الجامعة المصرية على أساس ثابت فى غياب
 اللورد لويد لأنه إذا جاء قبل أن ننتهى من هذا العمل فانه سيعارض
 ويمنعنا من إيجادها » . وتلك كانت خطة الانجليز لتبوير العقول المصرية .
 وتم تأسيس الجامعة فى غياب اللورد لويد ، ولما عاد إلى مصر
 ووجدها قائمة كان ينتفض غيضاً وجزعاً .

وكانت هممة الانجليز المشؤومة فى منع التعليم تنجده إلى البنات كما
 تنجده إلى الغلمان فانهم منعوا التعليم الثانوى للبنات ولم نستطع إيجاد
 مدرسة ثانوية للبنات إلا فى ١٩٢٥ . وكانت وزارة المعارف ترسل
 بعثات إلى أوروبا وتشتترط على أعضائها ألا يلتحقوا بأية جامعة ، وإذا
 فعلوا فصلوا من البعثة وحرموا من الاعانة المالية .

هذا من ناحية التعليم من حيث المنع أى من حيث تحديد الكم؛ ولكن حملتهم المشؤومة كانت تتجه أيضاً نحو الكيف . فكانوا مثلاً يصرون على ألا تدخل بنت فى المدرسة السنوية الابتدائية (أكرر كلمة ابتدائية) إلا وهى مبرقعة كما كانوا يصرون على أن يكون معلم اللغة العربية معماً ، غيرة على التقاليد . حتى تبقى من دعاة الفعل الماضى نعيش فى الأمس .

أما من ناحية الصناعة فقد عرفوا المصنع فى عام ١٩٠٤ بأنه : « محل متلقى بالراحة أو مضر بالصحة أو خطر » ولا يزال هذا التعريف قائماً إلى الآن . وهو يكفى لاقفال أى مصنع فى العالم . ولذلك لم يجرؤ واحد على إنشاء مصنع إلى ١٩١٩ بل إنى أنظر فى جدول الصادرات والواردات فى ١٩١٣ فأجد أن الواردات إلى مصر كلها من السلع الانتاجية أى الآلات لا يزيد ثمنها على ١٨٠٠ جنيه أى أقل مما يحتاج إليه مصنع صغير فى سنة واحدة .

واتجه الانجليز إلى إحالة القطر المصرى كله إلى عزبة للقطن وانبعثت همهم إلى زيادة محصوله بايجاد المشروعات للرى حتى يتوافر فيشترونه رخيصاً ولا يخشون المزاومة الأمريكية فى الأسواق العالمية . ولم يكن الانجليز قط أمة زراعية فكان من العجب أن يفتونا هم فى الزراعة ويتسلطوا على حظوظنا فيها . والمتأمل لتاريخ وزارة الأشغال ووزارة الزراعة يجد أنهما كانتا تعملان وتشاركان لهدف واحد .

هدف واحد ليس له ثان هو زراعة القطن . الأولى تقيم القناطر

وتخزن المياه وتشق الثنوات والثانية تقوم بالتجارب لإيجاد سلالات جديدة من القطن تمتاز بها صناعات لنكشير في إنجلترا .

أما كيف نصنع قطعة من الجبن أو كيف نزرع التفاح أو كيف نربي الدجاج أو كيف تزيد ثروة الفلاح ، فكل هذا لم يخطر قط بالأذهان المالية السياسية البريطانية . وقد أدى بنا هذا إلى أننا ، ونحن أمة زراعية كما زعموا ، كنا نشترى أقة التفاح بجنيه ونصف جنيه مدة الحرب الأخيرة .

والانجليز في جنونهم بزراعة القطن لم يبالوا قط بما سوف يؤدي إليه خزن المياه في التيل ، وتوفيرها في قنوات الريف ، من الأمراض . لم يبالوا أية مبالاة سواء بصحة التربة أو صحة الفلاحين أو الماشية أو النبات . فان أى إنسان ، مهما يكن جاهلا ، كان يستطيع أن يفهم في ١٩٠٠ مثلا أنه إذا استشبعت التربة بالمياه الوفيرة فانها ستملح وتقل خصوبتها . كما أن الحشرات والديدان ستعيش فيها وتتكاثر . ولا بد أن تفشو ديدان البلهارسيا والانكستوما والاسكاريس وقد فشت كل هذه الديدان التي لم تكن نعرفها في ١٩٠٠ إلا قليلا جداً . إذ لم يكن بين الفلاحين ممن يحملون هذه الديدان في أجسامهم تأكل لحوسهم وتشرب دماءهم من ١٨٩٠ إلى ١٩٠٠ سوى ٢ أو ٣ في المائة فأصبحوا الآن ، بفضل جنون الساسة التجاريين من الانجليز ، نحو ٨٠ أو ٩٠ في المائة وأصبحنا أمة مريضة نحاول الآن أن نشفى فلاحينا من هذه الديدان .

ومحاولتنا إلى حد بعيد عقيمة لأن أساس الري الذي وضعه الانجليز

في جنوبهم بزراعة القطن وهم أمة غير زراعية ، هذا الأساس ، لا يزال قائماً . ومياه الري تعلو على مستوى التربة .

وإني أذكر حين كنت صبياً بين ١٨٩٥ و ١٩٠٠ إني كنت ألعب مع الصبيان الفلاحين في الريف فكنا نجد الأرض أيام الجفاف مشققة يبلغ عرض الشق فيها نحو ربع متر وقد يطول إلى خمسة أمتار أو أكثر ولا يقل عمقه عن نصف متر أو متر . وكانت الحشرات والديدان تموت في هذا الجفاف . وكان الفلاحون يستمتعون بصحة عجيبة وكان الفدان يغلى عشرة قناطير أو اثني عشر قنطاراً من القطن . وهذا كلام يكاد الفلاحون أنفسهم لا يصدقونه . ولكني رأيتُه بعيني . وخصوصية الأرض متصلة ، كما يعرف جميع الذين مارسوا الزراعة وفطنوا إلى الأمراض الريفية ، بصحة الفلاح بل بصحة النبات والحيوان . ولكن طرق الري التي أفساها الانجليز في ريفنا أفسدتنا جميعاً ، ناساً وحيواناً ونباتاً وتربة .

تهوير العقول المصرية بمنع التعليم .

وأفقار الأمة بمنع الصناعة .

وتعميم الأمراض الدودية بالري الوفير لزراع القطن .

هذه هي الخطط الأساسية الثلاث التي سار عليها الانجليز فيما بين

١٨٨٢ و ١٩١٩ . وكانوا يدبرونها في عناية مع التبصر للمستقبل .

فإنهم كانوا يمنعون تعليم النبات مثلاً في ١٩٠٠ كي لا تكون لنا

عائلات متعلمة في ١٩١٠ أو ١٩٢٠ . وكانوا يمنعونا من إيجاد

مصنع للقطن مهما صغر ، كي لا نستغنى عن أقمشة لنكشير بعد

عشر سنوات . وكانوا يعارضون في إنشاء جامعة كي لا تنفشي العلوم بيننا فتوقظ عقولنا الخ . . .

وبهذا استطاع الانجليز أن ينزلوا بنا إلى الخسيس جهلا وفقراً وعجزاً . ومع أنهم هم السبب الأصلي للجهل والفقر والعجز فانهم كانوا يحتجون علينا بهذه النكبات الثلاث عندما كنا نطلب الاستقلال . فكأنوا في ١٩١٩ ، يذيعون في أنحاء العالم أن القارئ في مصر لا يزيدون على ٢ أو ٣ في المئة وسائر الشعب غارق في غياهب الجهل . وكان أحد مستشاريهم في ١٩١٩ أيضاً يلوم علينا جهلنا وأنه ليس بين المصريين من يدري عمليات البورصة .

ومما زاد فداحة الاحتلال الانجليزي لوطننا فيما بين ١٨٨٢ و ١٩١٩ أن تلك الفترة كانت فترة الاستعجال والترويج للثورة الصناعية التاريخي ليس في أوروبا وحدها بل في العالم كله . ونعني في العالم الذي لم ينكب بالاستعمار البريطاني . ولذلك كان تخلفنا عظيماً جداً في نتائجنا . حتى أن ثورة ١٩١٩ ثم ما تلاها من تطور اجتماعي أو اقتصادي تكاد تعد من المعجزات ، أجل من المعجزات على الرغم من جميع العراقيل التي وضعها الانجليز لمنع تطورنا .

ولو أن تطورنا سار سيرته الطبيعية من ١٨٨٢ إلى الآن بلا تدخل أو احتلال الانجليز ، ولو أن الخديوي توفيق نزل على رأى مجلس النواب ، لكنت مصر الآن في مقدمة الأمم المتقدمة . مائة في المائة من أبنائها يقرأون ويكتبون ويتعلمون في نحو عشرين جامعة ونحو خمسين ألف مدرسة ابتدائية وثانوية . وكان أجر العامل فيها لا يقل عن جنيه

في اليوم حيث كان يعمل في نحو خمسين ألف مصنع مصري وكنا عندئذ نكون أمة قوية في زاوية البحر المتوسط لا تجرؤ بريطانيا على أن تنطق بكلمة في شأن قناة السويس .

وكنا نكون أمة متمدنة لنا ريف متمدن لا تخلو قرية من قرانا من نحو مصنعين أو ثلاثة مصانع تحيل المواد الخام الريفية إلى مصنوعات عصرية .

كل هذا كان ممكناً لو أن أحداً لم يقف ضد مجلس النواب ويصر على أنه لا يجوز للنواب بحث الميزانية .

ولو أن الانجليز لم يحتلوا مصر في ١٨٨٢ .

وحتى بعد أن حصلت الأمة على الدستور في ١٩٢٢ بقى الانجليز على خطتهم القديمة وهي مكافئة الحكم النيابي . فكانوا يتحينون الفرص لتزييفه ويختارون الرجال لتحطيمه . ولذلك بقى طراز الصراع الذي كان بينهم وبين الأمة في ١٩٢٢ كما كان في ١٨٨٢ بينهم وبين عرابي . وكانوا يبحثون عن بقى من الأتراك والشركس كي يجعلوهم رؤساء للوزارات التي تناهض الحركة الوطنية الممثلة في الوفد . فرأينا زيور يجمع البرلمان في الصباح ويطرد أعضائه في المساء في ١٩٢٥ كأن نواب الأمة غوغاء لا أقل ولا أكثر .

وأرجو القارىء أن يفهم أنى لست أشك في وطنية أبناء الأتراك والشركس في مصر الآن . فقد اندغموا في الأمة ونسوا الصراع القديم أيام عرابي كما نسوا لغتهم الأصلية . ولكن الانجليز يحسون هذا الصراع القديم أكثر مما نحسد نحن ثم يسبثون فهمه أيضاً . وإن

كان مثال زيور يدل على أنهم لم يسيئوا الفهم . فقد حاول هذا المخلوق أن يحطم الحياة النيابية في مصر ونجح في تحطيمها سنين طويلة .

أخشى بعد أن سردت الكوارث التي أتتها الاستعماريون الانجليز بشعبنا أن يعتقد القارئ أني أكره الانجليز أو أن يؤدي ما ذكرته إلى أن يكره هو الشعب الانجليزى . فان هذا الشعب من أبل الشعوب في العالم . وما أستمتع به أنا من ثقافة أو قيم بشرية سامية يعزى معظمه إليه . وإنما أنا أكره الاستعماريين الانجليز فقط . وهؤلاء الاستعماريون ينهبون الشعب البريطانى ويدلون به بالنقر والجهل كما كانوا ينهبونا ويدلوننا . وليس الشعب البريطانى ثرياً إلى الحد الذى يتخيله وينتظره الانسان حين يتأمل هذه الامبراطورية الشاسعة . وصحيح أنه انتفع بموارد الامبراطورية التي حركت الصناعة . ولكن معظم المنفعة يعود إلى الاستعماريين والاستغلاليين . وهم طبقة واحدة . أى أن الذين يستغلون العمال في منشستر وجلاسجو وبرمنجهام هم أنفسهم الذين كانوا يستغلون المصريين والهنود والجاويين . وفي بريطانيا من الفقر ما ليس في أمة لا تملك أية مستعمرات مثل سويسرا أو نروج أو سويد . وقد ذكر هيوليت جونسون أن الصبيان الفقراء في يوركشير (في انجلترا) عندما عرض عليهم الموز رفضوا تناوله ولم يعرفوا كيف يؤكل لأنهم لم يأكلوه قبل ذلك . وكذلك فعلوا بالبيض . وذكر السر جيمس أور أن الذين يحصلون على الغذاء الكافى في

انجلترا لا يزيدون على النصف وأن سدس الأمة الانجليزية مريض للنقص الغذائى .

ورتب الكناس فى المجلس البلدى (من إحصاء فى ١٩٣٨) فى سويسرا هو ٢٢٣ جنياً فى السنة . وفى سويد ٢١٠ وفى دمبركا ١٥٠ . وليس لهذه الأمم مستعمرات . أما مرتب الكناس فى المجلس البلدى فى لندن فهو ١٤٥ جنياً فى السنة فقط . وأنى أقصد من ذكر هذه التفاصيل أن أبين للقارى أن الشعب الانجليزى يرى من الجرائم الاستعمارية التى يرتكبها دعاة الاستعمار والاستغلال وأن البرهان على ذلك هو فقر هذه الطبقات الدنيا فى إنجلترا ، هذه الطبقات التى تعيش فيما يتارب الحرمان والمرض اللذين تقاسيهما نحن المصريين والهنود والجاويين من التسلط الامبراطورى البريطانى مع تفاوت فى الدرجة . الشعب الانجليزى شعب متمدن نبيل . ولكن الاستعماريين من الانجليز أشرار بل أبالسة يجب ألا نذكرهم إلا باللعنات .

فلسفة وديانة

نعيش في ضوضاء تلهينا عن الفلسفة ، أى تلهينا عن الدين . لأن الفلسفة هي الدين . والرجل العصري الذى يدرس الفلسفات والأديان بروح التعلم يجد بينهما اختلاطاً يشبه الاندغام . وذلك لأن قضية الدين هي نفسها قضية الفلسفة ، وهي : كيف نفكر التفكير السليم ونعيش العيشة الطيبة ؟ ومقاييس الدين هي في النهاية مقاييس الفلسفة ، كما نرى مثلاً في كلمة برنارد شو: إن الرجل الطيب هو الذى يعطى الدنيا أكثر مما يأخذ منها . أى إن الدنيا تجد بعد انقضاء عمره أنها كسبت به ولم تخسر ، وأنفقت عليه أقل مما ترك لها . وهذا الذى تركه لها قد يكون حكمة أو قدرة أو علماً أو اختراعاً أو زيادة في الثروة أو الخير أو السلام .

وهذا المقياس فلسفى دينى . ولذلك حين أتحدث عن فلسفة الحياة التى أعيش بها هذه الأيام وأنا فى الستين أو حواليتها ، أجد أنها مزيج من الفلسفات والأديان . وصحيح أن الدين يطالبنا بالتسليم ، والفلسفة تطالبنا بالمنطق . ولكن ليست هذه الحال دائمة أو واضحة الحدود ؛ فإن فى الدين منطقاً كما أن فى الفلسفة تسليماً فى بعض الأحوال . وقد يقال أيضاً إن فى الدين غيبيات وليس فى الفلسفة غيبيات .

ولكن هل هذا صحيح ؟ ألسنا نقف مع أينشتين أو غيره إزاء غيبيات علمية حين يتحدثون عن الكون المتمدد الذى يدأب فى الاتساع فى الخواء ؟

إنى أذكر أنى ، حين كنت فى حمى المراهقة ، شرعت أسائل وأثبك فى الغيبيات المألوفة . ولم تزدنى السنون من ذلك الوقت إلا يقيناً بالإنكار . ثم تطورت الفكرة الدينية عندى أو انتقلت من التسليم بالغيبيات إلى الايمان بالقيمة الاجتماعية للدين أو الفلسفة و إلى تربية الضمير ، حتى تتغلب ، فى اللغة السيكلوجية ، الذات العليا على الذاتين الاجتماعية والحيوانية ، أى تتغلب القيم البشرية على القيم الاجتماعية والمادية .

وليس من السهل أن يكشف الانسان عن ضميره الدينى كيف تكون ثم نما ثم تبلور فى قليل من الاتجاهات الأخلاقية الرئيسة ثم تجوهر فى اتجاه مفرد يجذب إليه كل ما فى الشخصية من نشاط روحى . ولكنى أذكر أنى ، وأنا دون العشرين ، أحسست أن نظرية التطور تأخذ مكاناً دينياً فى نفسى وأنها قد حملتني واجباً روحياً . وقد نما هذا الواجب فى نفسى إلى واجبات . ذلك أن آفاق الحياة لم تتسع فقط بنظرية التطور ، بل زادت فى العدد واللون ، كما تشعب بها تاريخ البشرية شسوعاً عظيماً . ذلك أننا قد فهمنا من هذه النظرية أن كل حى على هذه الأرض لا يقل عمره عن ألف مليون سنة . لأن كل إنسان قد كان فى وقت ما طينة نبضت بالحياة ، فاذا به فيروس ثم أنبىة مفردة ، ثم أميبات متصلة متعاونة ، ثم حيوان رخو بلا رأس ، ثم

سمك ، ثم زاحفة ، ثم حيوان لبون ، ثم قرد ، ثم إنسان . ثم هذا الانسان سوف يكون سهرماناً .

فهنا قرابة تطورية بيننا وبين الحيوان . وفي هذا معنى ديني جليل لأننا والأسود والكلاب والقياطس والسمك أبناء عمومة . وكنا قد قطعنا على هذا الكوكب نحو ألف مليون سنة . وقد انقرض بعضنا وبقي بعضنا الآخر . ولكن مع هذا الانقراض والبقاء يتجه التطور في مجموعته نحو ما نفهم من الرقي البشري : وجدان موضوعي يأخذ مكان العواطف الذاتية ، أي عقل يسمو على الغرائز . وإذن نجد أن للرقى البشري أساساً طبيعياً . بل إن هذا الرقى مفروض علينا وواجب حتم بل واجب ديني بحيث يتطور الفرد وتتطور الأمة وتتطور الدنيا . ومن يعارض التطور ويدعو إلى الجمود يكفر لأنه يعارض الدين . وليس التطور كله منطقاً نستطيع أن نقيم عليه البرهان الناصح لأن فيه كثيراً من التسليم . ومن هنا كانت المشابهة بينه وبين العقائد الدينية . وليس من الضروري ، كي يكون لنا دين أو ضمير ديني ، أن نؤمن بالغيبيات ؛ لأن المعارف العلمية في أيامنا تكسبنا نزعات دينية . فهناك رجال الثورة الفرنسية مثلاً . فقد اشتطوا وألغوا الديانة المسيحية ، وأسسوا ما أسموه « ديانة العقل » . والانسان العادى حين يقرأ تاريخهم ويصفهم الوصف المألوف يقول إنهم « كفرة » . ولكننا عند ما نتأمل سلوكهم نجد أنهم كانوا مسوقين بروح ديني ، بل أكثر من هذا بعقائد دينية . وهنا تعجبني كلمة قالها ماترنى الوطنى الايطالى : « ليس هناك انتصار للروح البشري أو خطوة

ارتقائية للمجتمع البشرى إلا وبرجعهما عقيدة دينية راسخة .
 وفي سنى أجد أن مصادر ديانتى ، أو بالأحرى ضميرى الدينى ،
 إلى جنب البوذية والاسلام والمسيحية واليهودية والهندوكية ، تعود
 فى كثير من النور الذى أهدى به إلى السيكولوجية والبيولوجية
 والأنثروبولوجية والتاريخ . فان هذه العلوم قد أفدت منها مغزى
 المسألة البشرية ، مسألة ماضينا وحاضرنا وآملنا فى المستقبل . ولذلك
 كانت ديانتى موضوعية منطقية لا ذاتية عقيدية فقط .

ومع أنى نشأت فى المسيحية واحتضنتنى الكنيسة أيام طفولتى
 وصباى فاتها كانت فى تلك السنين الأولى من عمرى فى جمود لا يحمل
 على الحاسة أو يبعث الولاء أو يربى الضمير . وليس شك أن الكنيسة
 القبطية قد نهضت هذه الأيام ، وهى الآن غير ما كانت عليه قبل
 خمسين سنة .

وقد تغير إحساسى نحوها تغيرات مختلفة ؛ فقد عزفت عنها أيام
 الشباب لأن وطأة العلوم العصرية كانت شديدة على نفسى . ثم عدت
 إليها فى حنان فوجدت فيها تاريخنا المعذب الممزق ، ووجدت صوت
 الفراغنة ينطق عالياً من منابرها . فأصبحت الكنيسة القبطية عندى
 كنيسة قومية مصرية . ولكن لم يكن هنا دين إذ كان كل هذا
 إحساساً تاريخياً .

أجل ! قد يقال هذا القول ، وأنا أسلم بصحته إلى حد ما . ولكن
 الاحساس التاريخى ينطوى أيضاً على إحساس دينى . ونست أشك
 أنى حين انكبت على دراسة الفراغنة ، إنما كنت أنبعث بروح دينى

قومي . والدراسة الصحيحة للتاريخ يجب أن تكون موضوعية علمية كما يدرس أى علم . ولكن قلمنا نستطيع ذلك إذا كنا ندرس تاريخنا القومي .

وقد عرفت حوالى ١٩٣٥ المرحوم كامل غبريال باشا ، وكان قد درس اللغتين القبطية والفرعونية ، وحاول أن يحملنى على درسهما . ولكن سنى المتقدمة حالت دون ذلك . وقد نهضت هذه اللغة فى بعض الأوساط القبطية ، ولكنها لم تبلغ المكانة التى بلغتها اللغة العبرية بين اليهود ، أى أن تصير لغة التخاطب والتفاهم بل التأليف . فان اليهود الصهيونيين قد انقلبوا إلى عبرانيين وأحيوا لغتهم التى كادت قد انقرضت حتى فى أيام المسيح . وظنى أنهم يحسرون بذلك ؛ لأن هذه اللغة لن تتسع للثقافة العصرية . كما أن الأيرلنديين الوطنيين قد خسروا أيضاً باحياء لغتهم القديمة ؛ لأن اللغة الإنجليزية خير لهم ، ولو أنها لغة الفاتحين الغاصبين ، من لغتهم التى لن تتسع للثقافة العصرية .

وما زلت أذكر الأثر السيكلوجى فى صدىقى كامل غبريال باشا ؛ فانه لتعلقه بلغة الفراعنة صدقاً عن المسيحية باعتبارها ديانة أجنبية قد طردت الديانة المصرية القومية . وكان كثيراً ما يعقد المقارنات بين عقائد الكتاب المقدس (التوراة والانجيل) وبين عقائد الفراعنة ، كى يقتنعى بأفضلية الثانية على الأولى من حيث الأخلاق السامية والقيم البشرية العالية .

وقد كان أثر العقليين كبيراً جداً فى نفسى ؛ حتى إنى لحضت

أحد الكتب التي كانوا ينشرونها وهي « نشوء فكرة الله » لجرانت ألين . وأصدرت هذا التلخيص في نحو ثلاثين أو أربعين صفحة في مصر حوالى ١٩١٢ . ويرى القراء هذا الكتيب ضمن كتابي «اليوم والغد» . وقد كان هدف المؤلف أن يثبت تسلسل الأديان ، وأن التوحيد الحاضر يرجع إلى الأديان القديمة . ولم يكن جرانت ألين مصيباً في جميع افتراضاته ، ولكنه استهوانى في تلك السنين للنظر المادى الذى اتبعه في تفسير الغيبيات . ويعد ذلك عرفت « الغصن الذهبى » لفريزر وهو موسوعة رائعة للعقائد القديمة وتسلسلها إلى أيامنا تحت أستار مختلفة . ثم زادنى نوراً تلك البحوث المتشعبة التى قام بها أليوت سمث وزملاؤه في إيضاح الأثر الذى تركته العقائد المصرية القديمة . وهذه المؤلفات لفريزر وأليوت سمث ، مع تناقضها ، هى تربية خصبة وثقيف سام لكل من يدرسها . ولا يستطيع إنسان أن يصف نفسه بأنه مثقف إلا إذا عرفها . ولكن اهتمامى بهذه الدراسات وقتئذ لم تكن دينية بل كانت تاريخية .

على أن اهتمامى بالدين بدأ وأنا حوالى الأربعين . ذلك لأن النضج الدينى ، مثل النضج الجنسى ، لا يأتى إلا فى ميعاد . فقد شرعت أقرأ الكتب المقدسة جميعها فى عناية ، وأشغل نفسى بالمشكلات الدينية الهندوكية . وكنت أجد فتنة فى أنبياء التوراة بل فى أسلوب التوراة . كما أتى وجدت أن القوة الجاذبة فى شخصية المسيح كبيرة جداً . وقد مضى على نحو عشرين سنة وأنا أحلم بتأليف كتاب عن شخصية المسيح بحيث أكتب فى حرية الضمير مع إيمانى به وحيى له . ولكنى

كلما كنت أفكر في الالتباسات ، التي سوف تنشأ بيني وبين بعض القاء ، كنت أنكص وأنا في أسف ومرارة . لأنى أكره أن أوّل المطمئنين المستقرين الذين قد لا يجدون الطمأنينة واليقين في السيرة التي أرويها مخلصاً أنشد الحقائق ولا أبالى غيرها . وموقفى هنا هو موقف تولستوى ورينان .

ومن الأخطاء الصغيرة الخطيرة التي ارتكبها المترجمون للإنجيل إنهم يذكرون الله على لسان المسيح بكلمة «أبى» . ولكن الحقيقة أن المسيح كان يسمى الله باسم أبنا أى «بابا» وهى كلمة التجب والأدلال ، كلمة الأطفال . وذلك لاحتساسه العميق الحميم بأبوة الله أبوة حقيقية . ومن هذه البؤرة العاطفية تشع سائر عواطفه فى التحيز للفقراء والمساكين وفى الاحتساس بأن البشر جميعهم عائلته لأن «بابا» لا ينسى واحداً منهم .

وشخصية المسيح هى بعد كل ذلك شخصية مثقلة . فان كل أسئلة من أمائله تبعث على التفكير المثلث المثلث المثلث . إذ هو يشير بها المشكلات البشرية العديدة التى تنزعنا من القيم الاجتماعية الزائفة إلى القيم البشرية الصميمة . وحياته الرائعة ، ثم مسأته المؤلمة ، كلتاها دعوة إلى البر والشجاعة والشرف والتضحية . ولا يتأمل المتأمل للإنجيل من الوجدان بأن الضمير المسيحى يقتضى النظام الاشتراكى . لأن هذا النظام هو التطبيق العملى للأخلاق المسيحية . والمسيحية تعد ، فى هذا المعنى ، ديانة الكفاح وليست كما يتوهم البعض ديانة الركود .

ولست أشك أن الرجل المسيحي في دنيانا هذه وفي عصرنا هذا هو المثال الأسمى في الأخلاق . وهناك كثيرون يعيشون الحياة الطيبة ، أى الحياة المسيحية كما أرادها المسيح الذى دعانا من ناحية إلى أن نكون كالأطفال في السذاجة والاستطلاع والبعد عن الشر ، أى أن تكون القيم التى نعمل بها قيما بشرية ، نحب الأشياء التى يحبها الأطفال : نحب اللعب ونحب الزهر ونحب كل شئ حسن يرجع حسنه إلى قيمته الأصلية لا إلى القيمة التى يفرضها المجتمع . ثم دعانا من ناحية أخرى إلى أن نخشى مديح الناس . بل قال : ويل لكم إذا أثنى عليكم الناس ! وهنا دعوة إلى الاستقلال الفكرى أو الروحى ، استقلال الضمير ، حتى نعمل ما يوحيه إلينا الشرف دون مبالاة لاعتبارات المجتمع . وقد يكون هؤلاء مع ذلك غير مؤمنين الايمان الرسمى بالمسيحية . إذ ليس من الضرورى ، كى يكون للانسان ضمير دينى ، أن يؤمن بدين معين . فان جميع الأديان سواء من حيث إنها تنشد الحياة الطيبة .

وأذكر هنا أن نحو ستين عضواً من جمعية الشبان المسيحية كانوا يصطافون فى صحراء العريش فى سنة ١٩٣٧ ، وكان بيننا المسلم والمسيحي واليهودى والبهائى . فكنا فى الصباح نقرأ قطعة من القرآن أو الانجيل أو التوراة متناوبة . وكان البهائى يجد فى كل واحد من هذه الكتب كتاباً مقلساً له . وكنا نجد نحن فى جميع ما يقرأ لنا من أى كتاب منها دعوة صالحة توحى الخير والشرف والحياة الطيبة والحب . وقد وجدت أن الجمع بين هذه الكتب والاختيار منها

على مبدأ المساواة قد بعث على التفكير الدينى البار بين الأعضاء وربط بينهم برباط دينى محايد أى غير متحيز . حتى لقد انتحى بى بعض الأعضاء وسألونى : لم لا يفعل جميع البشر مثلاً نفعل نحن هنا فى العريش ؟ أى يضعون جميع الكتب المقدسة فى جميع المعابد . وأذكر أنى نصحت لهم بأن يقرءوا حياة السلطان أكبر الهندي .

الذى تولى الحكم فى القرن السادس عشر ؛ فإنه عقد مؤتمراً من الأئمة والكهنة من المسلمين والمسيحيين واليهود والهندوكيين وطالب منهم أن يتفقوا على ديانة جديدة موحدة من هذه الديانات الأربع . وقد أخفق المؤتمر لأن الأعضاء ، كما ينتظر ، لم يتفقوا . ولو أنه كان قد اختار أعضاء هذا المؤتمر من المدنيين دون الدينيين لكان هناك مجال للظن بالنجاح . بل لقد قيل إن السلطان أكبر هذا قد تزوج أربع نسوة إحداهن مسلمة والثانية هندوكية والثالثة مسيحية والرابعة يهودية . وذلك كى ينشأ أبناؤه على أساس من الحب الذى يدعمه التقارب الدينى . وقد عاشت أسرته جملة قرون وهى لا تعرف معنى للتعصب فى الهند بين المسلمين والهندوكيين . فكان الصليب يعاقب فى الغرفة التى يأتى إليها القارىء فى الصباح كى يقرأ إحدى سور القرآن ، وكان المبشرون من اليسوعيين يقعدون فى حضرته إلى جنب كهنة اليهود . وقصة أكبر هى إحدى قصص القداسة الهندية التى نرى لها صورة أخرى فى عصرنا فى غاندى .

وجميع الكتب المقدسة سواء عندى . ولكنى أضيف إليها عشرات من المؤلفات الأخرى فى الفلسفة والأدب . ولذلك أقول إن بعض

ديانتى يرجع أيضاً إلى « جمهورية أفلاطون » وإلى « الانسان والسرمان » لبرنارد شو ، وإلى مؤلفات جان جاك روسو وتولستوى ودستوفسكى وإلى أخناتون . فقد زودنى هؤلاء جميعاً بهورمونات دينية . وقبل نحو خمس عشرة سنة شاعت دعوة فى أمريكا وأوربا إلى ما يسمى « البشرية » . وهى ديانة تستبعد الغيبيات ، وتؤمن بالرقى البشرى القائم على التطور . وهى تعتمد على الكتب المقدسة وكتب الأدب والتاريخ والفلسفة . وقد وجدت فيها إغراء كبيراً .

ولكن ما أحب أن أوضحه للقارىء هو أن الدين عندى كان تربية بطيئة لم أصل بعد إلى نهايتها ولكنى فى سبيلها . والدين كالفلسفة أو الأدب نأخذ منها بمقدار ما ورثنا من كفايات وامتزنا به من أوساط تعلم وتربى وتوجه . وهنا يغير كالفين هذا التعبير فيقول : إنما نعلم من الدين بمقدار ما وهبنا من نعمة الله .

وقد كان نفورى أيام شبابه من الغيبيات علمياً منطقياً ، ولكنى أنفر من الغيبيات الآن لأسباب اجتماعية . لأنها ، أى الغيبيات ، جبرية ليست فيها حرية الماديات . أى إن التفكير المادى حر متطور ، أما التفكير الغيبى فمقيد جامد : ونحن نتحرر بالأول ونتقيد بالثانى .

ولكن الفلسفة ، أى الديانة ، ضرورية لكل إنسان . والرجل إذ يقول إنه ليس له ديانة هو ، كما يقول برنارد شو ، إنما يقول إنه ليس له شرف . ونحن حين نستقطر العلم أو الأدب أو الفلسفة أو الفن كى نجد لها كلها غاية ، إنما ننشد بهذه الغاية ديانة نعيش بها أى دستوراً روحياً وأخلاقياً يعين علاقتنا بالطبيعة والكون والانسان

والمستقبل . ونحن نحس الحاجة إلى هذا الدستور وهو ليس دستوراً جامداً إذ هو يتغير ويتطور كلما تقدمنا في السن وازدادت بصيرتنا نوراً . ولما شرعت أدرس السيكولوجية وجدت ناحية من الدين لم أكن قد التفت إليها ، هي سلام النفس . فانه ليس شك في أن المتدين يحس سلاماً ويجد ابتهاجاً يحرم منهما غير المتدين . ذلك أن المتدين يثق بالكون ، وكأنه يحس أنه ، أى الكون ، لن يخونه حتى حين يصطدم بالمصاعب . أو قل إنه يعيش في وسط أوسع كما أن آفاقه تمتد إلى آمام أبعد . ونستطيع أن نزن هذا الموقف حين نتخيل غاندى إزاء الجبال من المصاعب التي يلاقها . فانه في كل حياته أكثر اطمئناناً وأعقق ابتهاجاً من أى إنسان آخر ، مع أنه يواجه من المصاعب أكثر مما يواجه كل إنسان آخر . وليس غريباً بعد هذا أن تكون للدين ، أى الفلسفة ، قيمة سيكولوجية عظيمة ؛ لأنه يؤدي إلى استقرار النفس ويحول دون التزعزع الذي قد ينتهي بالتحطم . وعندما نتأمل مرضى النفس نجد أنهم لم يتردوا في الهوة إلا لأنهم استسلموا إلى قيم وأوزان مخطأة . هي في الأغلب قيم وأوزان اجتماعية انساقوا فيها وأرهقوا بها حتى حطمتهم . وأنهم لو كانوا على فلسفة حسنة ، وعاشوا العيشة الطيبة التي يوحها كل دين في العالم ، لكانوا قد أخذوا بقيم وأوزان دينية تتيح لهم سلام النفس الذي فقدوه .

ولا بد أن القارىء سيسأل : أليس هناك فرق بين الدين والفلسفة ؟ وهل أنا محق في التحدث عنهما باعتبارهما وحدة ؟ وجوابى أنى لا أعرف أصيب أنا أم مخطئ ، ولكنى هنا أذكر

إحساسى ، وإذا شئت التمييز بينهما فاني أقول إن الاحساس الدينى هو طرب الحب ، حب الطبيعة وحب الحيوان وحب الانسان بل حب الحياة والكون . أما الاحساس الفلسفى فهو تأمل الفكر . ولكن الحقيقة أنهما يتندغمان عندى ، وإن كان أحدهما قد يتغلب على الآخر فى بعض الظروف ، وأظن أن هذا هو إحساس غاندى : تأمل فكرى وطرب عاطفى معاً .

وكثير من كفاحى الثقافى ، بل أحياناً السياسى ، قد سرت فيه بتأمل الفكر وطرب الدين . والتأمل يطلب السكون فى حين يستفزنا الطرب إلى الحركة . فاذا مزجنا الدين بالفلسفة وجدنا الكفاح . ولذلك لم أعرف قط ذلك البرج العاجى حيث أستسلم للتفكير بعيداً عن المعركة . إذ أرى لا أكاد أنتهى إلى فكرة بالتأمل حتى يعمنى الطرب فأنشط إلى الكفاح .

وقد قلت إن ديانتنا أو فلسفتنا تتكون أولاً ثم تتبلور ثم تتجوهر . وعندى أن هذه النهاية ، هذا التجوهر ، هو الحب . وقد انتهت جميع الأديان إلى هذا الموقف ، كما انتهت السيكولوجية إليه أيضاً . والحب هو اتجاه وسلوك ، هو الاستطلاع الدائم للكون والرغبة النهمة فى المعرفة ، ثم هو التعاون والتسامح . وهذا الحب هو أيضاً ما انتهى إليه الصوفيون المسلمون مثل محيى الدين بن عربى حين يقول :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي
إذا لم يكن دينى إلى دينه داني
وقد صار قلبي قابلاً كل صورة
فمرعى لغزلانٍ ودير لرهبان

وبيت لأوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب دينى وإيمانى

وفى هذه الأبيات الأربعة قد استقطر ابن عربى روح الدين .
ومن الحسن أن تذاق مثل هذه الأبيات الذهبية وتعلق فى بيوتنا
إلى الجدران ، وخاصة فى هذا الشرق العربى الذى يجب أن تتعاقق
فيه الأديان الثلاثة عناق الحب . ومثل هذه الأفكار الانسانية نجدها
أيضاً فى المعرى حيث يقول وإن يكن موقفه سليباً :

إذا الانسان كف الشر عنى فستياً فى الحياة له ورعياً
ويدرس ، إن أراد ، كتاب موسى ويضمّر ، إن أحب ، ولاء شعياً

ما الدين صوم يذوب الصائمون له ولا صلاة ولا صوف على جسد
وإنما هو ترك الشر مطرحاً ونفضك الصدر من غل ومن حسد

ولكن يجب أن أقول إن ديانتى ، من الناحية الغيبية ، تشبه
بل تطابق ديانة سبينوزا . أى إن المادة والقوة شئ واحد ليس
بينهما انفصال . وكذلك الشأن فى العقل والجسم .

وليست هناك نهضة عالمية ، كالثورة على المظالم أو التجديد
للمبادئ* أو الدعوة إلى الاخاء والمساواة والحرية ، إلا وهى تسير
على الأسلوب الدينى . حتى لتجاوز المنطق إلى الايمان ، وتسرف

وتشط في ناحية الغيرة والتضحية والحب ضد الأنانية والاستئثار والبغض . فهي ملهمة بالروح الدينى ، ولن تنجح إلا به . ولذلك كثيراً ما نجد الدعوة إلى الاشتراكية الحزبية تستحيل إلى دعوة دينية عالمية تغمرها الحماسة ويتغلب فيها الايمان . وحركتنا نحن في مصر في سنة ١٩١٩ لم تنجح إلا بمقدار ما كان فيها من الحماسة والايان أى بمقدار ما كان فيها من طرب الدين . وهى لم تتقهقر إلا بمقدار ما فقدت من هذا الطرب الدينى بتفشى الأنانية والاستئثار والبغض .

ولن تعود دعوتنا الوطنية في مصر ، دعوة الحرية والاخاء والمساواة إلا إذا أحدثت لنا ، كما كانت تحدث في سنة ١٩١٩ ، طرباً دينياً يتألف من الحماسة والايان والحب والتضحية .

وأخيراً يجب أن نقول حين نتكلم عن ديانتنا ، كما يقول أندريه جيد « لست كأننا أبدأ ؛ إنما أنا صائر » . وبكلمة أخرى يجب ألا نجد ونستقر ، بل نتمو ونتطور ، وندأب في استخلاص الحقيقة من المعرفة .

هذا العمر

سن الستين أشبه الأشياء بالقمة تقف عليها في سياحتنا على هذا الكوكب وسائل : ماذا أقدنا من الماضي ، وماذا ننتظر من المستقبل وفي أعماق العقل الكامن وسوسة كأنها لغط في النفس : سن الستين هي سن الاقالة ؛ يجب أن تقال أنت من الحياة .

وفي هذا العام ١٩٤٧ الذي أتم فيه هذه السن أجدني قد أخرجت كتاباً « كيف نسوس حياتنا بعد الخمسين » وكأنه احتجاج على الشيخوخة ، ولو أن مي كانت حية لقاتلت لي على عاداتها : ها أنت ذا تتشاءم وتحاول أن تتفاهل ، تحس الضعف فتتخذ القوة .

ولكني كنت أجيب بأني ما زلت أحس حماسة الروح بل غلواءه ، وإني أستطلع الدنيا كما لو كنت طفلاً . وحسبي هذا برهاناً على أنني بعيد عن الشيخوخة .

وأعود إلى أيام الطفولة والنسبا بل الشباب أيضاً ، فأجد أنني من حيث التعلم المدرسي أو الجامعي قد عشت في صحراء لم أنتفع بشئ منها . وإنما كان انتفاعي بما كسبت من تربيته الذاتية : من جامعة الكتب في اللغتين الانجليزية والفرنسية ، ومن سياحاتي في أوروبا ، وأخيراً ، ولهذا أكبر قسط في تربيتي ، من اختباراتي الشخصية . وقد

تكون الفترة التي عشتها وأنا على وجدان يقظ بالحوادث فذة من حيث إنها فترة الانتقال من مجتمع الأسس إلى مجتمع الغد . ومن تحول الانتاج من النظام القروي الزراعى إلى النظام المدنى الصناعى ، ومن الغيبات إلى الماديات . والحق أنى لا أكاد أعرف عصرأ تجمعت فيه عوامل اقتصادية واجتماعية انقلابية مثل عصرنا هذا . فان الفترة التي تقع بين ١٩٠٠ و ١٩٥٠ هي تاريخ بشرى يزيد فى مغزاه ونتاجه للمستقبل على القرون التي تقع بين ٥٠٠ و ١٥٠٠ . أجل ! لقد عشنا بسرعة فى هذه الفترة بل هرولنا نحو المستقبل . وهتاك من تخلفوا لأنهم لم يطبقوا هذه السرعة أو الهرولة ، فلهثوا وعرقوا ثم قعدوا ويعد أن قعدوا واطمأنوا أخذوا يحفظون عن « ظهر قلب » قواعد الفعل الماضى فى حين بقينا نحن فى الهرولة نحو المستقبل . وليس شك فى أننا نعرش ؛ ولكن العثار مع السعى خير من السلامة مع القعود والركود .

والتربية الحقيقية ، وهى ثمرة العمر لكل إنسان ، هى فى النهاية اختباراته طوال حياته . وليست هذه الاختبارات هى ما يقع لنا بل هى الرجوع والاستجابات لما وقع لنا . ونحن نختلف كثيراً فى هذا ؛ فان هناك من يستجيبون بالصدود والاعتزال ، وهناك من يستجيبون بالاقدام والمكابدة . وهؤلاء هم الذين ينتفعون بالاختبارات . أما المعتزل الذى يؤثر السلامة بالصدود والاعتزال والاحجام والانكفاف فهو ميت حتى لو طال عمره إلى المائة ؛ لأن الحياة لا تقاس بالطول وحده إذ أن لها عرضاً وعمقاً أيضاً ، ولا يكون لها العرض والعمق إلا بأن

بأن نغمس فيها ولا نقف على ساحلها متفرجين بل نقحم عباها ولو تعرضنا بذلك للموت المبكر .

وفي كل حياة من المصادفات ما يعد حسناً أو سيئاً ، وبعضها يقود إلى النمو والخصب ، وبعضها يؤدي إلى البوار والدمار . ومصر نفسها مصادفة سيئة لكل مصرى من حيث إنها مأساة جغرافية . إذ هي تقع في سلتى القارات الثلاث الكبرى ، كما أنها تقع في طريق الملاحة بين آسيا وأوروبا . ثم هي فوق ذلك تخلو من الجبال التى تيسر الدفاع ؛ ولذلك وقعت فى أسر الغزو المتكرر . وكان آخر غزاتها هؤلاء الانجليز الذين أحالوها إلى عزبة للقطن ومنعوا عنها الصناعة والتعليم ، وأيدوا الرجعية و ضربوا أبناءها المخلصين الثائرين على الاستبداد ، وعمموا فيها الفاقة والجهل والمرض .

ونحن المصريين جميعاً سواء فى هذه الكارثة ، كارثة هذه المصادفة التاريخية بغزو الانجليز لوطنا ويقائهم فيه أكثر من ستين سنة ، يفرضون علينا القيود ويقيمون السدود ويحالفون الرجعيين لقمع الروح المصرى . وكثير مما عانيته فى حياتى من المصادفات السيئة التى عطلت نشاطى وبعثت قواى يرجع إلى هذه المحالفة القائمة بين الرجعيين المصريين والمستعمرين الانجليز فيما اتفقوا عليه من قيود للحرية كانت تضطرنى إلى أن أدرج بدلا من أن أدير . بل كانت تضطرنى أحيانا كثيرة إلى أن أقعد بدلا من أن أدرج . وهناك من الكتاب فى مصر من استسلموا لهذه القيود وارتضوها ، بل صاروا يخيفون الجمهور من الحرية

وينعون ما فيها من استباحات تؤدي إلى أخطار . ولكني لم أدخل قط في معسكرهم إذ لا أطيق العمل في هذا الجو الخانق للضمير والذهن . أما مصادقاتي الحسنة التي أخصيت حياتي فكثيرة ، أذكرها بالشكر للاقدار التي هيأتها لي . وأولها وأكبرها قيمة أني لم أعرف قط الحاجة المالية ، وكذلك لم أعرف الترف المخدر . فأنا أتمتع بذلك القلق الذي يبعث على الاهتمام اليقظ المنتبه ، ولكنه لا يؤدي إلى المم المرهق المجد . ثم صادفتني مصادفة حسنة أخرى هي أني عرفت اللغتين الفرنسية والانجليزية في سن مبكرة . وقد وصلتا بيني وبين الثقافة العالمية العصرية . ولذلك ارتفعت اهتماماتي من المشكلات « القروية » الصغيرة التي تحفل بها صحفنا من جرائد ومجلات إلى مشكلات علمية بشرية منبسطة الآفاق .

ثم هناك مصادفة أخرى مؤلمة للعالم منبهة لرجال الذهن . فاتي عشت عمري فيما بين ١٨٨٧ ، ١٩٤٧ في عصر انقلابي انفجاري رائع من حيث الاكتشافات والاختراعات والثورات ؛ لأنه عصر المعارك التاريخية والصراع الخطير بين مجتمع آفل وبين مجتمع بازغ . كأن حوادث ألف سنة قد تجمعت في بؤرة زمنية ، كما يتجمع ضوء الشمس من العدسة . فصرنا نرى الانقلاب تلو الانقلاب ، والعالم يعاني الآلام من هذه الانقلابات التي تنبه المثقفين إلى الدرس وتحرك ذكاهم وتبسط لهم رؤيا زاهية للمستقبل لا يراها غيرهم في السعادة القادمة من خلال الخاض الحاضر وآلامه .

وعند ما أعرض لحياتي الماضية أجدني ممتازاً امتيازاً واضحاً جداً بصفة

طفلية هي الاستطلاع . وهذا الاستطلاع يحطم القيود التي وضعها العرف أو كثيراً منها ، فيتسع ميدان الاختبارات ويزيد بذلك الوجدان . وهذا الاتجاه نفسه ، أي الانتفاع بالاختبارات ، يغير القيم والأوزان بحيث إن ما يعده غيرى نكبة قد أعدّه أنا نعمة لأن له قيمة لا يراها هو في التربية والتنوير والنمو . فقد وقعت بي كوارث وأحزان أحضت حياتي فترة . ثم اكتسبت من الكوارث نوراً وحكمة ، كما اكتسبت من الأحزان حناناً ورقة ، لا أحب أن أفقدها . أجل ! لقد تضررت من الألم حين مات ابن أختي وهو في السنة الأخيرة بكلية الطب ، وبقيت في نفسى لوعة تمزقني كلما ذكرته . ولكن هذه اللوعة قد استحال بالزمن إلى حنان رخم لا أحب أن أفقده . وكذا الشأن في جميع الأحزان الماضية تطفئ كيمياء الزمن نارها وتحيلها إلى ذكريات رفيقة تؤنس ماضينا . ولذلك أكثر هذه الذكريات وأستثيرها بعد عشرين أو ثلاثين سنة للذة لا للألم ، مع أن وطأتها حين وقوعها كانت بمثابة الصدمة التي تذهل وتجمد .

وأظنني أمتاز أيضاً بعقل حر مفتوح يحسن الضيافة للآراء الجديدة . وليس لي فضل في هذا ، وإنما الفضل للغتين الإنجليزية والفرنسية اللتين أتاحتا لي الاتصال الدائم بالثقافة الأوروبية العصرية . وهي تمتاز بالحرية المستفيضة كما يمتاز المجتمع الأوربي بحرية واسعة لا يعرفها المجتمع المصري . ومن هنا أصبحت ثقافتى ارتيادية أتحمس الجديد في الآراء وأعرضه على مجتمعتنا كي أوقفه إلى الحياة العصرية . ومن هنا كان ما يبدو من أنى يسارى متطرف ، مع أنى لو كنت في مدينة

أوربية لكنت أعد عادياً ليس بي أى تطرف . وليس شك أن بعض اتجاهى هذا يعود إلى أنى مسيحي لا أحس أنى مقيد بتقاليد الأكثرية فى مصر .

ولو سئلت ما هو « بيت القصيد » أو « إيماءة حياتى » كما تبدو من مؤلفاتى وسيرتى واتجاهى ، لقلت إنها الحرية . فانى أحب عزابى وفولتير لدفاعهما عن الحرية كل فى ميدانه . وقد ألفت كتابين عن حرية الفكر . وأحب كتاب « الجمهورية » لأفلاطون و « الانسان والسرمان » لبرنارد شو ؛ لأنهما يتجردان من التقاليد فى بحث التأصيل البشرى . وأحب إبسن فى « بيت عروس » لأنه يبسط آفاقاً جديدة للحرية فى شخصية المرأة .

وأنا الآن فى الستين أعد نفسى صائراً ولست كأثناً كما يقول أندريه جيد . ولذلك أعنى بأن أتعلم كلمة جديدة أو أشرح فى دراسة علم جديد أغير أو أتطور به . وفى هذه الأيام مثلاً أجد أنى مزحوم بدراسات كثيرة ، منها هذه السياثية أى علم اللغة من حيث صحة التعبير وملاءمته . كما أن اهتماماتى بالسيكولوجية والتطور والاجتماع تجعلنى أشكو قلة الفراغ . وفى العالم الآن ثقافة جديدة قد تجرثمت فى بداية هذا القرن وهى الآن تتبلور وتتجوهر ، هى ثقافة علمية غير وطنية أحس أنى من أبنائها ودعاتها . وقد أثبتت لنا القنبلة الذرية ضرورة الاتجاه العلمى وخطورته معاً ؛ لأن الحضارة القائمة ، حضارة السادة على هذا الكوكب ، هى حضارة العلوم المادية ، والأخطار القائمة هى أخطار العلوم المادية . ولذلك فان الأمة التى تهمل العلوم

لأنما تهمل حياتها . وقد حاولت في مصر طوال حياتي الماضية أن أعمم التوجيه العلمى بمؤلفات شعبية مختلفة . وكثيراً ما نبئت الخصومات بينى وبين بعض الكتاب على هذا الأساس ، أى إنى كنت أنتقص قيمة مؤلفاتهم لأنها لم تكن تتجه الاتجاه العلمى أو على الأقل كانت تتجاهل الأسس العلمىة وتستسلم لمزاعم غيبية تافهة . ولذلك تعد مؤلفاتى من أدوات التطور الذهنى فى مصر ، وليست كذلك مؤلفات كثير من الكتاب الذين عاصرونى . ففى الوقت الذى كنت أولف فيه عن « العقل الباطن » أو « نظرية التطور وأصل الانسان » أو « البلاغة العصرية واللغة العربية » أو « حرية الفكر » ثم « حرية العقل » أو « غاندى والحركة الهندية » أو نحو ذلك مما يوجه ويغير ، كان غيرى يؤلفون عن الخلفاء الراشدين أو الأمويين أو العباسيين ! أجل . كنت أنشد الآفاق وأرتاد الجاهل فى الوقت الذى كانوا هم فيه يشرحون لقرائهم قواعد الفعل الماضى . مع أن هذه القواعد معروفة ومشروحة فى مئات الكتب القديمة ولا تحتاج إلى زيادة فى الشرح والايضاح . فان جميع الذين كتبوا مثلاً فى ترجمة عمر بن الخطاب لم يكتبوا عنه بأوفى مما كتب ابن أبى الحديد منذ نحو ألف سنة . وجميع الذين يخرجون لنا من وقت لآخر تراجم عن أبى نواس أو المهدي أو المأمون لم يزيدوا كلمة عما كتبه مؤلف الأغاني أو غيره من المؤلفين القدماء . ولكن الجمهور الذى يتعطش إلى الثقافة العصرية كى يفهم الحضارة العصرية لا يجد غير هذه الموضوعات القديمة ، فيبقى ، أى هذا الجمهور ، قديماً غير عصرى .

وهناك أشياء آسف لها كثيراً ، منها أنى عطلت عن الكتابة إلا تحت أعين المراقبة نحو خمسة عشر عاماً فى الحريين الكبريين ؛ إذ حتم علينا الانجلىز ألا ننشر حرفاً فى جريدة أو مجلة أو كتاب إلا بعد أن يقرأه رقيب . وقد قرئتم لى كتب فى الأدب والعلم وحذف الرقيب منها ما شاء . . . وهذا التعطيل قد جمده فكرى مدة طويلة ؛ لأن قطع التفاعل بين المؤلف وبين الجمهور يجعل الثقافة محدودة . لأن الثقافة اجتماعية لا نهم بها إلا فى مجتمع حتى يوافقنا أو يعارضنا ، ولكنه فى كلتا الحالين ينهبنا . وقد قطع الاستعمار البريطانى بيننا وبين الجمهور هذه السنين الطويلة ، فقطع عنا بذلك التنبيه الذى كان يحركنا إلى التفكير والدراسة الحسبة ، كما قطع عن الجمهور التنوير الذى كان يحتاج إليه .

وشئ آخر آسف له هو أن الحكومة المصرية ، بايعاز المستعمرين الانجلىز أيضاً ، قد سنت قانوناً تستطيع أن تحرم به أى مصرى خارج القطر من رعويته المصرية ، ويكفى لذلك قرار من مجلس الوزراء بلا محاكمة أو دفاع . وقد سنعنى هذا القانون من أن أترك مصر منذ عشرين سنة ، مع أن مثلى يحتاج إلى أن يزور أوروبا مرة كل عام أو كل بضعة أعوام حيث يتجدد بالايحاء والتغيير الذهنى والترفيه النفسى . ولكن التسليطين الذين يعيشون فى مصر بالامتيازات القديمة ، هذه الامتيازات التى هى فضيحة مصر الآن فى جميع المحافل المتمدنة ، يحشون رجلاً مثلى يسارع إلى شرح الآراء الجديدة والاصلاحات العصرية . فما هو أن أضع قدمى فى باريس حتى أجد قراراً بحرمانى من الرعوية

المصرية ، وعندئذ يجب أن أتسكع سائر عمرى إلى أن أموت خارج وطنى بعيداً عن أولادى . ولهذا آثرت البقاء فى القاهرة على التسكع ، بلا وطن ، فى مدن أوروبا . وظننى أن هذا القانون سيبقى إلى أن أموت . ولن أرى أوروبا التى تشع أنوارها على هذا الكوكب . وأخيراً أعود إلى السؤال الذى لا يفتأ يتكرر : هل ربيت نفسى؟

وهذا السؤال يعيد إلى ذهنى وصف هـ . ج . ولز للوزير البريطانى الكبير جلاستون بأنه لا يعدُّ متعلماً أو حاصلًا على تربية . وذلك لأنه « كان يجهل الأثنولوجية أى علم وصف السلالات البشرية وخصائصها . وأن رؤيته للتاريخ كانت ناقصة لأنه لم يكن يدرك الصورة الحقيقية للبيولوجية أى علم طبقات القشرة الأرضية وتاريخ الأحياء ، كما كان يجهل الأفكار الابتدائية عن البيولوجية أى علم الحياة . وكذلك كان يجهل العلوم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية العصرية والآداب والفكر الحديث » .

وإذا قست نفسى بهذا المقياس الذى عينه ولزكى يبرهن على جهل جلاستون فانى أجد أنى حاصل على هذه التربية التى قصدتها ؛ لأننى أدرك كل هذه الأشياء التى ذكرها وأكثر منها مما يجرى على طرازها . والحقيقة أن الذين يستطيعون أن يسموا أنفسهم ممتازين بتربية صحيحة فى أيامنا قد لا يبلغون واحداً فى الألف ، والبرهان على هذا أن الذين يفهمون مثلاً النظرية النسبية لأينشتين أو الطاقة الذرية قليلون جداً . وهذه القلة ترجع إلى أن وسائل التربية معدومة أو نادرة فى بقاع

كثيرة . وذلك الذى يصل على الرغم من كل ذلك إلى تربية تكاملية حاوية بحيث تتسع عنده المعارف وتتكامل وتتناسق ، هذا الرجل ، يحتاج إلى أن يفنى العمر كي يحقق هذه الغاية . وطلب العيش يحول دون ذلك عند ١٩٩٩ في الألف من الناس .

والواقع أن الذين يقودون العالم منذ أيام جلادستون إلى الآن كانوا ولا يزالون في عداد الجهلة . فقد روى ولز مثلاً عن جلادستون أيضاً أن السرجون ليوك رافقه في زيارة لداروين . فكان طوال وقته يتحدث عن المشكلة البلغارية كأنها كل شئ في وجدانه ، أى أنه لم يكن يدرك القيمة البشرية الكبرى لنظرية التطور التي أخرج داروين إنجيلها للعالم . ولكن أليس هذا حال الساسة إلى الآن ؟ هل وزراء بريطانيا أو فرنسا أو الولايات المتحدة أو مصر في ١٩٤٧ أفضل من حال جلادستون في ١٨٨٧ ؟

إن العالم منكوب بتقاليد في التربية والتعليم . وفي المدارس والجامعات رواسب ثقافية تبلى الذهن بل تحول دون التفكير . كأن هناك محظورات لا يجوز التفكير فيها . اعتبر مثلاً هذا الفقر المصنوع في العالم . فإن الانتاج الزراعى ثم الانتاج الصناعى يكتفیان ، مع التنظيم ، كي يعيش كل فرد على هذا الكوكب وهو موثر الطعام والكساء والمسكن ، آمن على نفسه وجسمه من المرض والجريمة . متعلم أقصى تعليم ، مستمتع بالفراغ الذى يمكنه من زيادة معارفه . ولكن الساسة الذين يتولون شئون هذا العالم لا يزالون في مستوى جلادستون يهتمون بمشكلة بلغاريا أكثر مما يهتمون بنظرية التطور . والعجب أنك عندما

تبحث مشكلة بلغاريا تجد أنها نبئت من الجهل أيضاً ، وأن الذين يحاولون حلها جهلاء يثرثرون وهم يعتقدون أنهم يفكرون .

وقد سبق أن قلت إنى لا آسف كثيراً على أنى لم ألتخصص ؛ لأن الاختصاصيين ، كما أرى فى أخلاقهم ، لا يتوسعون أو يتعمقون فى الدراسات التى لا تمس العلم أو الفن الذى أخصوا فيه . وأعتقد أحياناً أن الزهو هو الذى يمنعهم من هذا التوسع أو التعمق ، وأنهم يحسون استكفاء ذاتياً لا يحتاجون معه إلى زيادة . وأقول فى نفسى عندئذ إنى لست كذلك وإنى لو كنت قد أخصيت فى علم تجربى لما رُهِيت . ولكن هذا الفرض ليس سيكولوجياً لأنه يتجاهل العواطف الاجتماعية . ولكنى لا أشك أنى بعيد عن الزهو فى غير تعمد أو تكلف ، وأن بعدى عن الزهو هو الذى يجعلنى أتابع الثقافة بروح الطالب ، وهو الذى يجعل أسلوبى خالياً من التفصح . وكثير من الكتاب يتفصح فى خيلاء وزهو لأنه يسلك فى حياته وأخلاقه سلوك الخيلاء والزهو . ولهذا السلوك أثره فى نفسه لأنه يحمله على الاستكفاء فلا يدرس ولا يتزهد من المعارف . ولذلك أستطيع أن أجزم بأن التفصح فى الكتاب برهان على كراهة التزهد أو التطور فى الدراسة . وليس هذا لأن التفصح يشغل وقته بل لأنه يكسبه زهواً فيقعن بالخيلاء والتبختر . وفى ذهنى الآن كاتب من هؤلاء المتبخترين يكتب من وقت لآخر عن الأخلاق . قعدت إليه ذات مرة أحدثه عن الأخلاق وأنها هى والاجتماع ثمرة الوضع الاقتصادى . فلم ألقى منه غير الضحك . فانتقلت من البيئة إلى الوراثة وذكرت له كتاب كرافت أبنج عن « السيكوباثية

الجنسية « فلم أستنبط منه غير الدهشة . أجل ! إن تفصحه المتحذلق قد حال بينه وبين تربية نفسه ؛ إذ هو قانع بهذه الخيلاء اللفظية ويسموت بها جاهلا لشمون هذا الكوكب الذى عاش عليه .

ولذلك أعتقد أن أعظم الوسائل للتربية هو الاتجاه . أى كيف نتجه فى هذه الدنيا وبماذا نهتم ؟ نهتم باقتناء الفصاحة أم باقتناء المعارف ؟ بمشكلة بلغاريا أم بنظرية التطور ؟ نهتم بأن نكون وجهاء نسير فى خيلاء وزهو أم عقلاء نفكر فى سداد وفهم ؟

وفى عصرنا هذا يجب أن نقيس التربية الحقبة بأدق وأكبر من المقياس الذى وضعه ه. ج. ولز. ولكن عندئذ لا نجد أحداً ، ولا واحداً ، يمكن أن يقال إنه حاصل على تربية حقبة . فان العلوم خاصة والثقافة عامة مستتة غير منظمة ، وتحصيلها لهذا السبب شاق . وأعمارنا تقنى فى محاولات عقيمة وإن تكن مخلصمة للتعلم . حتى إذا انتهينا إلى الطريقة واهتدينا إلى المنهاج وجدنا أن الشباب قد ولى .

وقد بيعثنا هذا إلى القول بأن العمر يجب أن يزيد حتى يبلغ المائة مثلاً ، فتجنى فى العقود الأخيرة ما جهدنا لأجله واختبرناه فى العقود الأولى . ولكن قبل ذلك يجب تنظيم المعارف ومناهج الدراسة وترقية الصحافة حتى تعود جميعها أدوات ووسائل للتطوير . لأن الواقع أن بعضها الآن أدوات ووسائل لتبليد الأذهان ومطاردة الذكاء ، ونشر الظلام . والعالم حافل بالتبسات واستغراضات للجهل الفاشى ، هذا الجهل الذى يجد دعامة بين المعلمين والأدباء والفلاسفة الذين يدعون إلى مزاعم وعقائد يوحون منها إلى القراء والمتعلمين بأنها آراء

وحقائق . وقد سبق أن عانى جيته مثل هذه الحال حين قال : « ليس هناك أفضح من الجهل النشيط » .

وإذن أجيب على سؤالى : هل ربيت نفسى ؟ بأنى ما زلت « صائراً » فى سياق التربية . وأنى أسر حين أحس أن لى شخصية نيوروزية قلقة مستطلعة أطمع فى أكثر مما أستوعب ، وأن الثقافة تحتل المكان الأول من اهتماماتى . بل أحس أحياناً أنها الاهتمام الوحيد ، حتى إنى لأجأ نفسى من وقت لآخر بخطاب يرسله لى صديق فأرجى فتحه إلى الغد كي أتصفح كتاباً جديداً هذا اليوم .

وأسر أيضاً حين أجد أن القيم البشرية عندى تأخذ مكان القيم الاجتماعية . وعندى أن هذا الانتقال هو البرهان فى عصرنا على الحكمة والفهم . فإن القيم الاجتماعية ، بالحاح العادات والتقاليد ، تعمرونا وتقيم فى نفوسنا « عواطف » تحملنا على السعى والجهد لما يسمونه « منافسة » وأحرى أن يسمى « محاسدة » لاقتناء أتوبيس أو عربة أو لقب أو نحو ذلك مما يحملنا المجتمع على احترامه . وكثير من الناس يموتون شهداء هذا الجهد السخيف . وحين ننتقل إلى القيم البشرية نجد أن حياة الصحة والصلاح الاجتماعى والفهم والقناعة بالحاجات الضرورية والاستمتاع بما فى الدنيا من أطايبها المجانية خير ألف مرة بل مليون مرة من تلك القيم الاجتماعية . وليس فى الدنيا ما يعدل فنجاناً من الشاى أو كسرة من الخبز مع الجبن تحت ظل شجرة (كما قال الامبراطور أوريليوس) أو قراءة كتاب منير أو الحديث إلى المجرة فى منتصف الليل فى الريف أو تحية الشمس فى بزوغها

أو، حين أكتب، البحث عن بشائر المستقبل والتشبيث بها وشرحها في مقال أو كتاب .

وإذا سألت القارىء: ماذا تستنتج من اختباراتك، وماتكهناتك للمستقبل بعد أن قضيت نحو أربعين سنة وأنت على اتصال وجداني بالعقل العام على هذا الكوكب؟

فأني أجيب: بأن الحاضر يوميء إلى المستقبل إيماءة واضحة نواها بالعين وأحياناً نسمعها صاحبة بالأذن، هي الاشتراكية التي سوف تعم الدنيا كلها. وليس هذا لأن الناس سيتحولون من أشرار إلى أبرار، بل لأن الانتاج الصناعى سيحتم ذلك. كما سيحتم توافر النقل وضرورة التجارة، على أبعاد كوكبية، أن يحال العالم إلى دولة واحدة تتجه نحو ثقافة واحدة ولغة واحدة.

وهذا النظام الاشتراكى العام سوف يرفع المرأة من الأنثوية إلى الانسانية. لأنه من جهة سيفتح لها أبواب العمل والاختبار والتعلم كالرجل سواء، كما أنه من جهة أخرى سيغنيها عن عناء الواجبات المنزلية العديدة. وليس هذا لأنها ستترك المنزل بل لأن كثيراً من الواجبات المنزلية ينتقل بالحضارة إلى خارج المنزل. ويتضح هذا من المقارنة في مصر بين المرأة في الريف والمرأة في المدينة. فان الأولى تعجن وتخبز وتحلب البقرة وتصنع الجبن وتخطب ملابسها وتحمل جرة الماء من الجدول وتجمع الوقود إلى غير ذلك من الواجبات التي لا تعرفها المرأة في المدينة. ثم المقارنة بين المرأة في القاهرة والمرأة في نيويورك تزيدنا فهماً بأن الحضارة تلغى الواجبات المنزلية التي ترهق ربات

البيوت الآن وتحول بينهم وبين العمل في الخارج أو بين تربية أنفسهم .
ولذلك نحن صائرون نحو تحقيق الرؤيا التي حلم بها إبسن في شخصية
«نورا» هذه الأنثى التي أصرت على أن ترتفع من الأنثوية إلى الانسانية .
وأستطيع أن أستنتج من حياتي الماضية أن أعظم العقبات التي تؤخرنا
في مصر كما تؤخر كثيراً من أم آسيا وأوروبا ، بعد الاستعمار ، هي
هذه الرواسب من الثقافات والتقاليد والغيبيات الفرعونية والبابلية
وأمثالها التي انحدرت إلينا . وهي تتخذ ألواناً من الصيغ والأساليب ،
وتعترض عجلة التاريخ وتعوق التطور . والبيئة الصناعية وحدها
هي التي تحطمها ؛ لأنها ، أى هذه البيئة ، لا تنهض إلا على العلم .
وهو نار كاوية تحرق جميع هذه الرواسب وتبدد عبقها هباء .

والحضارة الجديدة المنتظرة هي الحضارة الصناعية ، هي الحضارة
التي لا يبعد أن تلغى الزراعة من العالم . وليس هذا بالعمل العظيم
المستحيل كما يتوهم بعضنا ؛ فان الكيمياء الصناعية تصنع الآن
مركبات كياوية عديدة كان صنعها قبل هذا القرن مقصوراً على الجسم
الحى نباتاً كان أو حيواناً . فاذا استطاعت الكيمياء الصناعية أن
تصنع مادة البروتين فان الزراعة تعود عناء لا ضرورة له نباتاً .
وعندئذ يحال العالم إلى حدائق وغيابات تعنى بها الطبيعة وحدها .
وإذا كنا نظن أن صنع البروتينات لا يزال بعيداً فيجب أن نذكر
الطاقة الذرية . لأن أى إنسان منا لو أنه ، قبل خمس سنوات
سئل أيهما أقرب إلى خيالنا : استخدام الطاقة الذرية قنابل للتدمير
أو صنع البروتين كيميائياً ، لظن هذا الثانى أيسر بكثير من الأول ،

وظنى أيضاً أن الزمن ليس بعيداً حين نشرع ، حتى في مصر ،
في تطبيق نظرية التطور بالانتخاب التناسلي ، أى اليوجينية . وفى العالم
نحو أربعين دولة متمدنة تمتع غير الصالحين للتناسل من أن يعقبوا .
والأمة التى تعارض فى مثل هذا الإصلاح ستتخلف فى ميدان التطور
البيولوجى أى الرقى البشرى الصميم .

وأخيراً أقول إنى أرى إيماءة ثقافية جديدة هى التخلص من
المذهب الانفصالى ، مذهب ديكرت ، بين الروح والجسم ، أو بين
الحياة والمادة ، أو بين العقل والمادة ، إلى المذهب الاتصالى الذى
يقول بأن القوة هى المادة المتدفقة والمادة هى القوة المتجمدة . وفى
هذا القول وثبة ثقافية واسعة إلى المستقبل سوف تكون كبيرة الأثر
فى الحضارة القادمة . وقد سبق للفيلسوف العظيم سبينوزا أن نبه إلى
ذلك فى لغة فلسفية . ونحن نفتتح هذه الأيام بصحة تفكيره عن طريق
العلم التجريبى ، ونصل إلى وحدة وجودية فى الطبيعة ثم نترج إلى
ما يلائمها فى المجتمع .

وعندما أرتفع إلى هذا التفكير أحس أن كثيراً من الاهتامات
بل الموم الوطنية التى حجبت النور وعكرت الصفاء اللذين كنت
أنشدهما فى حب وولاء بشريين ، هذه الموم تذوب وتتبدد . أجل!
إنى أحب أن أعترف . فانى ما كتبت كلمة واحدة ضد المستعمرين
الانجليز إلا وأنا فى ألم وارتعاش وآسف أكثر مما أحس من غيظ وحنق
وكفاح . وكذلك كان الشأن عندما كنت أكافح ، الرجعيين
المستغرضين والجهلاء النشيطين من المصريين . فانى أحجل حين

أقول إنى أحب جميع هؤلاء الانجليز المستعمرين والمصريين المستبدين .
 وفى نفسى رجاء بأن يتغيروا وأن يروا رؤياى وأن ينسلخوا من الاستعمار
 والاستبداد ، ويفتحوا عقولهم للثقافة الجديدة : للحرية والإخاء والمساواة .
 وجميعها مستطاع لو أنهم كفوا عن « الجهل النشيط » الذى يمارسونه .
 وقد احترفت الثقافة وقضيت عمري أقرأ وأكتب . وزادتنى هذه
 الحرفة ، وجدانا بالدنيا . كأتى أحس أكثر وأرى أبعد ، حتى لقد
 صغرت همومى الشخصية إلى جنب اهتماماتى العامة . ودراستى للأدب
 ولللسفة قد أوهجت خيالى وأحدثت ذكأتى . ثم انعكست هذه الدراسة
 إلى حياتى فأصبحت قيمي وأوزانى الخاصة قيماً وأوزاناً أدبية وفلسفية .
 ولذلك كثيراً ما أنصح للشبان بأن يقرأوا الأدب والفلسفة ، وأن
 يحاولوا كتابة القصة وقرض الشعر . لأنهم وهم فى هذا النشاط
 يتخيلون الحال المثلى ويصعدون بأذهانهم إلى السماء ويختارون أسمى
 المعانى وأنصع الكلمات . وكل هذا ينعكس على حياتهم الخاصة
 فيرتفعون عن التبذل ويحيلون حياتهم إلى فن جميل .

ولو أنى مت ثم بعثت وخيرت فى الحرفة التى أحترف لما اخترت
 خيراً من أن أقرأ وأكتب . ولكنى مع ذلك سوف أسوت وفى نفسى
 شئ من الطاقة الذرية . لأنه يجب على كل إنسان فى عصرنا أن
 يستوفى ثقافة علمية معينة يدرك منها هذا المنهج البشرى الجديد
 للتسلط على المستقبل . ولم أجد الفرصة لهذه الثقافة كما كنت أشتهى
 وإن كان حظى منها قد يجسدنى عليه غيرى . أجل ! لقد تروكت
 الطاقة الذرية فى نفسى سركب نقص أعانيه فى ألم كل يوم .

من ١٩١٩ إلى ١٩٤٧

رأيت الحكم البريطاني في مصر فيما بين ١٩٠٠ و ١٩١٩ وأنا على وجدان بتصرفاته واتجاهاته . ورأيت الحكم « المصري » فيما بين ١٩١٩ و ١٩٤٧ وأنا على وجدان أيضاً بتصرفاته واتجاهاته . وقد قلت « المصري » بهذه الصيغة الكتابية لأنه لم يكن في كثير من الأحيان مصرياً بحتاً إذ كانت اليد الانجليزية تعلوه وتقوده إلى الفساد والشر . فان الانجليز هم الذين جعلوا زيور باشا يحل البرلمان في ١٩٢٥ في نفس اليوم الذي عقد فيه . وهم الذين سلطوا علينا اسماعيل صدقي فيما بين ١٩٣٠ و ١٩٣٤ كي يضرب الأمة بالسياسة والبهتادق . وهم الذين حملوا محمد محمود باشا في ١٩٢٩ على أن يعطل البرلمان ثلاث سنوات « تقبل التجديد » . ولكننا مع ذلك مضطرون إلى أن نسمى هذا الحكم فيما بين ١٩١٩ و ١٩٤٧ مصرياً لأن الأيدي التي أنفذت السياسة كانت مصرية . وكانت تستطيع أن تكف الأذى عن الوطن لو أنها شاءت .

فيما بين ١٩٠٠ و ١٩١٩ كانت السلطة الانجليزية صريحة . فقد تعلمت أنا الجغرافيا في السنة الثانية الابتدائية حوالي ١٩٠٠ باللغة الانجليزية . وكان كل التعليم بالمدارس الثانوية ، فيما عدا

اللغة العربية طبعاً ، باللغة الانجليزية في جميع المواد . وكنا لا نستطيع أن نحل مشكلة تتصل بالحكومة إلا على يد انجليزى . ولكن كل هذا أو معظمه تغير بعد ١٩١٩ .

وأول ما يسأل الانسان عندما يقارن بين الاحتلال والاستقلال هو مقدار الحرية التى يتمتع بها الفرد . حرية القبول والخطابة والصحافة والاجتماع . ومع الأسف بل الألم العظيم يجب أن أعترف هنا بأن هذه الحرية نقصت ولم تزد بعد ١٩١٩ . فانا في ١٩٤٧ أقل حظاً من هذه الحريات مما كنا حوالى ١٩٠٥ أو ١٩١٠ . وهذا هو ما مارسته بنفسى . ففي ١٩١٤ استخرجت « رخصة » لاصدار مجلة « المستقبل » ولم أجد الصعوبات الشاقة التى أجدها أو يجدها غيرى في هذا الاستخراج في ١٩٤٧ . بل لقد حاول وزير سابق هو الأستاذ فؤاد سراج الدين باشا استخراج « رخصة » لجريدة يومية في ١٩٤٦ فرفض طلبه . وقد كنت قبل ١٩١٩ ألقى المحاضرة بلا ترخيص من المحافظة في القاهرة . أما الآن فانى أحتاج إلى ترخيص . وأنا أكتب هذه الكلمات في أكتوبر من ١٩٤٧ وقد بلغت التحقيقات بشأن مقالات أو أخبار الصحف العشرات . وهذا ما لم نكن نعرفه قبل ١٩١٩ .

وفى ١٩٢٢ صدر الدستور المصرى . وفهمنا منه أنه سيحترم وأنه وثيقة رهيبة يجب أن تستنبط منا إحساساً دينياً لاحترامها . ولكن هذا الدستور استبدل به آخر أيام زيور باشا في ١٩٢٥ . ثم عطل أيام مجد محمود باشا في ١٩٢٩ . ثم ألغى واستبدل به

آخر أيام اسماعيل صدق باشا في ١٩٣٠ . وصحيح أن المستعمرين الانجليز كانوا خلف هذه العريضة في حياتنا الدستورية . ولكن الأيدي المنفذة كانت مصرية .

وكنا يعرف أن الذين جاهدوا ونهضوا هم الوفديون . ومع ذلك حسبت السنوات التي تولوا فيها الحكم فيما بين ١٩٢٣ و ١٩٤٧ ، أي نحو ربع قرن ، فوجدت أنها خمس سنوات وثمانية أشهر فقط . وحسبت السنوات التي تولى فيها اسماعيل صدق باشا الحكم ، في هذه المدة أيضاً وليس له حزب ، وليس له رأى عام مصرى يؤيده ، فوجدت إنها تقارب المدة التي حكم فيها الوفد . فكان الدستور لم يغير شيئاً من أوضاع الحكم التي كانت تشكو منها مصر قبل ١٩١٩ . وفيما بين ١٩٣٠ و ١٩٣٤ وقع بنا اسماعيل صدق باشا من ألوان الاستبداد البشعة ما اضطره هو نفسه إلى أن يطالبنا بنسيانته في ١٩٤٦ . ولم نر قط مثل هذا الاستبداد من الانجليز قبل ١٩١٩ إلا في حادث دنشواى . والمتأمل للكرهات العميقة عند بعض العناصر للوفد يجد أنها ليس لها من سبب سوى أن الوفد هو الهيئة الديمقراطية الشعبية الوحيدة في مصر .

وهذه العريضة في حياتنا الدستورية وفي نشاطنا السياسى هي التي انتهت بنا إلى أن ينشأ حزب دينى مثل « الأخوان المسلمين » يتناول السياسة من ناحية الدين ، ويجعل الأقباط في شك أو خوف من المستقبل بعد أن كافح لطفى السيد وغيره في فصل الدين من السياسة . فان « الأخوان المسلمين » يتوسمون في الجامعة الاسلامية

هذه الأيام من الآمال والآفاق ما كان يتوسمه الحزب الوطنى أيام مصطفى كاسل من الجامعة العثمانية . وفى هذا تفكيك للوطنية المصرية وتشكيك للاقباط فى قيمتها ومستقبلها . وأنا مضطر ، بوصف أنى قبلى ، أن أصرح بأنى متشائم من هذا الاتجاه .

ولكن يجب أن نذكر الكسب أيضاً . وهو كسب عظيم . وعندى أن أعظم ما أثرنا هنا هو انتقال المرأة من ظلام القرون الوسطى إلى نور القرن العشرين . ويجب ألا يلمونى القارىء إذا كررت وأظنبت فى هذا الانتقال . فقد رأيت بعينى نسوة مصريات حوالى عام ١٨٩٨ « يذبحن » الخنافس . فلما سألت عن السبب قيل لى : إنهن يطبخنها ويأكلنها كي يصبحن سمينات بعد النجافة . . . ورأيت تلميذات المدرسة السنية حوالى ١٩٠٣ وهن مبرقععات مع أن أعمارهن لم تكن تزيد على إحدى عشرة ، أو اثنتى عشرة سنة . وكانت ناظرة المدرسة ، وهى انجليزية ، تلح وتصر على التزام البرقع لأنه من « تقاليدنا » . والانتقال من هذه الحال إلى « المرأة الجديدة » الحامية والطيبية والصحفية وسائر نسوتنا السافرات هو آية فى الرقى الاجتماعى لانكاد نصدقها لولا أننا نحسها ونختبرها . والحيل الجديد لا يقدر هذا الارتقاء لأنه لم يرق عمق الهاوية التى كنا فيها قبل ١٩١٩ . وهذا الارتقاء النسوى فى مصر هو مرحلة من الرقى الاجتماعى قد قطعناها ولن نستطيع قوة أن نترعها سنا . فقد انتصرنا بها على القرون الوسطى وعلى الشرق معاً .

وكذلك كسبنا فى التعليم ولكن كسبنا هنا أقل من الارتقاء

النسوى . فاني أذكر أني حين كنت تلميذاً بالمدارس الثانوية لم يكن في القطر المصري كله غير ثلاث مدارس ثانوية لا تدخلها فتاة . وهي الآن تعد بالعشرات والفتاة تتعلم فيها أيضاً بلا عائق . وكذلك الجامعات التي لم تكن في أيامنا ندرى معناها ، والتي كان الانجليز يحظرون علينا تأسيسها .

ولكن نهضتنا التعليمية سارت مع ذلك ببطء . ولا تزال بطيئة . وأذكر أن أحد الأمريكيين قبل عشر سنوات سألتني عن عدد المدارس الثانوية للبنات فقلت إنها تسع (ولم تكن تبلغ ذلك) . فقال : « كنت أنتظر أن تقول إنها تسعون مدرسة » . على أن هذا البطء لم يمنع تخريج ألوف الشبان المتعلمين والفتيات المتعلات الذين يعتمد عليهم في تكوين رأي عام مستنير سوف يصون الدستور من العبث ويحمل الحاكين على مراعاة العدل وإنصاف الأمة في المستقبل . ولكن حماسنا للتعليم قد أعثرتنا فيما يسمى « التعليم الالزامي » الذي أنفقنا عليه منذ إيجاد نظامه إلى الآن نحو خمسين مليون جنيه دون أن نستطيع تخريج مصري واحد متعلم منه . وعللة ذلك أنه تعليم يقوم على نظام شرقي غير عصري .

وقد ارتقينا في الصناعة . فصارت لنا صناعات كبيرة . ونسينا الأكدوية التي كان يشيعها المحتلون البريطانيون بيننا ويطلبون منا تصديقها وهي أن مصر « بلاد زراعية » وذلك كي يقصروا نشاطنا على زراعة القطن ويمنعونا من الصناعة . أي أنهم كانوا يرمون إلى أن نكون أمة لا تنتج للعالم سوى « المواد الخام » كما يفعل

الزئوج الأفريقيون . وقد اغتصبنا منهم الصناعة والتعليم اغتصاباً . لأنهم كانوا فيهما بكل ما قدروا عليه ثم انهزموا . على أن هناك ما يحزن في حياتنا الاستقلالية أو الدستورية ، مع جميع التحفظات الذهنية بشأن التدخل الاستعماري البريطاني فيهما . فاننا منذ ١٩٢٢ إلى ١٩٤٧ لم نقم بأى إصلاح يرفع من شأن الفلاح الاقتصادي أو يخفف من كوارث الفقر . فان الفلاح يعيش الآن كما كان يعيش قبل ١٩١٩ . وقد قرأت هذا الصباح في المصري (١١ أكتوبر ١٩٤٧) هذه الكلمات التالية بشأن ولاء الكوليرا :

« ولم تقع حتى الآن أية إصابة في القاهرة بين أفراد الطبقتين العالية والمتوسطة . وكل ما وقع من الاصابات حتى الآن كان بين أفراد الطبقات الفقيرة . »

وهذا بعد أن مضى على تفشى هذا الوباء نحو عشرين يوماً . وليس أدل على وهدة الفقر التي يتردى فيها تسعة أعشار الشعب المصري ، بما فيها من حرمان وقذارة ، من هذه الكلمات . وليس أدل على تقصيرنا في الإصلاح الاجتماعي من هذا الالهمل الفاضح لأبناء أمتنا . بل لقد أصبحنا نتهم بالشيوعية كل من يدعو إلى إصلاح اجتماعي ويبرز فضائح هذا الفقر الكالج الأسود الذي يعيش فيه فلاحونا وعاملنا . ويعض الكراهة للوفد تعزى إلى أنه قد حاول إصلاح هذه الحال فاتهم بالغلوفى الديمقراطية التي لا يطبقها المستعمرون الانجليز والمستبدون المصريون .

ولكن حال العامل في المصانع أرق بكثير من حال الفلاح في الريف . وهو على وجدان طبقي يجب ألا تتخشاها السلطات الحكومية لأنه لا يزال مبتدئاً ، ولأنه ، بقليل من السخاء من الإصلاحات الاجتماعية التي يتمتع بها العمال في أوروبا ، يمكن أن يسير في الكفاح السلمى المشروع .

والمشكلة التي نتحدثنا في مصر الآن هي الفقر كيف نعالجه بل كيف نمحوه . ولا قيمة لأية أمة ولا معنى لأى رقى ما لم يكن الهدف هو مكافحة الفقر وما يجرم من حرمان وجهل ومرض . أجل مرض الكوليرا الذى يفتك الآن بطبقاتنا الفقيرة لأنها عاجزة عن الحصول الغذاء الوافى أو النظافة الواجبة .

برنامج السنوات العشر القادمة

في شهر مايو من هذا العام (١٩٤٧) ألقى على " القبض بتهمة إلقاء قنبلة في إحدى الدور السينائية في القاهرة . وأيقظني البوليس في الساعة الثالثة من الصباح وساقني إلى القسم حيث اعتقلت إلى أن نقلت في الساعة الحادية عشرة إلى دار النيابة للتحقيق . وقد وافق هذا القبض على " بلوغى سن الستين . وهى سن التقاعد في نظر الحكومة المصرية أى السن التى تخور فيها القوى وينحط النشاط ويبدأ الركود . ولكن الحكومة أبت إلا أن تميزنى بنشاط الشباب وأن تعزو إلى رعونته . وقد أتاح لى هذا القبض أن أفكر كثيراً وأن أتأمل حال مصر هذه الأيام بحال الأتراك أيام السلطنة العثمانية . وذكرت قصة كان قد قصها على مصرى قبل أربعين سنة . فإنه كان حوالى ١٩٠٧ قادماً من أوروبا إلى الأستانة . وكان يلبس القبعة لأنه لم يكن يرغب فى لفت الأنظار إليه إذا لبس الطربوش وسار فى شوارع باريس وبرلين وبودابست . وكان طربوشه فى حقيبته قد احتفظ به إلى يوم يعود إلى مصر . فلما بلغ عاصمة السلطنة العثمانية وصرح بأنه مصرى زجر فى وجهه البوليس التركى وسأله كيف يكرن مصرياً ويلبس قبعة . لا بد أنه جاسوس . وألقى به فى السجن .

فلما دخل السجن وجد صبيين تركيين لا يزيد عمر أكبرهما على اثنتي عشرة سنة . وكانت تهتمهما سياسية . . . وقد وجدت سيلا للمقارنة بين اتهامى بالقاء قبلة وأنا فى الستين من عمرى وبين اتهام صبى فى سن الثانية عشرة بقلب نظام الحكم فى تركيا . وقلت فى حديث النفس وأنا معتقل على الأسفلت فى قسم الأزيكية : أنا وهذان الصبيان ضحايا الجهل النشيط فى الأستانة والقاهرة على حد تعبير جيته .

وأنا فى سن الستين الآن أحس أنى « قوى القوى كلها » كما كان يقول الفارابى أو ابن سينا عن نفسه . ولذلك أرى من حتى ، أو بالأحرى واجبى ، أن أضع برنامجاً للسنين العشر القادمة .

وعلى ذكر ابن سينا أقول إنى أجد له اختباراً ثقافياً يتفق واختبارى . فهو يقول فى ترجمته بحياته : « فلما بلغت ثمانى عشرة سنة من عمرى فرغت من هذه العلوم كلها . وكنت إذذاك للعلم أحفظ ، ولكنه اليوم معى أنضج . وإلا فالعلم واحد لم يتجدد لى بعده شئ . » وابن سينا لا يعنى بالطبع أن المعارف لم تزد بعد هذه السن . وإنما هو يعنى أن المبادئ والنظريات والآراء والاتجاهات التى استقرت عنده حوالى الثامنة عشرة لم تتغير بعد ذلك . وإنما قصارى ما حدث فيها توسع وتعمق أى نضج . وظنى أن هذه هى حال الجميع الذين عُعنوا بالتربية الذاتية . فانى حين أعود إلى « مقدمة السبرمان » التى ألفتها وأنا حوالى التاسعة عشرة وأتأمل الموضوعات التى عالجتها فيها لا أكاد أجد موضوعاً جديداً قد درسته بعد ذلك طوال الأربعين سنة

الأخيرة . وإنما قصارى ما حدث لى هو توسع وتعمق أى نضج .
أى أنى أستطيع الآن أن أولف عن كل فصل من فصول « مقدمة
السرمان » كتاباً برأسه . ولا أعرف وأنا أوشك أن أبدأ العقد السابع
من عمري فكرة جديدة لم أومى إليها فى تلك الرسالة التى طبعت
فى ١٩٠٩ .

وليس كبيراً أن أطمع فى عشر سنوات قادمة . فإن الطب
العصرى يتقدم بسرعة وهو معقد الآمال لأولئك الذين ينشدون
من الشيخوخة عنفواناً وريعاناً . وإذا لم نجد منه الشباب الذى يتيح
العدو والوثب « وإلقاء القنابل » فى الستين والسبعين فلا أقل من أن
نجد اليقظة والقدرة على الاستمتاع مع بقاء الحواس سليمة . ولذلك
أرى أنه لا يجوز لى أن أتترك هذه السنين العشر الباقية تتابع جزافاً
بل سأضع لها برنامجاً يزيدنى توسعاً وتعمقاً للحياة على مستواها الوجدانى
فى الشبكة الحية العالية .

وفى الحرب الكبرى الثانية كنت أتوق إلى رؤية نهايتها واستقرارها
على سلم . ولكنى إلى الآن لم أر الاستقرار وإن كنت قد رأيت
النهاية . وهى نهاية مع ذلك تومىء إلى أنها سوف تكون بداية . ذلك
أن العالم يسير رويداً نحو « الأزمة الماركسية » فى تصادم نظامين
يتناقضان . ونحن الآن فى طور المهاترة والسباب بين هذين النظامين
وعن قريب سترى التصادم بالقنابل . وسيرى العالم عن قريب هل
القرن العشرين هو القرن الأمريكى أو هو القرن الروسى . وأنا متتبع
لأطوار هذا الصراع تائق إلى رؤية نتيجته متشائم فى انتظار الحرب

الكبرى الثالثة . ولكن لا يزال هناك أسل ضعيف بأن العالم يستطيع بالتسويات والتطورات أن يتجنب هذه الحرب . وأنا أقرأ هذه الأيام أخبار الصين وقوانين العمال الجديدة في الولايات المتحدة وتأميم المناجم والأرض الزراعية في بعض أوربا . . . وأيضاً أقرأ أخبار التقدم الآلى الصناعى الكيماوى . وأقرن هذه الأخبار وأجمعها في ضوء الأزمة الماركسية التى ينتظر تفاقمها : إنتاج يزيد ويعتد تعطلا يزيد أيضاً ، ثم رغبة في الحرب لمعالجة هذا التعطل .

وقد جعلتنا هذه الأزمة نعيش فيما يشبه الذبذبة الخفية كلنا في قلق نعانى مضض الانتظار ولا نعرف المصير . ولكن مع هذا القلق أو المضض نحن في انتباه واهتمام . نحن أحياء لا ننساق على غير وجدان بل ندرى بجميع العوامل التى تجرنا إلى الهاوية أو تصدنا عنها . ولهذا السبب تعد الجريدة اليومية هذه الأيام من أعظم الوسائل للتثقيف الذاتى لأنها تنبهتنا إلى الأخطار القادمة .

وقد كانت لى أطماع في شبابه أود أن أتابعها في شيخوختى . ولم تكن أطماعى مادية قط . فلم أرهق نفسى في تحقى أغراض مالية . وقد وصفنى أحد الكتاب حديثاً بأنى مقتر . وهو واهم في هذا الزعم . فانى منذ ١٩١٣ إلى الآن لم أشتري سوى فدان واحد وعشرة قراريط . وليس لى رصيد في أى بنك ، لأنى من اليد إلى الفم . بل بلغ ما بعته من ميراثى منذ ١٩١٣ إلى الآن أى في ٣٤ سنة أكثر مما اشتريت وليس هذا القدر صغيراً بالنسبة إلى جملة ميراثى . ولم أبال قط الاقتناء المالى لأن كل همى واهتمامى هو الاقتناء الذهنى أو بالأحرى الاقتناء النفسى .

ولذلك يثب إلى ذهني في أول البرنامج أن أقرأ بعض الكتب أو أعيد قراءة البعض مما ترك في نفسي شكوكاً أو شبهات ثقافية . فمن ذلك مثلاً كتاب « الغصن الذهبي » . فقد قرأت التلخيص الذي يزيد على ألف صفحة ولكني أنوى قراءة الأصل الذي يزيد على عشرين مجلداً . وهذا الكتاب هو كنز للثقافة القديمة حين شرع الانسان البدائي يتحسس الدنيا ويتعرف إلى حقائقها ويحاول ، في تحبط ، أن يستخلص منها منطقاً مفهوماً . وتربيتي ناقصة نقصاً عظيماً ما لم أقرأ هذه المجلدات كلها . ثم بعد ذلك أنوى قراءة كتاب الموقى أو « طلوع النهار » كما كان يسميه أسلافنا قبل خمسة آلاف سنة . وهو الذي كان يدفن مع الموقى كي يتعلموا منه الاجابات السديدة وقت الحساب في العالم الثاني . وهذا الكتاب هو زاوية مفصلة للبحث الذي يبحثه « الغصن الذهبي » .

أما بعد ذلك فاني أنوى دراسة الذرة . ولو احتاج الأمر إلى استئجار مدرس . لأن خطورتها أكبر من أن يهملها رجل مثقف . وفي المستقبل حين تستغل الذرة لخدمة البشر بدلا من قتلهم سوف يقسم التاريخ البشري قسمين : ما قبل الذرة وما بعدها .

ولكن هناك دراسة أخرى ، قد تكون لها علاقة بالذرة ، لا نفتأ تهجس بي كما لو كانت وسواساً هي العلاقة بين القوة والمادة أو الله والسكون . وظني هنا أني مع سبينوزا . ولكني لما أهتد إلى همزة الوصل بين القوة والمادة . أعني أني لم أبلغ درجة من الفهم في هذه المشكلة أستطيع بها أن أرتفع إلى التعبير اللغوي عنها .

وقد كان يقال إلى وقت قريب ، بل لا يزال هناك من يقول ، إنه ليس هناك حد تقف عنده المعارف البشرية . ولكن هذا خطأ . لأن هذه المعارف محدودة في هذا الكون . وظنى أننا نعرف في عصرنا الحاضر أكثر من نصفها أو ثلثها . ولم يبق علينا غير الثلث أو أقل . ونستطيع أن نستبدل بكلمة « معارف » كلمة « حقائق » . فاني لا أستطيع أن أعرف ما يقرب من مئة ألف نوع من الحشرات حشرة بعد أخرى . ولكنى بتشريح حشرة واحد أعرف حقيقة الحشرات جميعها . وعلى هذا الأساس نقول إن حقائق هذا الكون محدودة . وبعد جيلين أو ثلاثة أجيال لن يجد البشر ما يكتشفونه منها سواء على الأرض أم في الشمس أم في الحيوان أم في النبات . ويجب أن تؤدي هذه الحال إلى التشجيع والتفاؤل . فان هذا الكون ليس من السعة أو العمق إلى الحدود الغيبية التي تشبط عن المحاولة والفهم . فهو مكشوف قليل الحقائق وقد أوشكنا أن نعرفها جميعها ولم يبق سوى استغلالها . وهناك بالطبع مظلومون يحاولون أن يستنبطوا الغيبيات السرية من الماديات المكشوفة . ولم أنخدع قط بهم . وهم عندي والباحثون عن الروح بالنقر على المائدة سواء . وظنى أن مشكلتهم عاطفية تحتاج إلى التحليل النفسى وليست ذهنية تحتاج إلى المناقشة الوجدانية .

وفي السنين العشر القادمة سوف أتوسع وأتعمق في السيكلوجية والبيولوجية وأزداد فيهما نضجاً . وهما من غرام الشباب الذى لازمنى إلى الشيخوخة . ومن أطماعى الثقافية أيضاً أن أجعل علاقتى

بأرسطوطاليس حية أكثر مما كانت إلى الآن . فان «عصرية» هذا الرجل عجيبة . ولو أنه كانت له قدرة أفلاطون الأدبية في التعبير لكانت مؤلفاته على لسان العامة قبل الخاصة . ولو أنى بلغت من المعرفة بأرسطوطاليس مابلغته بجيته أو برنارد شو لعددت هذا فوزاً عظيماً في حياتي . ولكن هذه أمنية مستحيلة .

وسيكون لى كفاح ثقافى فى مصر ، فلن أكف عن تأليف الكتب المقلقة مثل « نظرية التطور » أو « حرية الفكر » خمائر صغيرة أبعثها فى أنحاء الوادى وغيره إلى الأقطار العربية كي أززع التقاليد السوداء وأحرق العفن الذى تركته على العقول المطموسة . ومن مسرات حياتى أن أجد أن مؤلفاتى « تسرى » فى الجسم الاجتماعى على مهل وفى غير عنف فيأخذ التطور مكان الجمود والنزعة الارتقائية مكان الرجعية الجامدة .

وكذلك أرجو أن يكون لى كفاح صحفى للدفاع عن الديمقراطية فى مصر . وظنى أنى لن أرى انتصاراً للديمقراطية فى السنين العشر القادمة . لأن الرجعية والاستبداد فى استقرار واستحكام ، والديمقراطية عزلاء من كل سلاح . بل إن الصراع القائم فى أيامنا بين أمريكا وروسيا سوف يعزز الرجعية والاستبداد فى مصر . لأن جميع الحركات اليسارية قد أصبح الأمريكيون يشتهون فيها ويحضون على مكافحتها . ولكن هذه الحال يجب أن تدعونا جميعاً إلى الدعاية الديمقراطية بل إلى الالتحاح فى هذه الدعاية وإلا عم الظلام مصر بأكثر مما كان يعمها قبل سبعين سنة . ولا أظن أنى مسرف هنا فى التشاؤم . فان فى

مصر الآن قوات كبرى تتأهب وتتكاثر لتعطيم الأنظمة الديمقراطية ومكافحة الاتجاهات الديمقراطية في مصر . وهذه الحال يجب أن نريدنا حماسة وغيره لمكافحة الاستبداد والرجعية . وأرجو أن يكون لي نصيب يمتعني من هذا الكفاح الذي أطمع في الاشتراك فيه .

وتم مطامع أخرى تكاد لبعدها عن الواقع تقارب الأمانى . منها أن أرى أوروبا وأحس الرياح البلطيق في شمال ألمانيا وأسأل عن الكلمات الفرعونية التي لا تزال باقية في فنلندا ، وأرى المرأة الأوربية الجديدة ، نورا ، التي كتب عنها إيسن وأثار بها خيالي قبل أربعين سنة . وأحب أن أقرأ جورنال دوجنيف وهو لا يزال ساخناً فور خروجه من المطبعة . وأحب أن أقعد في قهوة في البولغار في باريس وأناقش في السياسة . أناقش وأنا مطمئن إذ لن يقول لي أحد القاعدين : « أسكت . ليس لك حق في المناقشة . الانجليز أسيادكم . » ثم أقصد إلى غرقتي وأنا ذليل مهين أتبرز الدم والحطاط . كما حدث لي حوالى ١٩٠٨ . وأحب أن أزور تمبكتو في أفريقيا وبكين في الصين . وأحب أن أقف أمام جبل هملايا وأحس خشوع العبادة للكون . أحب أن أرى كل هذا لأن من واجب من يعيش في الدنيا أن يرى الدنيا . ولكن العالم لم ينظم إلى الآن كي يحس أبنائه أنهم يملكون هذه الدنيا . ووطنيتنا الكبرى مجزأة وقوميتنا البشرية ممزقة ، فنحن في أوطان كأنها أبحار لا تخرج منها إلا باذن وفي فزع ، ونحن نلوى ألسنتنا بأصوات مختلفة فنظن أننا مختلفون .

وأخيراً أحب أن يكون من برنامجي قضاء السنوات الخمس

الأخيرة من العمر في الريف حيث أصادق الخراف والحمير والبقر والشجر وأتحدث إلى النجوم وأحيي الشمس في الصباح وأضحك مع الماء يجري بين النبات وآكل الخس والفجل على حرف القناة .
وهنا يستطيع السيكلوجي أن يجد في هذا الشوق إلى الريف « هروبية » كأنى قد انهزمت أمام الصعاب المدنية والثقافة العصرية المتقلقة . وأنا لا أحلل هنا . ولكنى لا أحب أن تكون هذه السنوات الخمس الأخيرة من العقد السابع آخر العمر لأنى ما زلت أطمع في تجديد البرنامج عشر سنوات أخرى ، بل وعشر أخرى . فان الشباب في الثمانين والتسعين لم يعد أمنية بعيدة إذ هو حقيقة راهنة في مئات من الذين عنوا بثقافة الذهن وثقافة الجسم معاً .

مؤلفات الأستاذ سلامة موسى

وتواريخ صدورها

مقدمة السبرمان (دار الهلال) ١٩٠٩

الاشتراكية (مطبعة جرجس فيلوناؤوس) ١٩١٢

الجريمة والعقاب لستوفسكي (ترجمة . مطبعة جرجس فيلوناؤوس) ١٩١٢

المستقبل (مجلة أسبوعية صدر منها ١٦ عدداً من مطبعة الشيخ يوسف الحازن) →

١٩١٤

أشهر الخطب ومشاهير الخطباء (دار الهلال) ١٩٢٣

أشهر قصص الحب التاريخية (دار الهلال) ١٩٢٤

أحلام الفلاسفة (دار الهلال) ١٩٢٥

مختارات سلامه موسى (المطبعة المصرية) ١٩٢٦

حرية الفكر وتاريخ أبطاها (دار الهلال) ١٩٢٧

العقل الباطن (دار الهلال) ١٩٢٧

أشهر الصور (دار الهلال) ١٩٢٨

اليوم والغد (المطبعة المصرية) ١٩٢٨

نظرية التطور وأصل الانسان (المطبعة المصرية) ١٩٢٨

→ المجلة الجديدة شهرية ١٩٢٩ و ١٩٣٠ و ١٩٣٤ إلى ١٩٤٢
(مطبعة المجلة الجديدة)

المصرى مجلة أسبوعية (مطبعة المجلة الجديدة) ١٩٣٠

ضبط التناسل ومنع الحمل بالاشتراك مع الدكتور كامل لبيب
(مطبعة المجلة الجديدة) ١٩٣٠

غاندى والحركة الهندية (مطبعة المجلة الجديدة) ١٩٣٤

مصر أصل الحضارة (مطبعة المجلة الجديدة) ١٩٣٥ (تم المطبعة المصرية)

التجديد في الأدب الانجليزي الحديث (مطبعة المجلة الجديدة) ١٩٣٦

النهضة الأوربية (مطبعة المجلة الجديدة) ١٩٣٦

السيكلوجية في حياتنا اليومية (مطبعة المجلة الجديدة) ١٩٣٦

الشخصية الناجعة (مطبعة المجلة الجديدة) ١٩٤٣

البلاغة العصرية واللغة العربية (المطبعة العصرية) ١٩٤٥

كيف نسوس حياتنا بعد الخمسين (المطبعة العصرية) ١٩٤٦

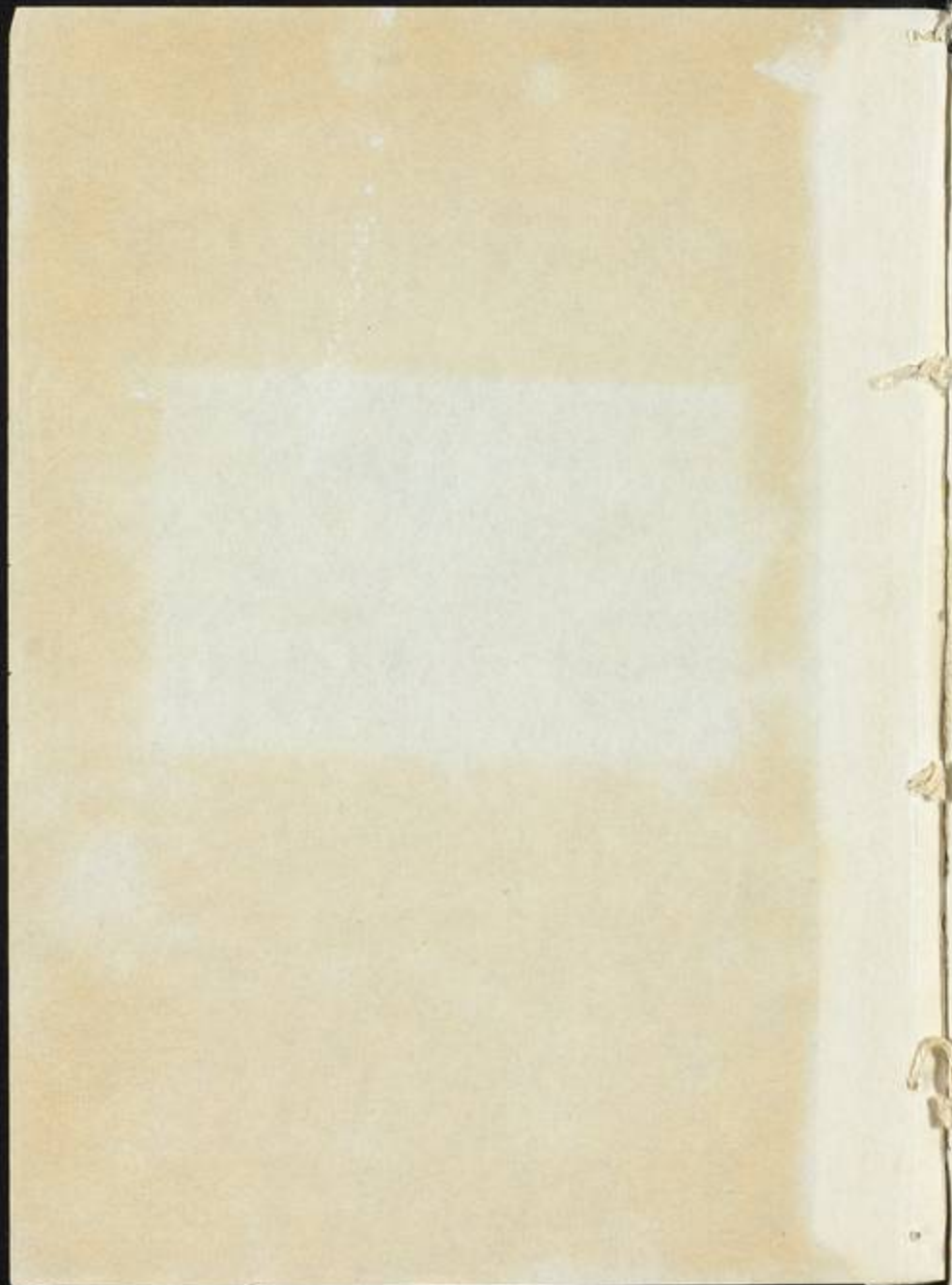
التثقيف الذاتي (لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١٩٤٦

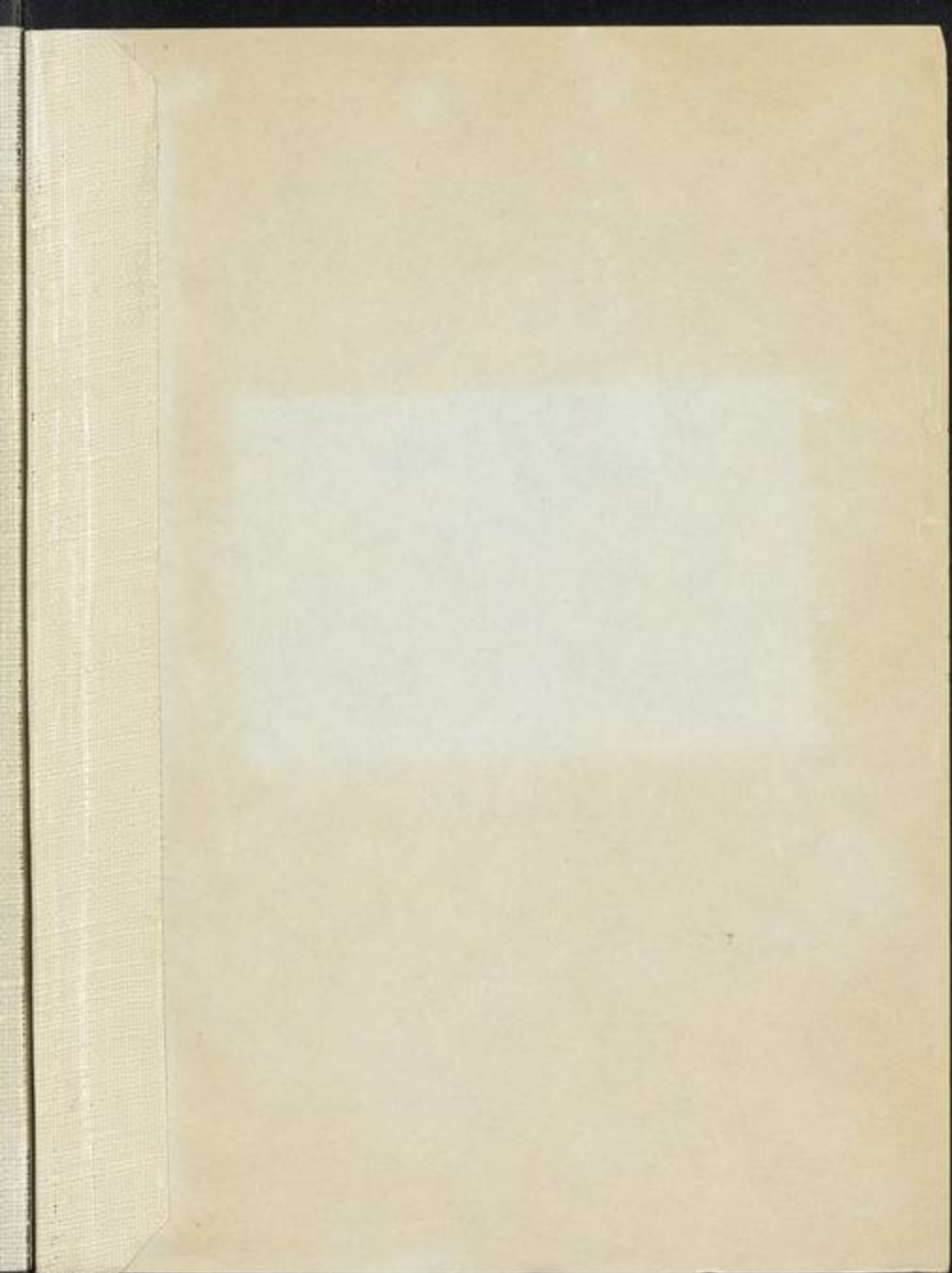
عقل وعقلك (دار الكاتب المصرى) ١٩٤٧

فن الحياة (مكتبة الانجلو المصرية) ١٩٤٧

تربية سلامة موسى (دار الكاتب المصرى) ١٩٤٧







LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY



32101 072574344

أصدرت دار الكاتب المصري بأشراف

*

ابراهيم المصري - قلوب الناس [قصص]
 محمد سعيد العريان - من حولنا [قصص] ،
 على باب زويلة [قصة تاريخية مصورة]
 محمد عبد الحلیم عبد الله - لقطه
 [جائزة فاروق الأول للقصة]
 يحيى الخشاب - حكايات فارسية

*

إجناس جولدتسيهر - العقيدة والشرية
 في الاسلام
 حسن عثمان - سافونارولا
 سلامة موسى - عقلي وعقلك ، تربية
 سلامة موسى
 عبد العزيز فهمي باشا - مدونة جوستينيان
 عبد العزيز البشري - قطوف [جزآن]
 محمد الصادق حسين - البيت السبكي
 يوسف كرم - تاريخ الفلسفة الأوربية
 في العصر الوسيط

موريس باريس - جنة على نهر العاصي
 هنري برجسون - الضحك
 بيير بنوا - غانية أطلنطا
 أنطوان تشيكوف - قصة رجل مجهول
 إيفان ترجنيف - الحب الأول
 ألدريد جيل - أوديب - تيسوس ،
 الباب الضيق ، مدرسة الزوجات
 فيدور دوستوفسكي - المقامر
 ليون دوديه - كيمتصو وحياته العاصفة
 أ. دي سانت اكسوبري - أرض البشر
 ستدال - دير بارم [جزآن]
 إميل لودفيج - نابليون [جزآن]
 أندريه موروا - وازن الأرواح
 فرانسوا مورياك - والدة ، عقدة الأفاعي
 برويسين ميريميه - كولومبا
 أوسكار وايلد - صورة دوريان جراي ،
 شبح كاتريفيل
 ه. ج. ولز - طعام الآلهة
 أولدس هكسلي - العالم الطريف

ه. شارب قنطرة الدكة
 القاهرة - مصر



دار الكاتب المصري
 شركة مساهمة مصرية